حسين حسن السقاف

الرجل الحوت



رواية

حسين حسن السقاف



رواية

بسم الله الرحمن الرحيم



تأسست المكتبة الأم في عدن قبل عام ١٨٩٠
تأسس المركز في صنعاء عام ١٩٩٤

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء ١٠١٦/٢٠١١

الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ الموافق ٢٠١١م

صورة الغلاف: لوحة عالمية نقلتها بالزيت ريشة المؤلف

التنفيذ الطباعي:
مركز عبادي للدراسات والنشر
ت: ٤٨٥٦٩١/ فاكس: ٤٨٥٦٩٢
سيار: ٧٧٧٢١٩٦١٧ ص.ب: ٦٦٢
صنعاء - الجمهورية اليمنية
Email : n_Obadi@hotmail.com

شكر وتقدير

لمؤسسة مدى ممثلة بمديرها الأستاذ القدير / عبدالمجيد فيصل الفهد على تبني طباعة هذا الكتاب مساهمة منه في نشر ثقافة التسامح والمحبة.

أشكر زوجتي التي وفَّرَت وتوفر لي الجو المناسب لكتابة أعمالي عموماً.

أشكر الإخوة والأصدقاء والأخوات الذين ساعدوني بملاحظاتهم في بناء هذا العمل الروائي.

المؤلف

الإهداء

• إلى روح والدي الذي رباني وأدبني، إلى روح الشاعر الـذي حَـرَقَ نفسه ليصنع من رُفاته حبراً، ومن عظمـه قلـماً، ومـن كفَنـه قرطاسـاً، يكتـبُ عليه قصيدةً، ليستطلع وطنه شمساً تُضيء دروبه.

• إلى الشاعر الذي لا يؤخذ عليه إلا انه كانت له آمالٌ ثوريـة ووحدويـة... تم تحطيمها على صخرة الواقع (واقع العامة) الذين لم يحضوا بالانتساب لمـن كانوا على دبابة نوح وهي تدك قصر البشائر.

• إلى الـشـاعر الــذي نَظَـمَ أول مـسرحيـة شعــرية يمنــية باســم (إلى فلسطـين) عام ١٩٤٨ م.

• إلى من نَظَمَ ديوان (ولائد الساحل) الذي طبعته مطبعة الحلبي بمصر عام ١٩٤٣م وهولا يدري حينها بأنه يقتحم بوابة الريادة العربيـة للـشعر الحـديث قبل أن يكتبه غيره ممن نُسب إليهم الولوج إلى هذه البوابة قبله، حتـى قـال فيـه الشاعر الكبير أحمد الشامي في مرثيته. المنشورة في جريـدة الـشرق الأوسـط في ١٢/ ١٢/ ١٩٨٥ م:-

بقايـــا أُفـدِّيهم بروحـي وإن تــكُن ... مذاهـــبهم فـــي الــرأي غيـــر مــذاهبي

عزاءً (بنـي الـسقاف) فالحسنُ الآذي ... قـضى نحبــهُ، قــد نـالَ خَـير الرّغائــب

لقد عـاش قِـديس الـسلوك، ضـميرهُ ... يــؤازره، كالمـستشار المـــــــراقب

(ولا ئده) في ساحـل الحـبِ والهـوى ... نمــت تتــصاغى في صـــــدور الحبَائــب

فكـان بهـا للـشعـرِ أول ثـــــائرٍ ... على نـسَق (الأعـشى) ووزن (إبـن غالــب)

وإن وقف القـاريُ عـلى رسـم قـبرهِ ... لــينعت مــا في جوفـهِ مــن منـــاقبِ

فلا ضيرَ إن صلى وسلـــــمَ قـائلاً: ... (هُـنا خـير مظلـومٍ) (هــُنا خـيرَ كاتـبِ)

المؤلف

دمعةٌ وهمسة

ليس لديَّ ما أهديه إلى الشهداء ودمائهم الزكية الطـــاهرة وإلى الثوار الشباب في ساحات الحرية والتغييـــــر في وطننـــا العربي الكبير الذي تتشكل اليوم ملامـــح نهـــضته ووحدتـــه الحقيقية.. لقد منح هؤلاء أمتنا المحتضرة قُبلة الحياة. كانت كل تضحياتهم من أجل عودة سمونا، و سعادتنا، وسيادتنا علـــى أرضنا..

لا يسعني إلاَّ الالتحام بهم، ووضع يدي على أيديهم، ومعانقة صوتي لأصواتهم، والمطالبة بمطالبهم السِلميَّة البعيدة عن النـــزق، الملتزمة بالأخلاق العامة.

لقد صنعوا – بفعلهم – لوحة (بانورامية)، مشرقة، رائعة، تعكس جوهر تراثنا وقيمنا. وغرسوا لوحتهم في رحم التاريخ ليسجلها لنا بأحرفه النيـــرة في صفحاته الوضَّاءة.. لذلك فإنني أردُ على من خالفني الرأيَ بهذه الكلمات التي أنشأتها:

كُنـا أصحــاب سمــوٍ
كُنـا أصحــاب سيـادة
كنـا كالإخــوة نـعيش
كنـا في الأوطـان سـادة

فسُلِبـنا كـل ذلـك!!

أوَ تـدري من "سلــبنا" ؟
إنهـم أهـل السمـــو
والمعـــالي والسيـــادة

خـــتاماً فإنني أهمس في أذن إخـــوتي الشباب:

تحملوا مسؤوليتكم في الحفاظ على ثوراتكم
من لصوص الثورات وقراصنتها..!!

المؤلف



شخصيات هذه الرواية الذين عشت بينهم طويلاً -بفئاتهم العمرية المختلفة- هم الأصدقاء الأعزاء، السعداء، الأشقياء، إنني أتوق إليهم كل ما تأخر بي الوقتُ عن منزلي.. كل ما أبعدني شأنٌ عنهم.

أتوق إلى رفقتهم لأشم فيهم رائحة البحر وزنَخِه، لأسمع كلماتهم الناعمة أو الخشنة المشروخة. لأستمع إلى نكاتهم المحتشمة أو البذيئة، لأسمع قهقهاتهم التي توقظ الحيتان في أعماقها وتستنفر الشُعَب المرجانية من سكانها. أتوق إلى دعاباتهم التي لا تخلو من عنف وسذاجة.

هؤلاء الأصدقاء.. بأجسادهم الموشومة، بسواعدهم وأقدامهم التي تنام مشمرة وربما متلاصقة كأسماكٍ حَبِلت بها في الظلام شبكةُ صيادٍ مجدود[1]. أو بملابسهم التي أحالتها المكواة زعانفاً وأجنحة.. كل هؤلاء يحملون أكثر من باقة وَردٍ، يرسمون أكثر من لوحة وِدّ إليكَ أيُّها الإنسان الذي أزاح ألقابه ونياشينه، من أجل أن يغوص في بحر الإنسانية ليضعه في محبرته فيحمله قلمه - ترياقاً حياً نابضاً - لينشره في القراطيس، كل ذلك من أجل الحُب. الحُب بمعناه الأسمى الذي لم يفقهه (المتفيقهون

(١) محظوظ.

الجُدد).. والذي تجده في نواميس وقواميس الأرضيين والبحار والأفلاك مُذ فطرها خالقها..

أنظر إليهم سيدي.. إنهم يرفعون قبعاتهم ويرفعون عمائمهم، يكشفون عن غابات رؤوسهم الملوَنة بألوان الطيف، ويكشفون عن صحاريها اللامعة ببقع السراب.. إنهم ينحنون إجلالاً وإكباراً لمقامكم الذي أبى إلاَّ أن يكون سامياً.

أستاذي.. د. عبد العزيز المقالح أنظر إليهم.. هل عبروا عن ذلك كما ينبغي؟..هل رعَوا لصحبتي حقها..؟

المؤلف



عزيزتي..!

كم حَملتُها بين يديَّ مثل أخواتها اللاتي لم أعُـد أرَاهـن بعـد زفـافهن، مكتفياً بها أسمع عنهُنّ مما يُثلج صدري.

كم رافقتني و لازمتني داخل البيت وخارجه كمرافقة قطة لسيدتها العزبـاء، كـم أخـذتها عـلى سـيارتي لنجـوب الـشوارع معـاً، نفـترش المتنـزهات العامة، نجلس متقابلين وجها لوجـه دون أن نَمِـل النَّظـرَ إلى بعضنا، كم تسلل النومُ إلى أهدابي وأناأ أنظر إليها عند ما كانـت صـغيرة، كم كنتُ أُلاطفها وتُلاطفني لنمضي الهزيع الأخير مـن الليـل متقـابلين، كم كان بالي مشغولاً بها وهي تنمو بين يديَ كما تنمو سجادة الحرير بـين أنامل صانعها.. كم كانت عيناي ترى جمالها وبهاءها..

كان طيفها يُسيطر عليّ كل ما أبعدني شأنٌ عنها.. كنت حريصاً عـلى أن تكون بسيطة، متسامية عن السطحية، جميلة، خاليـة مـن العيـوب، في صفاء غرتها البهية، في كحلها الأسود، في رشاقتها، في سلاسة وانـسياب لغتها، في حُسن سكناتها وحركاتها، في دماثتها وخفة ظلها، في لماحتها، في

أثرها الذي يحمل أبعاداً تأثيرية بعدد حواس الإنسان.. وأخيراً في حُلَة زفافها القشيبة.

ليت شعري.. بعد إن اكتمل نضوج عزيزتي، بعد أن أصبحت شابة آنَ لها أن تستقل بذاتها، أن تصنع حياتها وتقرر مصيرها بعيداً عني..!

أعرف أنها بعد ذلك ستكون أشبه بصورة مهملة بين أنقاض مكتبتي، ربما تمر السنون دون أن أنظر إليها. سيقتصر اهتمامي على ما أسمعه وما اقرأه أو ما أقوله عنها في بعض المناسبات..

عزيزي.. عندما أزِف إليكَ هذه العزيزة مشهراً قرانها، عندما أودعها واعقدُ عقدها مع المتعهد أو الناشر.. بعد كل ذلك ستكون هذه الغالية على نفسي ملكاً لمن هو أغلى منها..

كل ما أرجوه هو أن تكون- أنت و روايتي - عزيزي القارئ سعيدين معاً..!

المؤلف



فراق

غَيل بن يمين بلدة صغيرة، ما تـزال ترتبط بمـشيمة الطبيعـة، فتجـد الفلاحين يذهبون إلى مزارعهم مُختَرِقِينَ قطع وخيوط السُحب الدُخَّانيـة -التي تكاد تلامسُ الحقولَ والفلواتِ - الناتجة عن المواقد والتَنَانِير التـي تعمل بالحطب، والمقترِنَةُ برائحةِ الخُبز الطري، هذه السُحب يتمسَّك بهـا الجوُ ولا يسمح لنسماته بإزاحتها ليستمتع باستنـشاقها خـلال سـاعات النهار الأولى عند ما يكون -أي الجو- محتسياً لقهوته الصباحية المصنوعة من قطرات الندى، تماماً كما يستمتع المدخنُ برؤية ومـذاق دخـان لفافتـه الصباحية الأولى.

تجد في الطريق إلى الحقل رجلاً يسوق بقرته، وينتشر حوله قطيعٌ مـن الغنم، وتمشي خلفه زوجته مترجلةً أو على صـهوة حمـار، محتـضنة بيـدها طفلاً أو بعض طفل، في حين تحمل في الأخرى عـصاً رفيعـة طويلـة مـن جريد النخل تهش بها على البقرة والمواشي المتقاعسة.

لعل ما يمُيز هذه المنطقة هو ما يتميز به ريفُنـا الجميـل، حيـث يكـون قرص القمر أكبر اتساعاً وابتهاجاً بزاويتي فمه المتقوس اللتان تـبرزان إلى الأعلى مما يحفز الناس هنا رجالاً ونـساءً شـباباً وشـيباً لأن يكونـوا أكثـر ابتهاجاً بالسَمر والمَرَح على ضوئه الفضي المتلألئ.

قرص الشمس هو الآخر يكون أكبر حجماً وأكثر سخاءً حتى أنه عند قدومه وعند قفلته يُحيل قِمم الجبال ذهباً، ويحيل أوراق الأشجار المتساقطة إلى دنانير ذهبية، علاوة على ذلك فهو يُضفي على حياة الناس هنا وضوحاً وشفافية ودفئاً في تعاملاتهم، مما يجعلهم أكثر مشاركة في ما بينهم لهمومهم وأحزانهم، لعل ذلك قلل من هامش الخصوصية في حياة الأفراد، فالأفراح والأتراح هنا ليس ملكاً شخصياً خالصاً بقدر ما هي مشاعة للجميع، ولعل ذلك أيضاً يُفسر نُدرة وجود الأمراض النفسية و العصبية، أو تلك الأمراض التي يتحملها العالم كضريبة لتطوره التقني، أو لمنحاه الجديد مع التجارة البيلوجية التي ساعدت العولمة على نشرها وسرعة تفشيها.

لا توجد في هذه المنطقة منشآت كبيرة ولا عمارات كالتي تشهدها البلدات والمدن، كل ما هناك منازل ومزارع يهرع إليها القرويون جماعات وفُرادى-في الوقت الذي تهرع فيه الطيور من أعشاشها- ليسَقّون مزارعهم من نهر يكبر عند ما يكون المطر وفيراً، وفي زمن الجدب يعود غديراً، وكما قيل يحتفظ النهرُ باسمهِ وإن شح الماءُ فيهِ.

تصب في هذا النهر أربعة أودية رئيسة، تسكن فيها قبائل هذه المنطقة - الذين تغلب عليهم حياة البادية الفطرية- فهم يحملون عادات العرب الأصيلة التي لم تكدرها مداخن النفط ولا مشتقاته، ولعل ذلك يتجلّى بوضوح في نصاعة القمم التي تعتم بها منازل المنطقة القمحية اللّون التي تفيض ميازيبها بدموع فرحها الصافية على الحارات والأزقة عندما تجود عليها السماءُ بمزنها، ليتحوّل لونها إلى ما يشبه الشاي الممزوج بالحليب فتعبق برائحة الهشيم، في حين ترتسم عند سماع هزيم الرعد في

السُحب الداكنة هالاتٌ من النور البنفسجي فوق تلك المنازل مما يضفي إليها مسحة من الوقار والمهابة. وتتشكل حينها لوحة (ميلو درامية) ساحرة، أعز من أن تبتذل بشكل دائم، فحسب الناظرُ أن يحظى منها بومضةٍ أو بعض ومضة ليكون منتشياً وسعيداً.

ينتهي ذلك النهر بغابة صغيرة تسمى (الدَّحقة) نسبة لدحقة قدم نبي الله هود عليه السلام على بعض أحجارها، وبها آثارٌ لأقوام موغلة في القدم، تعود إلى ما قبل التاريخ. تتلاشى هذه الغابة كل ما اتجهت صوب الشمال، لينضب تدفق النهر تدريجياً وتتلاشى نهاياته الحية، لينشر أصابعه الخضراء المتشبثة بالحياة بين أحجار المسيلة الصلدة المتكورة بفعل تدحرجها الأزلي، لتفرض هذه الأحجار نفسها بعد ذلك على المشهد التضاريسي للوادي، فيصبح الوادي أكثر وعورةً، فيرسم كل ذلك لوحة لـ(طبيعة صراع حياة)- حياة متدفقة، متجددة، متعددةِ الألوان والروائح والأصوات والنسائم والعطاءات مع حياة أخرى قاسية متحجرة أحادية اللون ترى في الموت والسكون حياتها التي تأنس بها وتفرضها على الألوان الطبيعية المتعددة في حين تُدافع هذه الغابة الجميلة الصغيرة عن وجودها، وتتشبث بحُلتها الخضراء المخملية الجميلة التي تحرص على ارتدائها على الدوام، بل أنها تضيف إليها باقات من الورود عند حلول الربيع لتتمايز بحلتها القشيبة هذه عن بقية الفيافي والقفار المحيطة العارية إلاَّ من بعض النباتات البرية، تستعين هذه الغابة بما يَرد إليها وتزودها به الأودية الرافدة لهذا النهر الصغير.

لا شك بأن عين الإنسان المتذوق للجمال عند ما تقع على صورة واضحة يستهويه إمعان النظر إلى هذه الصورة، ليتمتع ويستطلع

تفاصيلها حتى وان لم يكن يعنيه ما فيها، ناهيك عما إذا كانت هذه الصور تنقل إليك بديع صنع الخالق، فما يميز الطبيعة هنا أنها قد وفرت للعين هذه الدرجة العالية من الوضوح في الرؤيا بسبب خلو الأجواء هنا مما يعكر هذه المرئيات أو يخدش شفافيتها.

لعل من نافلة القول أن الناس هنا قد غنموا كرم الكريم بأن جعل الطبيعة تسقيهم وتطعمهم من غير إراقة ماء وجه، لتكون حنونة عليهم، تشدوهم بأطيارها، وتُشذيهم بأزهارها، وتسامرهم بنجومها وأقمارها، وتُميتهم بليلها، وتُحييهم بنهارها.

لعل الناس هنا يعيشون قصة حب وعشق وهيام مع هذه الطبيعة التي تتبادل معهم الصدق والوفاء وليمثّلا معاً -الطبيعة والإنسان- حالة من الوِئام والانسجام والتَماهي، لم تفسدها بعد مغريات المدنية الخدَّاعة.

في حضن هذه الطبيعة الدافئة وفي أحد بيوتها الصغيرة المبنية من الزِّبر المعجون بكُناسة بيادر القمح، المسقوفة بجذوع النخيل. عاشت (أم هاني) تعاني من الوَجد وآلاَم الفراق لوحيدها (هاني باعلي)، لعل مُعاناتها عجَّلت بزيارة بواكير الشيخوخة إليها، رغم أنها لم تبلغ بعد الخامسة والخمسين.

عندما يَعضُّ الزمانُ بأنيابه هذه السيدة، تكون أمنيتها الوحيدة قبل مفارقتها لهذه البسيطة، هي رؤية وحيدها هاني.

كانت تجدُ من ينادمها الحزن ويهوِّن عليها قسوة الفراق ولوعة البين؛ لكن بعد وفاة زوجها القاضي سعيد تكالبت عليها الهموم والأحزان لتتفرد بها ولتتجرع أحزانها بلا نديم. تتعلق المسكينة بأهداب أمل من سنوات طويلة، أبقَت عينيها ليلاً ونهاراً مفتوحتين بانتظاره، حتى جف ماؤهما وأبْيَضَّ سوادهما، بعد أن طال اغرورقهما بدموعهما في ظلمات

الليالي الحالكة، لتكون آخر من يسامر النجوم في لياليها التي طالت دُجنتها الحالكة.

لم تعُد أم هاني ترى اليوم إلاّ ظلاماً دامساً، بيدَ أنها ترى من خلال تلك الظُلمات، ومن نافذةٍ بصريةٍ أخرى، بصيص أملٍ يقويه إيمانها وثقتها بأن الحق تعالى سيحقق أمنيتها باكتحال هاتين العينين الغبراوين برؤية ابنها، وإن الذي ردَّ ليعقوب ابنه وبصيرته لا محالة سيَرُد إليها ضالَتها. وبعد أن استنفدت ماء شئونها[1]، ما عليها إلاّ أن تسقي ذلك الأمل بالصبر والثقة بالله والرضا بمقسومه.

غادرها ابنها هاني عندما كان يافعاً في الثالثة عشرة من عمره إلى السواحل الإفريقية لطلب الرزق. كان الفراق على هاني مريراً وبالخصوص فراق أبويه وصديق صباه بدر باعلي وابنة خالته وأخته من الرضاعة مريم التي كانت كثيراً ما تُحيطه برعايتها حتى أنها حفَّظته أجزاء من القرآن الكريم وعدد من الأحاديث ومعلقات الشعر العربي وحببت إليه الأدب إجمالاً.

كان يصف في خطابه الأول إلى أبيه رحلته إلى أفريقيا في البر والبحر يقول: في الخطاب كنت أفكر في ما يخفيه لي القدر.. كثيراً ما كانت أتذكركم وأتزود بذكرياتكم.

لعله يتزود بهذه الذكريات كل ما عضني الزمانُ وكثيراً ما كان يتعرض لعضات الزمان المسعور بأنيابه الضارية رغم أنه -أي هاني- مازال حينها غضاً.

عند ما وصل هاني إلى ليبيريا أسكنه محروق في بيته الذي يسكن فيه

---

١) دموعها

مع زوجته الليبيرية. في يوم من الأيام وبعد أن تناولا طعامهما قال محـروق لهاني :

- كيف وجدت أفريقيا.. هل أعجبتك؟..كيـف وجـدت الغابـة..هـل رأيت كل حيواناتها؟

- أجل رأيتها باستثناء حيوان وحيد القرن.. لم أره بعد.

- انه يوشك على الانقراض من قبل تجـار العـاج والـصيادين..بـسبب ارتفاع أسعار قرنه.. سكت قليلاً ثم أردف هناك أسطورة قديمـة تقـول أنه إذا ما أريد اصطياد وحيد القرن فأنهم يأتون بعـذراء ويربطونهـا عـلى جذع شجرة في الغابة فيأتي وحيد القرن ويضع قرنه المخروطي بين منبت فخذيها.

- ليست إلا أسطورة..أليس كذلك ؟

- إنها فعلاً كذلك.

- كل ذكر في الكائنات لديه قرن..الرجل منا أيضاً لديه قرن أيضاً.

- انه أمر مضحك أن يكون للرجل قرن..كيف سيؤدي صـلاته، كيـف سيستمتع بسجوده لخالقه.. لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم.

- لا ليس ذلك ما أقصده..انه هذا. قالها محروق وهو يضع يده بين منبتي فخذي هاني.

وقف هاني وقد أحمرَّ وجهـه خجـلا وغـضباً في الآن نفـسه. غـير أن محروقا أردف إن الجنابي من نوع الـزراقي والقـديمي الحـضرمية الغاليـة الثمن التي يضعونها في هذا المكان هي من قرن هذا الحيوان. غير أن هـاني قرر مغادرة مائدة الطعـام. وفي مـساء اليـوم نفـسه غـادر منـزل محـروق ليسكن في منزل آخر مع بعض الشباب العزاب.

لعل هاني واعتداده بنفسه وعدم استمرائه للضيم، كل ذلك قد أضناه في البحث عن عمل مناسب، ولعله من أجل ذلك طفق يتنقل بين عدد من المدن مثل مالندي ونيروبي ودار السلام وغيرها من مدن الساحل الغربي الإفريقي الذي يكثر فيه عدد المهاجرين من حاضرة بلده الذين يحظون هنا بمكانة اجتماعية وعلمية بل وسياسية أفضل من إخوتهم من أهل بلدته الريفية.

كانت هذه الهجرة شائعة بين أبناء هذه البلدة والبلدات والقرى المجاورة. هؤلاء المهاجرون الذين يعملون تجاراً وعمالاً وأجراء في الغالب ليس لديهم من التعليم إلاَّ النزر اليسير، إذا ما استثنينا بعض العلوم الشرعية، غير أنهم قد رُبُّوا تربيةً دينيةً حسنةً وبخاصة في المعاملات، لذلك تجدهم يحسنون التعامل مع الآخرين، مما عَادَ عليهم بسمعة حسنة في سوق العمل في السواحل الإفريقية.

إجمالاً ليست الهجرة إلى إفريقيا كغيرها من هجرات عرَب جنوب الجزيرة التي اتجهت إلى شرق آسيا أو الهند وغيرها.. بسبب أن المهاجرين إلى هذه البلدان الشرقية هم في الغالب من حاضرة حضرموت الذين يحظون بنصيب أوفر من التعليم مما انعكس على تفاعلهم وتأثيرهم على هذه البلدان خلافاً للمهاجرين من الأرياف الذين يفتقرون بعض الشيء إلى ذلك.

قسوة الحياة التي كثيراً ما كانت تُكَشِّر عن أنيابها لهاني في هذه الغربة جعلت منه شاباً يستفيد من تجاربه الحياتية لتجعل من عوده أكثر صلابة ومرونة في التعاطي مع هذه الغربة، لعلها كانت بذلك مدرسة عملية لتلميذ نجيب.

كل تلك العواصف والأنواء لم تتمكن من إطفاء تلك الابتسامة التي لا يفتر ثغره عنها، لم تكن هذه – الابتسامة– ساخرة أو شامتة أو ساخطة من الحياة، بل كانت رسمة أمل وإصرار، حتى بدت هذه الفرجة البسيطة الدائمة على شفتيه وكأنها بتَدخُّل جَرَّاح تجميل بارع، ولعلها – أي البسمة – كانت من أهم مفاتيح النجاح في مسيرة حياته النابضة بالحركة. علاوة على ذلك فهاني يتمتع بقدر من الوسامة وحسن المنظر ورصانة واتزان الحركة، فهو يمتلك ملامح تقرأ فيها قوة شخصيته، فسعة عينيه وبعد المسافة بينهما وبروز ذقنه الذي يوحي بالمثابرة وقوة الإرادة والعزيمة والحياء. عيناه اللتان أشبه ما تكونان بزيتونتين ناضجتين تتحركان بسكينة على سجادة ناصعة ما يشعرك بالطمأنينة، ليبدو وكأنه في حالة صلاة دائمة مما يشيع في الجو المحيط نوعاً من البهجة والسكينة معاً، علاوة على كل ذلك فهو كثيراً ما يُحسن هندامه، حتى أن بعض جماعته يقدمه أمام غيرهم مع صغر سنه، بل أنهم يدعونه بالقاضي نسبة لتولي والده القضاء في بلدته، فالذي ينظر إلى هاني بوسامته وحسن أناقته يجده كالشعرة البيضاء في القارة السوداء.

لا شكَّ أن كل ذلك أو بعضاً منه قد حسَّن طالعه في سوق العمل، بائعاً للوازم النساء في السوق الحرة بميناء (ليبيريا) عند التاجر الهندي (سانجيف والا) الذي كان كريماً ولطيفاً معه ومنبهراً بنجاح مشروعه التجاري؛ رغم اعتراضه في بادئ الأمر على سياسة هاني التسويقية، إلا أنه سرعان ما أعجب بهذا النمط التجاري الذي جعل من متجره أشهر محل لتجارة الجملة حتى أنه أصبح يتعامل مع هاني باعتباره أكثر من كونه موظفا في متجره.

كان هاني سعيداً بهذه الثقة التي يعامله بها السيد سانجيف. ولعلها كانت حافزاً له في بذل المزيد.

كانت أرباح المحل وفيرة وحوالاته المالية إلى أهله جيدة، و يجد متسعاً من الوقت يُشبع نهمه من القراءة حتى انه حاز على منحة الاستماع في أحد المعاهد الدراسية ذات البرامج المسائية. كل ذلك جعله راضيا عن عمله

ثمة مشكلة حدثت لهاني، لعلها كانت من أسباب تغيير مجرى حياته وهي أن ابنة رب المحل المدللة و الوحيدة (مير) شغفت به حباً، كانت تختلس من أهلها أوقاتاً لتزوره، وكان لا يرتضي منها ذلك، لم تنتهِ (مير) من صدوده وزجره، ويكون منها ذلك حتى في أوقات المدرسة التي كثيراً ما تتأخر عنها، لتأتي إلى هاني في متجره متحاشية أوقات الذروة لتشغله عن عمله.

في بادئ الأمر كان هاني منساقاً مع عواطفها التي أثَّرت فيه حتى إنه استجاب لإلحاحها عليه أكثر من مرة باصطحابها إلى دار السينما لمشاهدة بعض الأفلام الهندية التي تأخذ جُلَّ اهتمامها وتمثل أهم مصادر ثقافتها وتحفظ أسماء نجومها وتردد تمثيل بعضاً من مشاهدها وأغانيها ورقصاتها، وترتدي بعض ملابسها، غير أن هاني وجدها تتجه بعلاقتها معه إلى دروب تفوق سنها وتتسور حرمة الأمانة التي أُتُمِنَ عليها من قِبَل أبيها الذي ما كان ليسمح لها بالذهاب إلى السينما إلا عندما تقول له: إنها ستذهب برفقته.

يكون هاني في بعض الأحيان منساقاً إلى رغباتها إلا انه يلتزم بأن يكون أميناً عليها من غيره ومن نفسه وبالخصوص أن طيشها وصل بها

إلى ما هو أكبر من ذلك، فهي تريد من هاني مشاركتها ابتهاجها وإعجابها بالتغيرات الفيزيولوجية التي تطرأ على جسدها وهو يخوض عملية ولوج مبكرة إلى بوابة الشباب؛ ليذهب بها ذلك لأن تجعل من نفسها أشبه بعارضة الأزياء، فهي تقوم بارتداء الملابس المعروضة في المحل لتَخطل بها في مشيةٍ شبه راقصة بين غرفة تغيير الملابس ورواق المحل، يتخلل ذلك بعض الوقفات على الكرسي الذي يجلس عليه هاني، مقلدةً بذلك نجمات السينما الهندية.

ذات يوم طلبت مير من هاني اصطحابها إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام التي كانت حريصة على مشاهدته إلا أنه اعتذر لها بأنه سيحضر ندوة مسائية في كلية الآداب التي تخرج منها عن طرق الانتساب. وفي اليوم التالي حيث عطلة نهاية الأسبوع كررت طلبها فلم يجد هاني مناصاً من الإذعان لرغبتها.

عند ما أتت مير كانت تلبس حذاء بكعب مرتفع فبدت طويلة القامة وقد وقفت أمام هاني وقفة من يقف أما آلة تصوير.وكأنها تستطلع رأيه في هيئتها.

- انه غير مناسب لدخول السينما... تبدين كالنساء الناضجات.. كيف سمحت لك أمك بأن تلبسي هذا الحذاء؟

- إنه حذاءها...لقد أخذته خلسة ووضعتُه في السيارة عقب عودت أبي من عمله ولبسته في طريقي إليك.

- يا لكِ من محتالة؟.. هل ستستطيعين المشي به؟

- لقد تدربت عليه كثيراً وأستطيع العدوَ به..انه عندي أشبه بحذوة حافر الحصان عند ما يحتذيها.

- أنت محتالة وظريفة..سأخبر أمك برأيي.

- وهل تضنُ به عليَّ؟...إنك تذكرني بالرهبان الهندوس الذين يحرمون على أنفسهم النظر إلى الجمال.

- أنت كثيراً ما تثيرين في نفسي انفعالات يلزم الأمر بأن أكبتها لأنها محرمة لدينا.. فأنت تستفزين هذه الانفعالات..لا أدري كيف أجد نفسي منساقاً إلى صبيانيتك هذه.

- ألم تقُل قبل قليل بأنني أشبه بالنساء الناضجات ؟ أتدري لماذا كنتُ حريصة هذا المساء على مشاهدتنا معاً لهذا الفلم؟.. فقط لأثبت لك بأنني أُشبه بطلته.

وصلا إلى دار السينما متأخرين، لم يجدا الموقع المناسب في صالة العرض العلوية ذات الدرجة الأولى، فذهب بهما عامل السينما إلى الصالة العامة التي لا تخلو من وجود بعض السوقة والطائشين المكثرين من المكاء و التصدية والصياح، كان الموقع المتاح في هذه الصالة هو كرسيين في الصف الأخير أشار إليهما عامل السينما ببطاريته الكاشفة ليجلسا عليهما فجلسا على مضض.

احتوى الفلم بعض المقاطع الخليعة التي تخللت عرضه مما أثار صياح وتصفير بعض الرواد في هذه الصالة.

كانت (مير) تتحدث بسذاجة طفولية، طلب منها هاني أن تكف عن الحديث إلا أنها لم تتوقف،كان على مقربة من مير شاب ضخم الجثة تدخل في الحديث بلهجة سوقية قائلاً: أتركي مرافقك البارد هذا وتعالي إلى جانبي، لم تجبه مير ولم يجبه هاني أيضاً واكتفى هاني بأن قام إلى الممر بين الكراسي عازماً على مغادرة موقعه، عندها أمسك الشاب بيد مير قائلا: دعيه يذهب لشأنه، صعد الدم إلى وجه هاني فمال بجسمه إلى

الشاب موجهاً إليه بقبضته لكمة قوية أسقطته من طوله على الأرض، مما أحدث جلبة لتتحول أنظار المشاهدين إليهم، في حين جذب هاني يد مير ليتجها إلى الخارج، كان هاني يتلفت إلى الخلف خلال مغادرته لدار العرض.

- أسرعي ربما يلحق بنا الشاب مع بعض من هم على شاكلته.. يصعب علي العراك معهم وأنت معي.

- لن يلحق بنا.. لا شك بأنه استوعب الدرس ولا حاجة له بتكراره.

في طريق العودة إلى المنزل أقسم هاني لمير بأنه لن يصطحبها ثانية إلى السينما أي كان الفلم المعروض فيها.

- كان عليك أن تلبسي ملبساً أكثر احتشاماً بالخصوص عند ما تذهبين إلى الأماكن العامة،

- إذا فأنت تغيرُ عليَّ.. إنني أعتبر هذا الحادثة مكسباً أجلى لي حقيقة حبك الذي تخفيه عني على طريقة الرهبان.

- ما كان ينبغي أن تلبسي هذا الحذاء... ماذا لو تعرضنا لعراك مع ذلك الدينصور؟.. سيعيقك ذلك عن العدو؟

- سأجعل من رأسه فنجان شايٍ يتوق سُكَّره لأن يحركه كعب حذائي هذا!

- يا لكي من شيطانه صغيرة.. لا أدري كيف أصنع معكِ؟.

- يا لك من راهب مصارع لا أدري كيف أصنع معه؟.

كان هاني يحذر (مير) من القدوم إلى المتجر، لعله خشي من تطور علاقته بها، أو لعله خشي أن يمس ذلك بسمعته التي يَعُدها رأس ماله الوحيد.. طَالَته تعليقات لا تروقه من بعض جيرانه في العمل. وعند ما

عرف صديقه (عُمر) ذلك حذره من أن يصل الخبر إلى جماعته في السكن فيستغل (محروق) ذلك أيما استغلال.

تمكن هاني من الحد من تعلُق مير بالأفلام، وذلك عند ما شرع يحكي لها ملحمتي (المهابهارتا) و (الرمايانا) الهنديتين كان يحكي لها قصة الأمير الهندي الذي نُفي من بلده و قصة فقده لزوجته وقطعه الفيافي والوديان وهو يخترق الحواجز والحدود بحثاً عن شريكة حياته التي تبين أنها خُطفت من قبل أعدائه، كانت تتابعه باهتمام وهو يحكي تلك الأساطير. كانت أكثر إصغاء ومتابعة له بعد أن قال لها: أن هاتين الملحمتين هما المصدر الأساسي لأفكار الكثير من هذه الأفلام. بعد ذلك أعطاها رواية هندية مختارة باسم (فتاة غاندي) وبعد أن أنهت قراءتها قام بمناقشتها معها، كانا يبديان إعجابهما ببطلَة الرواية التي تعتَد بوطنها عند ما كانت تدرس في بريطانيا، هذه البلد الذي كان حينها يحتل بلدها، وكذا إعجابهما من كون الفتاة كانت خير سفير لبلدها الهند. وعند ما أشعلت الرواية جذوة الوطنية لديها، طفق هاني يحدثها عن (المهاتما غاندي) وشاعر الهند العظيم (رابدرانات طاغور) وعند ما أخبرت مير أبويها عن ذلك قال والدها:

- لعل هاني يعلمك ما غفلناه في تعليمك.

منحها بعد ذلك قصائد مختارة لمحمد إقبال ثم منحها ملخص للشهنامة والأوديسة فسرعان ما أحبت القراءة، فعمد إلى ترجمة وتلخيص روايتين أخريين للروائيين نجيب محفوظ وجُرجي زيدان، ولما كان ذلك بخط هاني فقد كان لهاتين الروايتين أثر حسن عليها.

هناك مشكلة أخرى يعاني منها هاني في عزبته (مجموعة سكنه) صَعُبَ عليه حلها، فقريبه (محروق) الذي يعود إليه سبب استقدام هاني

إلى هذه البلد الأفريقي قبل سنوات، أصبح يفرض عليه الوصاية رغم عدم تمتعه بالاستقامة لبعض سلوكياته الشاذة، ومع أن هاني قد نَصَح محروقاً عدَّة مرات بتعديل سلوكه إلاَّ أن نُصحِه يَذهب أدراج الرياح بل إنه كثيراً ما يأتي بنتائج عكسية.

مازال محروق يتمتع بسمعة حسنة خارج مجموعة سكنه، ولعل مرد ذلك يعود إلى أنه كان حسن السلوك كريماً مع الآخرين و مضحياً من أجلهم، ولم يكن سيء الطباع إلا بعد زواجه من السيدة الليبيرية، أما محروق فيزعم أن طليقته صنعت له سحراً.

رغم معاناة مجموعة السكن من محروق في سكنه الجديد إلا أنهم قد صبروا على كل ذلك ولم يُبيحوا بأسراره، لعلهم يدينون له بسابق معروف، أو أنهم يخشون منه قادم مكيدة، بعد أن أصبحت لديه قدرة وبراعة في تلفيق التهم وصناعة المقالب الخطيرة، حتى لقد تبين لهم مؤخراً بأنه يقوم في يوم الجمعة بارتداء اللباس العربي المكون من قميصه الأبيض ويلبس عليه كوت أسود اللون طويل ليبدو أشبه بطائر البطريق، ويذهب إلى الجامع باكراً ليقوم هناك بحصد الخطابات الوافدة من أهاليهم عن طريق المسافرين القادمين من بلداتهم، ليقوم بفك مظاريفها عن طريق البخار الساخن لمعرفة أسرارهم في سعيه للحصول على أي مستمسك يهددهم ويبتزهم به، لعلها قد أصبحت لمحروق شخصيتان متناقضتان، شخصيةٌ محترمة خارج السكن و شخصية أخرى لم تكن كذلك يعيشها داخل سكنه، كان قبل ذلك يسكن في منزل زوجته الليبيرية إلا أنه طلقها بعد سجنها على ذمة قضية تزوير عُملة من الفئات الكبيرة التي كانت تحاكي رسمها ببراعة لدرجة يصعب معها تمييز الأصل من التقليد، عاد

محروق بعد ذلك ليسكن مع هذه المجموعة. في بادئ الأمر كانت تصرفاته معهم مقبولة إلاَّ أنها لم تعد كذلك.

يحمل والد هاني في غيل بن يمين كغيره انطباعاً حسناً عن محروق فهو يُعزي إليه الفضل في استقدام ابنه إلى ليبيريا، ناهيك عن قرابة الرحم التي تجمع بينهما، لذلك كان في خطاباته الأخيرة إلى ابنه كثيراً ما يوصيه بأتباع محروق. لم يعلق الابن على ذلك في خطاباته فهو يكتفي بالكتابة إلى أبيه بقوله: إن ما علمتني من القيم والفضيلة لا تحوجني إلى إتباع أي شخص آخر بمن فيهم محروق..وكل ما تعلمته منكما أعتبره خارطة طريقي في الحياة ولن أحيد عنها مطلقاً.. مازلت احتفظ بوصية السفر، فإذا ما وجِدَ شخصٌ ينقل إليكم عكس ذلك فهو مجافٍ للحقيقة. هاني يعرف أن أي إساءة تصدر منه لمحروق ستُغضِب والديه كثيراً، لذلك فهو لم يقدم على ذلك مطلقاً، ويرى أن كل ما يجب عليه هو التحلي بالصبر مع الحذر والسعي قدر المستطاع إلى مُسايسة قريبه حتى يجد لنفسه مهرباً إلى مكان لا يعرفه ولا يصل إليه ذلك المحروق.

عندما تتفاقم معاناة هاني من محروق – الذي كثيراً ما يُعكر عليه صفوه– يلجأ إلى صديقه الدائم الأكثر نفعاً ليجد فيه أُنسه وانشراحه، فهو كثيراً ما يقضي معه أوقات فراغه، حتى أنه عندما يصحو باكراً يجد صديقه هذا محتضناً لصدره براحتيه البيضاويين وليكون آخر من تراه عيناه قبل منامه وأول من تكتحلا به عند إفاقته، إنه الكتاب الذي صنع لهاني ثقافته العصامية المتنوعة التي لم يفوتها حتى ثقافة الطبخ، ولعل هذه جعلت من هاني أكثر أفراد المجموعة مداومة في المطبخ ؛ ليقوم بإعداد الوجبات التي يستقطع وصفاتها من قصاصات المجلات التي يحصل عليها من السائحين

الوافدين إلى الميناء ليقوم بإلصاقها في سيراميك المطبخ الـذي صـار أشـبه بـ(الدّارك روم) لأستوديو تحميض الصور الفوتوغرافية.

****

بالرغم مـن أن مجموعـة هـاني في الـسكن تعتمـد عليـه كثـيراً حتـى لمساعدتهم في أمورهم الشخصية، إلاّ أنهم لا يمنحونـه حقـه ولا يـردون إحسانه عليهم بإحسان، لعل ذلك مرده إلى (محروق) الذي يزهـو كثـيراً بتنغيص حياة هاني،كان يرىَ ذاته وعظمته التي يتوَهمها بمضايقته لأكثـر أفراد العزبة تقديراً وثقافةً ومنفعةً للمجموعة، فهو يـستغل بـذلك صـلة قرابته بهاني الذي يصغره سناً ودرجةً أسرية، فما يكون من هاني إلاّ تقـدير هذه الدرجة ويتحمل من أجلها الكثير من المنغـصات، لعـل الأمـر بلـغ مداه عندما عاد محروق ذات ليلة مترنحاً متعكزاً على قنينة (عـرق) بلـدي نتن الرائحة بصحبة مراهق خلاسي[1] تتصفح أصابعه بعددٍ مـن الخـواتم الرديئة التـي يكـسي الـسواد نقـشاتها، وتتقدمـه يديـه مثـل ابـن حيـوان (الكنغر) عندما يكون في جراب أمه، وكأنه نُقِش بالحِناء للتَو على يديه.

أراد محـروق أن يُجلـس ضـيفَه في غرفـة هـاني باعتبارهـا الأنظـف وباعتبارها الغرفة الوحيدة التي يمكن إغلاقها دون بقية الغـرف – التـي سبق لمحروق أن قام بخلع مفاتيحها – وعند ما أَبىَ هاني أن يفتح له باب غرفته قام بكـسره حتـى أن الأمـر أحـدث جَلَبـةً وإزعاجـاً للجـيران في العمارة لتتطور هذه الحادثة وليصل الأمر إلى الشرطة.

قام رجال البحث بالتحقيق مع هاني وكـان صـادقاً معهـم في أقوالـه التي ساهمت في إدانة محروق، لذلك قـاموا بـسجنه. ورغـم كـل ذلـك لم

---

١) الخلاسي أو الخلاسية، هو من كانت أمه بيضاء وأبوه أسود أو العَكس.

يعف هاني نفسه من الذهاب بالطعام والشراب والفراش إلى محروق في سجنه.

لا يعتمد غالبية المهاجرين من غيل بن يمين في أفريقيا على دوائر البريد في إيصال واستلام خطاباتهم ومراسيلهم، فهم يعتمدون في ذلك على المسافرين القادمين والمغادرين ويرون ذلك أكثر أماناً وضماناً لما يرسلونه من نقود ومواد عينية، كما أن غيل بن يمين تبعد عن أقرب مركز بريد - والذي يقع في مدينة (الشحر)- بما يزيد عن ثلاثمائة كيلو متراً.

لا توجد للغيليين فرصة للتزاور والتلاقي من البلدات والمدن الأفريقية المتناثرة إلاَّ يوم الجمعة، فهم يتسلمون الخطابات الواردة إليهم ويرسلون خطاباتهم وهداياهم إلى ذويهم في هذا اليوم ويجدونها فرصة ليُسلِم بعضُهم على بعض، ويتذكرون بلداتهم وقراهم وأهاليهم ويتداولون الأخبار الواردة منها.

في اليوم التالي لسجن محروق كعادة هاني في كل جمعة ارتدى لباسه العربي المكون من إزاره وقميصه الأبيضين وطاقيته الزنجبارية وحزامه السنغافوري العريض المصنوع من الصوف الأخضر، ليذهب باكراً إلى الجامع لتأدية صلاة الجُمعة، وقد أخذ معه هذه المرة إفطاراً لمحروق، وأخذ خمسة آلاف شلن وهي كل ما لديه ليدفعها للنيابة المجاورة للسجن كضمانة لإخراج محروق من سجنه بيدَ أن الإدارة طلبت عودته يوم السبت عندما يكون رئيس قسم النيابة متواجداً ليعطى أمره باستلام الضمانة، في بادئ الأمر اعتزم هاني أن يعطي المبلغ لمحروق غير أنه عدل عن ذلك، بل أنه أخفاه عنه تحت تلافيف إزاره.

تقديراً من إدارة السجن لصدق هاني ووقوفه مع الحقيقة، سُمح له بالدخول إلى البهو الذي تُفضي إليه الزنازين، فُتح باب الزنزانة لمحروق لمقابلة زائره. بذل محروق خلال المقابلة جهداً كبيراً في إعاقة هاني عن الذهاب إلى صلاة الجمعة، أراد أن يؤخره لتفوته الصلاة ليعود هاني أدراجه إلى المنزل حتى أنه تشبث بقميصه بيده المتسخة ليتلف نظافته في محاولة ثنيه عن الذهاب إلى الجامع، غير أن رجل الشرطة جاء ليُعلن عن انتهاء الزيارة.

المواصلات يوم الجمعة في ليبيريا تكون أكثر صعوبة، فكثير من السائقين لعربات الأجرة يركنون إلى الجلوس في منازلهم إلى جانب أسرهم في هذا اليوم.

بعد انتظار طويل وجد هاني سيارة تاكسي استقلها لإيصاله إلى الجامع. وصل متأخراً.. كل ما أدركه من الجمعة هو الركعة الثانية.

بعد أن قُضيَت الصلاة تأخر هاني في المسجد لقراءة حزبه من القرآن و الأدعية التي تعوَّد على قراءتها قبل الصلاة.

كان هناك أحد المسافرين وافداً من حضرموت يسأل عن محروق.

– أين محروق؟.. عسى أن لا يكون قد أصابه مكروه.

– لم يصبه شيء ولكنه لم يحضر..هل من خدمة أسديها إليك؟

– لدي بعض الخطابات.. هل تُسلمها له؟.. ليوزعها على أصحابها..إنه رجل خدوم.

– بالتأكيد سأسلمها له.

استلم هاني الخطابات التي كانت مجموعة في ظرف من الورق الكاكي المقوى.

يجلس كثير من الشباب بعد صلاة الجمعة خارج المسجد يتفيأون ظل سعف نخيل النارجيل الذي يحيط بالمسجد، يتجاذبون أطراف الحديث ويدخنون التبغ، عندما كان هاني خارجاً من الجامع جاء إليه شاب أسمر في عقده الثالث طويل القامة يعتني بهندامه يرتدي بدلة سفاري ذات أكمام قصيرة جعلت منها المكواة ما يشبه زعنفتي سمكة الحبار، وعلى رأسه طاقية زنجبارية، كان يُعَرِّف نفسه لهاني قائلاً:

- حسين بوعمامة..ألا تتذكرني مازلت أعمل في نفس المتجر الذي زرتني فيه قبل سنوات..كل ما في الأمر أن شريكي أتعبني ونكد عيشتي وزاد إلى غربتي جحيماً على جحيمها..غير أنه قبل أيام فقط عرض نصيبه للبيع واستطعت توفير قيمته غير أنها تنقصني خمسة ألف شلن لاستفرد بالمحل ولأتخَّلص من شراكته.. فعندما وجدتك الآن أحببت أن أعرض عليك الأمر فيما لو كان بمقدورك مساعدتي ولو بإقراضي بعض ما أحتاجه.

- أتذكر أنني رأيتك قبل ذلك في كينيا..وما زلت ممنوناً لكَ بإقراضي مبلغاً من المال حين وفدت إلى هذه البلد.. رغم أنك حينها لم تكن تعرفني.. إنها فرصتي لأرد جميلك.. هل نسيت ذلك اليوم ؟

- أجل تذكرته.. ولكن المبلغ الذي أقرضته لكَ كان يسيراً.

- ليس العبرة في حجم المبلغ ولكنها في المبادرة

- سأكون ممتناً لك بحسن صنيعك..سوف أعيد المبلغ إليك بأسرع ما يمكن.. لن يكون أمر استرجاعه صعباً عليَ بعد أن أكون المالك الوحيد للمحل إن شاء الله.

- أكتب لي استلاما بذلك.

- الآن؟..كم ستقرضني منه ؟

- ساعة بعد الجمعة تكون التجارة فيها مباركة.. سأمنحك المبلغ الآن.. أكتب لي استلاماً بمبلغ خمسة آلاف شلنا.

كتَبَ حسين استلاماً بالمبلغ وأشهد عليها نفرين ممن يعرفهم خارج المسجد وأشهدهما دور الاستلام والتسليم وعد المبلغ.

أخرج هاني المبلغ من تحت عطفت إزاره وسلمه لحسين وهو فرحٌ كان يقول:

- فرج الله كربتك يا هاني..مازالت الدنيا بخير وفيها من أمثالكم.

- آمين.. اللهم فرج كربتي وكربتك.. أخي حسين قالها هاني كمن استذكر شيئاً..هل شريكك هذا يمتُ إليك بصلة قرابة؟

- كيف عرفت ذلك؟

- لعله حسد الآهل!

أراد هاني أن يذهب بالخطابات إلى محروق في سجنه ليأخذ رأيه فيها، وبينما كان في طريقه إليه لمح خط والده واسمه على أحد تلك المظاريف، فرح هاني كثيراً باستلام ذلك خاصة أنه من أمدٍ بعيد لم يتسلم أي خطاب من والديه رغم مداومته على بعث الرسائل والهدايا إليهما.

عند ما كان هاني مستقلاً لسيارة الأجرة المتوجهة إلى مركز الشرطة فك مظروف الخطاب الذي يخصه وشرع في قراءته.كان والده يقول في هذا الخطاب المطوَّل:

لم يكن لي ولدٌ غيرك.. لذلك عمدت مع أمك على تربيتك تربية ممتازة.. ذهبنا بك إلى أفضل المُعلمين وكنتُ أُشرِف على ذلك بنفسي.. لم نتمكن من الذهاب بك إلى مدارس البندر وجامعاته لإكمال تعليمك لعجزي عن تحقيق ذلك، فأنت تعرف أن راتب القضاة يسيرٌ لا يكفي

لتلك المخاسير.. ولكنك رضعت الفضيلة من أمك التي لم تأكل إلاّ حلالاً.. لقد حبوت على الفضيلة ومشيت عليها وودعناك عند سفرك بها، ولم نسمح لكَ بالسفر إلاّ بعد ما تأكدتُ أن لديك من القيم والمُثل ما يُحصنُك من الرذيلة لتكون مثل قطرة الزئبق التي لا يمكن لأي قذارة أن تشوبها مهما لامستها.. كان يحدوني أملٌ بأنك ستصير سفيراً لدينك ولبلدتك ووطنك وأهلُك..كنتُ أحلم أن تصير خيراً مني.. وأن يهبك الله ما تمنيته مما لم يتحقق، لأفرح به فيك.. لذلك فقط عمدت إلى تسفيرك ليقيني بأن أنفع وخَير عمل لأبناء منطقتنا هو أن يكونوا سفراءَ لها في خارجها، فهم يكونون أفضل من أقرانهم ممن لم يهاجروا..لو أنك عملت بما رُبيتَ عليه لوجدت المنازل حيث تسافر كالوطن.. لا أشكوا انقطاع خطاباتك ومواساتك لأرحامك فإن ما أحصل عليه يكفيني بكفاف ولله الحمد والمنة، ولكنني أُفوض أمري وأبُث حُزني إلى الله في ما صرت إلية..وادعوا الله مع أمك ليلاً ونهاراً أن يهديك إلى جادة الصواب..

هل يصل بك الأمرُ إلى أن تكون كاشحاً في رحمك الذي كان عليك أن تتخذه في غربتك مئزراً تتزر به، وظِلاً تتفيئُه، وسِراً تكتمه، ودثاراً تتلحفه، وجادةً تسلكها.. إنني أتساءل هل ثمة غلطة اقترفتها في عملي خصوصاً، أم في حياتي عموماً؟.. ليحاسبني بها الله في ولدي؟... إن كان الأمر كذلك فلا أُبالي فعاجلُ العقابِ خيرٌ من آجِلهِ، والأمر لله من قبل ومن بعد..

أكتب لك خطابي بمزج دموع أمك بحالك حزني بعد أن قطعت عنا أخبارك.

كانت السيارة تميد بهاني كما تميد بسفينة عاصفةٌ هوجاء، انتابته حالة

من الدوران والغثيان بدا أشبه بمن يركب البحر لأول مرة، لا يعي بما حوله، توقفت به السيارة أمام مركز الشرطة:

- لقد وصلنا.. أليس هذا هو العنوان الذي طلبت إيصالك إليه؟

- بلىَ ولكنني كما ترى أشعر بنوع من الإعياء والدوران..

- هل أذهب بك إلى المستشفي؟

- لا.. أرجو إيصالي إلى (العرب استريت) جادة ستة وعشرين.

مثلت هذه الأحداث المتسارعة القشة التي قصمت ظهر البعير، وجعلت هاني يخبر صديقه بجدية بالغة في مفارقة هذه الرفقة؛ بل السفر إلى أبعد نقطة في هذه البسيطة يصل إليها خبرٌ عن قريبه محروق.

بـداية المشْوار مع البَحر

يجدُ هاني متعة كبيرة في النظر إلى البحر، في أفقه المترامي في تدرج ألوان زرقته التي تختلط بسلاسة بزرقة السماء. يجد متعة في استنشاق رائحة البحر وما تحمله من مادة اليود التي تعَوّدها، ليصبح ذلك جزءاً من برنامجه الصباحي الذي يجد نفسه غير طبيعي إن لم يخصص له حيزاً، ولما كان البحرُ قريباً من عمله فهو يصحوا باكراً للذهاب إلى متجره؛ ليمارس قبل ذلك تمارينه (السويدية) المنفردة بجانب حافة (الفَرضة القديمة)، تشُدّه حركة السفن الغادية و الملاحين وترديد أغانيهم الجميلة وحركتهم المفعمة بالحيوية والنشاط وأصواتهم اللطيف منها والأجش البذيء والحميد وضحكاتهم المجلجلة التي تختلط بأصوات طيور النورس والأمواج وحركة الرافعات وصرير وصفير الصواري والحبال وخفقات الأشرعة، لتشكل فسيفساء صوتية زاخرة بالحياة النابضة والمتجددة، التي يُعدها هاني معزوفة الحياة وسلامها الوطني الذي يستفتح به يومه، وبعد أن ينهي هاني تمارينه وتأملاته يقوم بفتح محله التجاري ثم يذهب إلى المقهى ليتناول بعض أقراص(الخمير)وكوبين من الشاي.

مازالت مشاهد وأحداث اليومين الماضيين تؤثر على هاني، لتجعل أفكاره ملبدة بالهموم، كانت السماء وقتها ملبدة هي الأخرى بالغيوم،

فقد هبت ريح عاصف حتى بدت الأشجار وقد جردتها الرياح مما تستر به ثناياها وفروعها لتُلقي بها بين الرافعات الآلية والعربات اليدوية التي بدت هي الأخرى تتناطح فيما بينها لتنتشر على أرضية الرصيف بعشوائية، كل شي بدا يتحرك بعدوانية حتى مصاريع نوافذ مبنى إدارة الميناء بدت تضرب بعضها بعضاً بعصبية كنائحات يلطمن خدودهن، لقد بعثرت الريح بالأشرعة التي تغطي المؤن الغذائية وأكياس الأسمنت والبضائع، حتى الأخشاب التي كانت مصفوفة وساكنة في حُزمها التي تجمعها ضاقت ذرعاً بوحدتها التي تربطها لترتفع أصواتها المزعجة على بعضها وكأنه قد بُعثت فيها روح شريرة. نشرت الرياح شحنات من المطاط الخام كانت معدة للتصدير لتغطي مساحة واسعة من الميناء،وقتها كان هاني بجانب الفرضة[1] ازدادت رياح (الأزيب) العاتية هذه لتعبث بالسفن الراسية في الميناء، لتجعلها مترنحة ومتهادية تصدر من أشرعتها المتأرجحة وحبالها وألواحها وأوتار صواريها أصوات صاخبة. وكأنها رقصة شيطانية، أجل انه جنان البحر الموسمي الذي تشهده المنطقة في فصل الخريف كل عام، غير أنه اليوم قد بدا أكثر هيجاناً وعدوانية. انفجرت العاصفة تحت ثقل السحب الملتهبة فذهبت الرياح تصفر وتزمجر وتحطم الأشياء من حولها. وقتئذ كانت إحدى السفن السياحية الأنيقة الرَاسية في الميناء قد انطلق عقالها من عروة المرساة الفولاذية المثبتة على الحافة الخراسانية للرصيف، لعل ذلك كان بفعل الشَّحم الذي وضعته إدارة الميناء على العروة -مانعاً للصدى- ولسوء ربطة الحبل، كان من الممكن أن ترتطم هذه السفينة بجاراتها من السفن الأخرى

---

١) الميناء.

لتحدث أضراراً جسيمة، غيرَ أن هاني لاحظ ذلك مما دفعه مسرعاً للغوص في الماء لالتقاط الحبل وإعادته إلى المرساة، قام بذلك بسرعة خاطفة، مستغلاً قرب السفينة من العروة قبل أن يأخذها ارتداد الموجة.

كان قبطان السفينة (قِريس) السيد (جون البيرتو) ينظر إلى المشهد وقد تسمَّر غليونه في يده، أصدر أمره لرجاله بإعادة الحبل إلى عروة المرساة غير أن هاني سبقهم إليه. أعجب الكابتن بسرعة بديهة ومبادرة وفطنة هذا الشاب الفتي، لذلك أمر رجاله بدعوته لتناول مكافأته على فعلته هذه.

صعد هاني على ظهر (قِريس) وهو مبتل كانت ثيابه القطنية ملتصقة بجسمه فأظهرت تضاريس عضلاته المفتولة وقامته الممشوقة. اقتاده أحد عمال الخدمات إلى الحمام وسلمه (بجامة) ومنشفة،أخذ العامل الثياب المخلوعة ليعيد تغسيلها وكيها ثم أُدخِل إلى غرفة نظيفة وأنيقة جيدة التكييف كان أثاثها فاخراً وبرداتها مصنوعة من الحرير الأذربيجاني المقلم، المجلس الذي أُعدَّ له وثيراً. دَارَ بين هاني والكابتن (جون البيرتو) حديث مطول في انتظار طعام الإفطار الذي اختاره هاني من القائمة، بدأ الكلام باللُغة الإيطالية، كان الحديث ذا شجون، بيدَ أن هذه اللغة لا تسعف هاني الذي يستعين بكلمات إنجليزية مُتقنة، لذلك استدعى الكابتن أحد رجاله ليقوم بالترجمة إلى الإنجليزية. ثم قال :

- لغة الايطالية سلسة و تجميعية قليلة النحو.

تعوَدَ هاني أن يكون لبقاً في حديثه كيِّساً في تعامله مع الآخرين فـ(الإيتكيت) من الفنون التي دَأَب على الاهتمام بها وممارستها، لعل أعمال التجارة التي كان ناجحاً فيها أصَّلت وصقلت ذلك السلوك فيه..

أُعجب الكابتن بشخصيته و ببساطته، مما دفعه لأن يعرِض عليه العمل معه في سفينته.

****

التنقل والسفر من الأحلام التي تراود هاني و تستهويه، شأنه في ذلك شأن من يكونون في مقتبل شبابهم، علاوة على ذلك فهو يرىَ في التنقل تجديداً لكل الطاقات. كان يحب الرحلات مع أصحابه وكثيرا ما يقول لهم: أن جلوس المرء في مكان واحد بشكل دائم، أشبه ما يكون بالماء الآسن الذي ما أن تطول به مدة ركوده، حتى يفسد ويتحول إلى مستنقع وخِم تكثر فيه الطفيليات والحشرات، وبدلاً من أن يكون مصدرَ خيرٍ، يتحول بفعل الركود إلى مصدر ضررٍ لعينه ولغيره. لذلك ردَّ هاني على عرض الكابتن:

– إنني أتوّق إلى الأسفار بشكل عام.. وحياة البحر بشكل خاص.. أعتقد أن عرضك مناسب لي.. كل ما يربطني هو محلٌ تجاريٌ سوف أقوم بجرده وتسليمه.

– سنبقى هنا يومين.. تستطيع أن توافيني بموافقتك خلال هذه المدة.. توقف الكابتن لحظة ثم أردف: أن جسارتك وثقافتك لا تحتاجها أعمال التجارة.. في اعتقادي أن التجارة عمل تقليدي.. ثم التفت برأسه إلى يمينه موجهاً حديثه لشخص آخر بالإيطالية:

– أحضر لهاني بطاقة تعريف.

أحضرها الموظف في الحال، ثم واصل الكابتن حديثه، قائلاً:

– تستطيع أيضاً إبلاغي بموافقتك لا حقاً على هذه العناوين، عندما تتوافر لديك الرغبة، سنكون سعداء بمعيتك..قال ذلك وهو يناوله

البطاقة الصغيرة التي تحمل عدداً من أرقام الهواتف.وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ودودة

- لا أظنكم ستكونون أسعدَ مني بذلك.. على كل حال.. فأنني أعمل لدى تاجر هندي.. سوف أقوم بتسليمه أماناته وترتيب البديل عني ليقوم بمهامي.

نهض هاني وودعه الكابتن بحرارة وسلمه مغلف من الورق المقوى مربوط بعناية بأشرطة ذهبية ذات نهايات حلزونية:

- إنها هديتك.

- أي هدية ؟.. ما قمتُ به واجب إنساني.. وفرحتي بقيامه تسعدني كثيراً.. لعل الهدية تسلبني فرحتي.

- أنت شاب نبيل.. ولا يدرك معاني كلامك إلا من يحب صناعة المعروف.

- شكراً جزيلاً..إن مكافئتي بحق هي معرفة أمثالكم سيدي..بأي حال فإنني عائد إليكم قريباً.. لذلك فإنني سأبقيها هنا.. كم أتوق للالتحاق بركبكم؟

لعل هاني أراد بذلك إبقاء الهدية عربونا للالتحاق برفقتهم.

التفت الكابتن بحديثه إلى احد رجاله قائلا:

- أحفظوها له لحين عودته إلينا.

عاد هاني إلى الحمام للبس ملابسه ثم ودعه الكابتن جون بحرارة لا تقل عن حرارة الاستقبال.

استقل هاني من فوره سيارة أجرة لتقله إلى الحي الهندي، بعد ساعة من الزمن وصل فيلة السيد (سانجيف والاَ) على ناصية شارع (أررات). قرع الباب كان السيد سانجيف يشاهد البستاني وهو يقوم بغرس أشجار نخيل (نارجيل) صغيرة في حديقة منزله، استقبل هاني بترحاب وأدخله غرفة الضيوف الواسعة ذات السجاد الكشميري الأحمر والساعة الأرضية العملاقة المسندة بالجدار ذات اللون الأبنوسي اللامع والتي بدت كحاجٍ نيجيريٍ من غير إحرام. جهاز البيانو الأسود يحتل ركناً في هذه الغرفة الواسعة بدا فاغراً فمه يلتهم نور الغرفة الخافت وقد برزت أسنان فكه الأسفل الناصعة، الكنب الذي يحمل طرازاً هندياً كلاسيكياً احتل الجهة الشرقية من الغرفة. عُلقت في الجدار الشرقي صورة زفاف السيد سانجيف مع حرمه، والتي بدا فيها وهو بكامل زينته وعلى رأسه عمامة السيخية وكأنها جزء من رأسه وإلى جانبه تجلس زوجته على كرسي تقليدي وقد بدت في الصورة أكثر شبهاً بابنتها (مير).

بدا السرور على وجه السيد سانجيف بقدوم هاني إلا أنه أدرك أن قدومه لم يكن عادياً.لذلك سأله:

- لابد أن أمراً هاما جاء بك! قال ذلك وهو يفتل شاربه وهي حركة معتادة منه حتى أنها أصبحت أشبه بالخوريا.

- سيد سانجيف إنني مضطر إلى الرحيل عن هذه البلدة.. قال ذلك هاني وقد ارتسمت على محياة بسمة وقورة.

- كم هي المدة التي تنوي التغيب خلالها؟

- لا أعتقد بأنني سأعود إليها في القريب..وربما لا أعود ثانية إليها.

- هل هناك مشكلة استطيع حلها ؟..سكت السيد سانجيف ثم أردف:

أنت تدرك منـزلتك لدي.
- أدرك ذلك وأعتـز به كثيراً.. إلا أنني يجب أن أُسافر..
- متى تعتزم ذلك؟
- بعد غدٍ.. طبعاً إذا وافقتني.. وتمكنـت مـن تـسليم محلـك التجـاري.
سوف أعمل على باخرة ايطالية سكت قليلا ثم أردف: ربما يكـون ذلـك بشكل مؤقت.
- قلت بعد غد ؟! قالها سـانجيف مـردداً لها باسـتغراب، وقـد قـوس حاجبيه.. طرق بعدها صامتاً لبرهـة ثـم أردف..لقـد فاجـأتني بـالأمر.
وسكت قليلاً ثم أردف هل لديك من يقوم بإدارة المحل مـن جماعتـك.. بنفس طريقتك التي تستخدمها؟
- أجل لدي من يقوم بذلك..انه عمر.. شـاب أمـين وقـد اسـتعنت بـه كثيراً في محلك.. ألا تتذكره؟ انه يعرف زبائننا.
- أجل.. تذكرته..ولكن.. هل تثق به كل الثقة؟.
- أجل..كل الثقة. ثم أردف: لكن سيدي.. يلـزم أن تحـضر بنفـسك في محلك ولو لمدة أسبوع.. ريثما يترتب وضعه ويستتب أمره.
- أنت تعرف أن لدي أعمال أخـرى غـير المحـل وبوجـودك فيـه كنـت معتمدا عليك بشكل شـبه كـلي.. هـل مـن سـبيل لجعلـك تعـدل عـن سفرك؟.. لدي استعداد لأن أضاعف راتبك.
- لا يتعلـق الأمـر بالراتـب.. لقـد حزمـت أمـري.. هـل توافـق سـيد سانجيف أن أحضر البديل عني إلى المحل؟
- أوافق..كلي ثقة بحسن اختيارك.. كـل مـا هنـاك.. توقـف قلـيلا ثـم أردف: أنكَ فاجأتني بالأمر.. ماذا أصنع؟.. لن أمـارس عليـك ضـغطاً

لمعرفتي بصدقك وعدم حبك للمراوغة.. ولكن ذهابك عني سيُمنيني بخسارة لا تعوض.

- إنني مضطرٌ لذلك سيدي.. سوف أكون مع عمر بعد ساعة في المحل.. هل نبدأ بدور الاستلام والتسليم للبضائع ؟

- أجل تستطيعان القيام بذلك.. ربما أتأخر عنكما.. ولكنني سآتي.

أعطى السيد سانجيف أمره إلى سائق سيارته (سهر مداس) بأخذ هاني إلى شارع العرب لاصطحاب عمر، ثم الذهاب إلى الميناء حيث يكون محله التجاري.

كان السائق لطيفاً مع هاني بل أن هاني يتهجى اسمه بطريقة لطيفة تعجب سهر مداس الذي يميل إلى النكتة والمرح وبالخصوص النكات البذيئة. ولعله قد تعود من هاني عند كل زيارة لمنزل سيده أن يهديه نكتة لذلك قال لهاني:

- أين هديتي سيد هاني ؟

- سأعطيك هديتك ولكنها ليست من العيار الذي تفضله.

- النكتة منك بركة.

- تَاهَ إعرابيٌ في الصحراء وهو يبحث عن جَملـه -في البرد القارس- وعندما جنَ الليلُ وجد خيمة مضاءة، يسكنها رجلٌ مع زوجته، فاستضافاه، وعند ما اطمأن رب الخيمة إلى أن ضيفه قد نام، ذهب في مغازلة زوجته،كان يقول لها: عندما تكونين معي أرى الدنيا كلها أمامي. فصاح الإعرابي قائلاً: إذاً فأنظر جَمَلي أين يكون!

****

ترجل هاني وعمر من السيارة وفتحا المحل وشرعا في تسليم الأصول الثابتة وأعدا بها كشفاً ثم عمدَا إلى جرد الأصول المنقولة من المبيعات ثم قاما بمراجعة (الفواتير) وحساب الدائن والمدين والإشعارات البنكية بالمبالغ المودعة.

في الساعة الثانية عشرة ظهراً توقفت بمحاذاة المحل سيارة نوع فيات يقودها سائق هندي طويل القامة، ترجل منها رجلٌ ينتعل جزمتين سوداوين لامعتين، يرتدي بنطالاً شحذت المكواة رجليه، ويرتدي قميصاً من الكتان قصير الكمين أحالتهما المكواة إلى ما يشبه زعانف سمك (الرئة) الأفريقي، تنوخُ على رأسه عمامة سيخية فاقعة اللون محبوكة على رأسه وكأنها قد نحتت من الجير، يتمترس وجهه بلحية فاحمة مشدودة على عارضيه يبرز في مقدمتها شاربان كقرني ثور بنغالي، يتحدث بصوت جهوري مشروخ أشبه بأصوات نجوم الرَّاب، دخل إلى محل الذي يعمل به هاني في حين عادت السيارة أدراجها.

عرَّف هاني السيد سانجيف بخليفته عمر قائلاً:

– إنه عمر الذي حدثتك عنه..زميلي..نسكن معاً.. وأثق به تماماً.

– أرجو أن تكون مثل هاني فإنني أعتبره أكثر من موظف في دكاني.. إنني أحبه مثل ابني.. لقد رشحك هاني لهذه المنزلة خلفاً له.. سأكون سعيداً بأن تحتلها.

– إن شاء الله سأكون كذلك.

– هل أنت ملتزم بفروضك الدينية مثل هاني؟

– طبعاً سيد سانجيف.

– شاباش شاباش.

لما كان المحل مرتباً بنظام فهرسة (الكاردكس) الذي يستخدمه هاني للوارد والمنصرف والحسابات المودعة لذلك كان أمر الاستلام والتسلم هيناً لم يأخذ وقتاً طويلاً. انبهر السيد سانجيف بالنظام الذي يستخدمه هاني في إدارة محلة، لقد عرف خلاصة الجرد بكل بساطة وشفافية وعرف إجمال الأصول المنقولة من البضائع وعرف المبالغ المودعة في البنك بطريقة خالية من التعقيد.

- لا أدري بماذا أكافئك يا هاني.. تستطيع أن تطلب ما تريد.

- الحق إنني أخجل حين أحكي لكَ حاجتي إلى مبلغ من المال..أرجو أن تمنحه لي على سبيل العهدة رغم أنني سوف أتأخر في سَداده..أحتاج إلى مبلغ عشرين ألف شلن. بسبب ظرفٍ طارٍ تعرض له أحد أقربائي.

- سوف أمنحك عشرة آلاف شلن مكافأة نهاية الخدمة، أما العشرة الأخرى تستطيع ردها في أي وقت تيسرت لك.

كانت هناك فتاة جميلة يقارب سنها الخامسة عشرة تحمل حقيبة مدرسية في خارج المحل تنادي على هاني وتطلب منه الخروج إليها، عند ما رآها هاني ذهب إليها مسرعاً.

- ما الذي جاء بك؟..أن أباكِ في الداخل.

- هل نذهب إلى السينما الليلة ؟.. هناك فلم رائع بطولة (بَاد مِني و راج كابور).. سنشاهده معاً.

- لقد أقسمت بأنني لن أصطحبك على الإطلاق إلى أي فلم.. أذهبي إلى سبيلك.. عودي إلى البيت.

عاد هاني إلى الداخل ولكن السيد سانجيف كان خارجاً، التقيا على عتبة المحل، رأى السيد سانجيف ابنته، وقد ارتسمت على محياه علامات

الغضب ناداها: (مير) !! أتت إليه وأبتدرها قائلاً: ما الذي جاء بك إلى هنا ؟.. يجدر بكِ أن تكوني في المدرسة.. ابقِ هنا سيأتي (سهرمداس) ليأخذنا على السيارة، انتظري في الداخل.

شعر سانجيف بأن هناك علاقة بين هاني و(مير) تتجاوز حدود المسموح لذلك ألغى فكرة توديع هاني بحفل تكريمي، كما أنه أعتبر قطع علاقته بهاني فيها خير من أجل ابنته، ولكنه خشي أن تكون لذلك تبعات عاطفية غير مستحبة على ابنته الغضة، خاصة بعد إصرار هاني على الرحيل من البلد.

قسَّم هاني المبلغ الذي حصل عليه إلى نصفين أخذ منه نصفه ليرسله إلى أهله والنصف الآخر قُسِّم إلى قسمين نصف للكفالة المالية لإخراج محروق من السجن. أوكَل هاني مهمة القيام بذلك إلى عمر. أما النصف الثاني فهو للقيام بالصرف على محروق خلال فترة إقامته في السجن لهذه المرحلة التأديبية..

– لا تدفع الضمانة إلا بعد أن يقضي محروق في السجن مدة كافية يقوم خلالها زملاء السكن بترتيب أوضاعهم في سكنٍ جديد.. وحتى يؤدي السجن دوره التربوي والتأديبي في محروق ليكون أكثر استقامة وأحسن تعاملاً مع الآخرين.

– هل أخبره عن مصدر هذا المال؟

– لا تخبره إلا بعد أن يخرج من السجن سكت قليلاً ثم أردف:إن ألحَ عليك.. أخِي عمر لا أزيدك توصية بالسيد سانجيف..كن أميناً عليه.. ألا ترى كيف كان كريما معي.. ستجده كريما معك أيضاً.. إني أثق بك كثيراً.

تعانقا هاني وعمر بحرارة وقد أحمرَّ وجهيهما عند الوداع.

استودعك الله.. إنني أوصيك بأن تكون أميناً على محل السيد سانجيف وعلى أسرته..هل تعدني بذلك؟

– أجل أعدك بذلك.. قال ذلك عمر وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة سرعان ما ابتلعتها مرارة الوداع.

****

في صباح اليوم التالي وهو اليوم الذي تَقرَّر فيه رحيل (قرِيس) من ميناء ليبيريا. كان هاني يقف على حافة الفرضة مرتدياً ملابس أشبه ما تكون بملابس البحارة، يحمل حقيبة متوسطة الحجم فيها ملابسه ومصحفه وكتبه. وفي جيبه خطاب إخلاء طرف واستلام المحل التجاري من قبل مالكه السيد (سانجيف والا) قام بتعميده من الغرفة التجارية.

بدا هاني يُلوِّحُ بيمينه، نظر إليه بعض أفراد طاقم السفينة، أخبروا السيد البيرتو بذلك فسرعان ما برز من (قُمرة) السفينة إلى سطحها.. بعد أن تبادلا التحية.. أخذ هاني حقيبته التي أحكم لفها بكيس من المطاط، مُدَ له جسراً خشبياً ليعبر عليه، استقبله السيد البيرتو مع بعض من طاقم السفينة. كان استقبالاً جيداً على ظهر السفينة (قرِيس) التي حلوا أشرعتها من أربطتها للبدء في مغادرة الميناء، يرافقهم هذه المرة زميل جديد.

طاف الكابتن البيرتو بهاني في أرجاء السفينة وهو يشرح له وظائف هذه المرافق، كان يقول له: إنني متأكد بأنك سرعان ما ستكون مُلماً

بأكثر من ذلك. حددت لهاني مهامه في السفينة وحددت حقوقه و جُعل تحت إدارة الكابتن مباشرة.

رفقة هاني والحديث معه شيء ممتع بطريقه عجيبة ربما لأن حديثه صادرٌ من قلبه، وربما لكثرة إطلاعه وسعة ثقافته التي اكتسبها، أو لعل ذلك مرده إلى معرفته بقراءة خلجات النفس البشرية، من خلال إلمامه بمعرفة الدلالات الانفعالية والإشارية، لذلك فهو يضع نفسه حيث يجب. أو ربما يعود ذلك لكل تلك الأسباب، كان يقول لصديقه:

- كي تستولي على اهتمام محدثك ومستمعك أنظر إليه بالتركيز على مساحة المثلث الذي تكون قاعدته بين زاوية العينين الإنسية[1]، وارتفاعه منتصف الجبهة. أما إذا ما نظرت إلى جليسك في المثلث المقلوب الذي تكون زاويتا العينين الإنسية قاعدته وينزل رأسه إلى منتصف الشفاه العلوية فإن ذلك يساعد على خلق جو اجتماعي للحديث.. بذلك تستطيع إيجاد حميمية بينك وبين من حولك.. أما إذا ما نظرت إلى المثلث الذي تكون قاعدته بين زاويتي العينين الإنسية نازلاً ليكون رأسه في منتصف عظمة القص - خلال استماعك- فإن ذلك يبدي لجليسك استمتاعك بحديثه فيبادلك النظر في المنطقة ذاتها فتتولد حميمية جيدة بين المتحدث والمتلقي فيحرص الطرفان على التلاقي، فإذا ما كنت في اجتماع عمومي متوسط العدد بحيث يكون للغة العيون مجالها، فبقدر ما تنظر إلى مترئس الاجتماع بهذه الطريقة فإنه يبادلك النظر والأهمية نفسها بل إنك تستطيع أن تحوز على اهتمامه وربما أخذ أفكارك وملاحظاتك بعناية وجدية في هذا الاجتماع.

---

١) مسمى تشريحي للتمييز بين اتجاهات أعضاء الجسم الداخلية والخارجية.

لدى هاني أيضاً قراءات قَلَّ ما تخيب في وجوه من يحتك بهم، تكون تلك القراءات في الملامح الخَلقية وفي الخلجات والانفعالات اللاشعورية الناتجة كردود أفعال للعقل الباطن، كان يستطيع إثارة هذه الأفعال لدى الآخرين ليرى انعكاساتها تلقائياً أو من خلال بعض الأسئلة الهادئة التي يراها المرء طبيعية غير مستفزة في كثير من الأحيان، فيستطيع بذلك أن يحدد المزاج العام لذلك الشخص، هل يكون مزاجه سمعياً أو بصرياً أو حسياً؟ ليقوم بعد ذلك بقراءته والتعامل معه وفق نتائج ذلك التحليل السريع.. كان يعلم تلك القراءات لأصدقائه.

****

نشأت بين هاني وزميل آخر في (قرِيس) علاقة حميمة منذ انضمامه إلى فريق العمل بها، إنه شهاب، شاب لبناني من صيداء تخرج حديثاً من الجامعة الأمريكية في بيروت، قرر العمل في البحر ريثما يجد له عملاً مناسباً على اليابسة، وما أن وجد ذلك في (كندا) حتى هجر (قرِيس) بعد أن أمضى على متنها ما يقارب السنتين والنصف.

أمضى هاني على السفينة (قرِيس) عامين ونيف.. كان في منتهى السعادة.. فهو كثيراً ما يمضي مع صديقه شهاب للتجوال في المدن التي يتوقفون بها ليجدوها فرصة لارتياد مسارحها ومكتباتها رغم تباين الأمزجة بين الصديقين، كان شهاب يتوق إلى ارتياد الأندية الليلية ذات الليالي الحمراء، إلاّ أنه عدل عن ذلك بعد أن تعرض لغصة كادت تُودي بحياته، أنقذه منها هاني، حتى أنه أعطى قَسماً بعدم العودة إلى تلك الأندية.

يهتم الكابتن جون البيرتو بتعليم ملاحيه أن يكونون أصدقاء للبيئة التي يتعاملون معها باستمرار، فهو بذلك يبر بالقسَم الذي أداه مع الزملاء في الأكاديمية البحرية التي درس فيها في روما.

ففي يوم من أيام الخريف كان البحر هائجا وكانت قريس مبحرة بسرعة تسعة عشرة عقدة في الساعة فإذا بحوت (العنبرية) الضخم الأسود يصطدم بأحد (البُرنصيات) الأوتاد الفولاذية المعلقة بالسفينة مما أحدث جرحاً بليغاً في الحوت جعلت دمها نازفاً، كان الكابتن يشاهد ذلك المنظر، تألم له كثيراً، لذلك توقفت السفينة عن الإبحار، أشرف الكابتن ومعه هاني على خياطة ذلك الجرح بعد أن تمت عملية تخدير الحوت و تُرك لحال سبيله في البحر.

انتقل الكابتن (جون البيرتو) إلى سفينة سياحية ضخمة تدعى (قرطاج)، استطاع إقناع هاني، بالانتقال معه إلى سفينته الجديدة. أما شهاب فقد قرر مغادرة البحر للعمل على اليابسة -معتقداً أن طول مكثه في البحر سيُنسِيه اليابسة ولن يألف العيش على اليابسة بعدها- لذلك فهو كثيراً ما ينصح هاني بأن لا يطيل مكوثه في البحر.

كان هاني حزيناً على فراق شهاب إلا أنه ما فتيَ يتراسل معه بين حين وآخر.

كان لتقدير مرؤوسي هاني واحترامهم له كبير الأثر على نفسه، مما أوجد له وضعاً فضَّله كثيراً على ما كان عليه في بلدته وفي العزب التي تنقل فيها كثيراً في مدن ممباسا ونيروبي ومالندي وكبتاون وليبيريا وغيرها

من المدن الإفريقية السوداء، حيث أورثته هذه العزب تركة ثقيلة الوطأة من الذكريات المؤلمة، التي تجعله يكره الحياة بأسرها، تمنىَ خلالها أن يستعيض بوسامته قبحاً ودمامة، حتى إنه أصبح لا يريد أن يستعرض شريط هذه الذكريات الأليمة، التي تعرض خلالها لكثير من المضايقات. كل ما تذكر هذه المشاهد والذكريات يعصف به الألم لينغص عليه عيشه ويكدر عليه صفوه، تمنى لو أنه لم يعش، وتمنى لو انه لم يسافر من بلدته ليعيش هذه الغربة القاسية الموحشة، كانت هذه المشاهد من القسوة عليه حتى انه تمنى لو أن ذاكرته تُمسح ليتحرر من سطوة هذه الذكريات والإحداث المبرحة، كان يعدها مثل نوبات الكابوس، الذي كل ما تباعدت الأيام، كلما تباعدت وقلَّت سطوتها على ذاكرته وتباعدت نوباتها التي يكرهها كما يكره المصروع نوبات صرعه، يتمنى أن يمضي به العمر سريعاً لتجاوز هذه الذكريات والأحداث الأليمة. تمنى أن يفقد ذاكرته إلى الابد ليتحرر من نوباتها. في البداية شلَّت هذه الأحداث والذكريات من تفكيره و حركته ونشاطه وإبداعاته غير أنه أدرك بأنه في صراع معها، لذلك قرر أن يشغل تفكيره بالمزيد من العمل والإبداع والقراءة.

إن سعيه لنسيان هذا الكابوس، جعله يسعى إلى تغيير البيئة التي يعيشها، حتى أنه وجد في البحر مفزعاً له من كل ذلك، ولعل اهتمامه بمسح هذه الذكريات، التي استخدم فيها أساليب هي أشبه بتقنية البرمجة اللغوية العصبية، جعلت هذا المسح يأتي حتى على أغلى الذكريات التي تربطه بأهله وربعه و مراتع صباه. لعله أضاع أو نسي كلمة أو حركة السر التي أقفل بها ملف هذه الذكريات.

إن ما كان يؤلمه هو أنه لم يدرك أسباب هـذه المنغصات إلا مـؤخراً، ليس لسذاجة منه ولكنها للقدرة الهائلة لدى محروق في الشر والإجـرام، لعل محروق اختـار هـاني لأن يكـون مختبراً ليجـري فيـه وعليـه تجاربـه الشيطانية بشكل مباشر وغير مباشر.

****

أصبح هاني اليوم يعمل في "قرطاج": التي تُعَد من بواخر الدرجـة الأولى السياحية التي تتوافر فيها كل سُبُل العيش والرفاهيـة، اسـتطاع أن ينسج فيها علاقات حميمة، مع طاقمها وروادها.

وجد هاني في البحر أمنه وكرامته التي لم يجدها على اليابسة، حتى إنه الوحيد من طـاقم الـسفينة "قرطـاج" الـذي يقـضي كـل إجازتـه عـلى ظهرها، أصبح مثل السمكة التي لا تعيش إلا في الماء. شجعه عـلى ذلـك صديقه (جون البيرتو) الكابتن العام لقرطاج والذي تتوطد بينهما العلاقة بشكل مضطرد.

كان الاثنان هاني والقبطان جون البيرتو يتجاذبان أطـراف الحـديث كعادتهما عند ما يكونان في فسحة من الوقت.

- هل أعجبك العمل في قرطاج ؟

- أجل غاية أمنيتي هي أن أعمل على مثل هـذه الـسفينة خـصوصاً وان قبطانها هو السيد جون.

- شكراً..انك تستحق كل خير..ولكن كيف وجدتها؟

- تتكون ألوان قرطاج من لونين أساسيين الأبيض والأزرق؛ وهما اللونان الأجمل لدي؛ وتضفي إليها قوارب النجاة ذات اللون البرتقالي على جانبيها جمالاً أخَّاذاً.. لبدو ذلك أشبه بعقد من الكهرمان حول عنقها.. تبدو قرطاج في أجمل وأزهى تألقها عندما تقارب الشمس على المغيب وهي تأوي إلى مخدعها، عندها يكون البحر أكثر زرقةً ؛ فيتجانس لون البحر مع قرطاج ؛ إنها أشبه ما تكون بفندق ضخم يعوم على البحر.

- انه وصف شاعري..لعل افتتانك بها هو الذي جعلك تزور مدينة قرطاج.. أقصد قرطاج المدينة.

- أجل.

- حدثني ما الذي أعجبك في مدينة قرطاج ؟.

- اعجبتني قلعة (بيرصا) بأعمدتها وجدرانها العتيقة وأرصفتها الحجرية التي شهدت كرم وحب الأميرة (عليسة) لأمير طروادة الذي فر إليها بعد هزيمته؛

- لقد شهدت عرضاً لذلك في أوبرا (ديدان و ايني) التي تحكي ذلك الحب للكاتب (هنري بيرسل).

- ولكن سيد جون..لماذا سميت هذه السفينة بقرطاج؟

- ان الأوربيين بطبيعتهم يعجبون بخانقهم، وهو ما فعلته قرطاج الشرق بروما قديماً.. لعل كثيرًا من الأوربيين منبهرين بقرطاج الشرق لاختراق قائدها هانيبال (جبال الألب) التي تمثل دفاعات روما الأكثر تحصيناً.

****

في إحدى ليالي الخريف التي كان الجو فيها ساخناً ذهب السيد جـون البرتو مع هاني إلى سطح السفينة للاستمتاع بالنسمات التي تهب بين حين وآخر والتي تتحرك أكثر بحركة سـير الـسفينة، كانـا يتجاذبـان أطـراف الحديث وينظران إلى القمر الذي كان بازغاً في تلك الليلة القمـراء، أتجـه حديثهما إلى السُفن القديمة، حتى قال الكابتن جون:

- هل تعرف سفينة تيتانك ؟

- قرأت رواية كانت أحداثها تدور في القرن السابع عشر باسم (الغيث) تتحدث الرواية عن سفينة غـير قابلـة للغـرق اسـمها تيتانـك غـير أنهـا غرقت في نهاية الرواية في ليلة باردة في مياه المحيط الأطلسي.

- لعل تسمية (Titanic) هذه مستوحاة من تلك التيتانك التـي وردت في الرواية كما استوحىَ اسـم سـفينتنا مـن قرطـاج ولكـن هـذه الـسفينة حقيقة، فهي أكـبر أسـطورة بحريـة، أتـت هـذه الـسفينة لـتحطم جميـع المقاييس في صناعة السفن عبر التاريخ، يعتبرها جميـع الملاحـين في العـالم حتى اليوم درساً مهما في عدم الاستهانة بـالبحر والملاحـة، لـذلك فـإنني سأرويها لك بإيجاز علها تفيدك.. هذه السفينة تحتـوي مرافقهـا وغرفهـا أثاثاً ملكياً فاخراً.. يكفي أن أقول لك بأن قيمة تذكرة متوسطة المـستوى فيها يفوق راتباً شهرياً لأحد ملاحيها.. يصل وزن السفينة إلى أكثـر مـن خمسين ألف طن.. وارتفاعها يقدر بأحد عشر طابقاً..سكت جون قلـيلاً ثم أضاف:

- إنهم يوازون طولها بمبنى (Empire State)

- أجل شاهدت ذلك المبنى من فنـدق (الـشيرتون) المجـاور.. إذاً فهـي عظيمة وعملاقة حقاً.

- لقد أطنبت الصُحف العالمية وقتئذ في نشر إعلانات موعد الرحلة الأولى لهذه السفينة من ميناء (Queen Stone) في بريطانيا إلى نيويورك، حتى إن بعض الإعلانات ذكرت بأن (الله لا يستطيع إغراقها) وهو ما قاله أيضاً المهندس المشرف -على عملية إنشاءها- للأميرة البريطانية عندما كان يشرح لها احتياطات السلامة والأمان للسفينة خلال تدشينها رحلتها هذه. توقف الكابتن برهة ثم أردف.. بفعل الدعاية الضخمة في أكبر وسائل الإعلام العالمية تنافس كبار الأثرياء في العالم؛ لأن يكونوا في هذه الرحلة في العاشر من إبريل ١٩١٢م: كان المرفأ يومئذ مزدحماً بالآلاف من الناس الذين أتوا ليشاهدوا هذه السفينة العملاقة، البعض منهم جاء ليودع النخبة التي حظيت بالسفر على متن هذه السفينة، ولعل غالبية من كان في المرفأ وقتها يتمنى لو أنه في قائمة المسافرين لهذه الرحلة.

بدأت تيتانك رحلتها ذلك اليوم بالفرح والأماني الجميلة، استمرت في رحلتها عبر المحيط الأطلسي على هذا النحو لأربعة ليال كاملة. ذهب الجميع يستمتع بأجمل الأوقات، ليس هناك ما يعكر صفوهم،كانت روعة وفخامة السفينة بحجراته الأنيقة ومطعمها البديع وما يحمله من أشهى المأكولات المختلفة، مثّل كل ذلك أكبر متعة حظي بها الركاب ناهيك عن المسرح والبارات والمراقص والأسواق الراقية وغيرها.

أثبتت السفينة جدارتها الفائقة في خوض غمار البحر، مما جعل الكابتن يطلق العنان للسفينة بأن يزيد سرعتها بعد أن قطعت شوطاً كبيراً من رحلتها خلال الأربعة الأيام الماضية بنجاح وهدوء تامين.

كان الكابتن العجوز إدوارد سميث هو أسعد السعداء على متن

السفينة، كيف لا؟ فهذه رحلته الأخيرة التي يختتم بها ما يزيد على ثلاثين عاما من العمل في أعالي البحار بنجاح وتميز.

في اليوم الخامس من رحلة السفينة وبعد منتصف نفس هذه الليلة، اكتشف الكابتن أنه وجها لوجه أما جبل جليدي، أوقف السفينة ولكن بعد فوات الأوان، تساقطت كتل كبيرة من الثلج على ظهر السفينة، توقفت السفينة، اكتشف الفنيون فيها حدوث كسر بجانبها تسللت منه المياه الباردة لتغمر السفينة.

توقف الكابتن جون عن الحديث ليضع غليونه في فمه.

- سيدي ألم تكن هناك رسائل إنذار مسبقة بوجود هذا الجبل؟

- تلقى جهاز المورس التابع للسفينة عدة رسائل من بعض السفن المارة بالمحيط ومن وحدات الحرس البحري تشير إلى اقتراب السفينة من الدخول في منطقة مياه جليدية مقابلة للساحل الشرقي لكندا. غير أنه لم يبدِ أحدٌ من طاقم السفينة اهتماماً بذلك لثقتهم المطلقة بسفينتهم، بمن فيهم الكابتن سميث.لعل جهاز (المورس) كان أكثر ما يستخدم في هذه الرحلة لنقل انطباعات الأثرياء إلى وكالات الأنباء، كان الصحفيون يقومون بإرسال تقاريرهم الإخبارية عن عملية الإبحار هذه، وينقلون انطباعات رجال الطبقة الارستقراطية من على متنها. فهم يعتقدون بأن سفينتهم أكبر من أن يعترض طريقها عارضٌ.. فكيف لهم أن يعبئون ببعض قطع من الجليد؟

- كيف صنع الكابتن العجوز؟

- أعطى أوامره بإيقاظ جميع الركاب لإخلاء السفينة وإعداد قوارب النجاة، كما أمر بإرسال نداء الإغاثة (SOS).

- هل كان المسافرون كثيراً؟

- يبلغ عدد ركاب السفينة ٢٢٠١ راكباً، بينما كان عدد قوارب النجاة الموجودة بالسفينة لا تكفي إلا لنقل ١١٠٠ راكباً فقد بدا ركاب السفينة يرتدون سترات النجاة المصنوعة من القنفاص والفلين. ثم أخذوا يصعدون قوارب النجاة. أمر الكابتن سمث بإخلاء السفينة من النساء والأطفال أولاً، على أن يذهب الرجال بعد ذلك إلى قوارب النجاة إن توافرت لهم أماكن بها.

في البداية لم يكن الركاب يرغبون الدخول إلى قوارب النجاة هذه، فلم تزل السفينةُ عملاقة في مُخيلاتهم، فقوارب النجاة الصغيرة لا تمثل لهم أمان سفينتهم، حتى أن بعض البحارة قد أخذ يدفع بعضاً منهم إلى القوارب غير أنه بمرور الوقت، تم امتلاء كل قوارب النجاة.

- وكيف صنع الباقون؟!

- لجئوا جميعاً إلى مقدمة السفينة المرتفعة في الهواء، بعد أن غاصت مؤخرتها تماماً، اضطر بعضهم إلى الوثب في المياه الجليدية لعلهم يلحقون بقوارب النجاة، غير أنه من المؤسف أن معظمهم قد مات، ولم ينجُ منهم إلا القليل.

- يا لها من مأساة.. كيف كان مشاعر الناجين وهم ينظرون إلى سفينتهم وينظرون إلى البحر وهو يبتلع رفقتهم؟

- كانت الدهشة تملأ أنفُس الجميع الذين ذهبوا يتأملون في ذهول سفينتهم العملاقة التي لا تقهر وهي تغوص في المياه بهيكلها الضخم..

أخذ جون له نفساً من غليونه البارد ثم أردف:

- تصور انه في الوقت الذي كان فيه شبح الموت جاثماً برزت بعض المواقف الإنسانية الرائعة، نظر جون إلى السماء وكأنه يستذكر شيئاً ثم

أردف: بعض الزوجات تشبثنَ بأزواجهن ورفضنَ مغادرة السفينة عند مجيء دورهن في الانتقال إلى قوارب النجاة.

ومن تلك السيدات زوجة أحد كبار الأثرياء فقد هربت من قارب النجاة إلى ظهر السفينة، لتحضن زوجها وهي تبكي قائلة : لقد عشنا معاً وسنموت معاً. وذهب الاثنان معاً ليجلسا في ركن هادئ بعيد وأخذا يرقبان ما يجري حولهما في انتظار مصيرهما النهائي.

– كابتن جون هذه السفينة تُعد بحق عبرةً ودرساً بليغاً بكافة المقاييس، أشكرك لإفادتي.ثم أضاف هاني:

كنت أعتقد بأنها قد تجمعت لديَ حصيلةٌ ثقافية اكتسبتها من محبتي للقراءة مُذ بعدت عن دياري، غير أنني عندما انتقلت إلى البحر أدركت أن للبحر ثقافته الخاصة، فثقافة البحر تتسع عن ثقافة اليابسة بأتساع الرقعة المائية في المعمورة، لذلك تجدني التهم مكتبة السفينة، غير أنه لم تمر عليَ قصة تيتانك هذه.. لقد أعجبتني كثيراً خاصة وأنها حقيقة لا خيال وفيها الكثير من الفائدة، لذلك فأنني أرجو أن تنصحني بقراءة الكتب التي تنمي ثقافتي البحرية إجمالاً.

أخذ هاني مفكرته الصغيرة وأخذ قلماً من جيب قميصه في حين شرع الكابتن في ذكر عدد من الكتب التي عمد هاني على تدوين أسمائها.



وفاة جون البيرتو

في صبيحة يوم من أيام شتاء يناير الباردة، وعندما كانت سفينة قرطاج مبحرة في المحيط الهندي، صعق من في السفينة بنبأ وفاة قبطانها (جون البيرتو) إثر نوبةٍ قلبية حادة أودت بحياته، كان الفقيد قلب قرطاج النابض لنشاطها، والدافئ على طاقمها.. استطاع القبطان من خلال العلاقة الحميمة أن يحقق بهذا الطاقم نشاطاً أكبر، وأرباحاً أوفر للشركة الأم صاحبة السفينة.. كان هاني من أكثر أهل السفينة حزناً وغماً، إذ تربطه بجون الكثير من المودة والاحترام، حتى يظن بعضهم بأنهما تربطهما علاقة أسرية.. تم التواصل مع الشركة الأم التي تواصلت مع وزارة النقل الإيطالية لترتيب أمر نقل الجثمان والمرافقين.

كُلف وفد رفيع المستوى من السفينة، لمرافقة الجثمان، وتقديم واجب العزاء لأسرة الفقيد، اختير هاني ضمن الوفد الذي نقلته مروحية إلى مطار (بومباي) في الهند حيث كانت بانتظارهم طائرة الخطوط الإيطالية لتنقل الجثمان والوفد إلى مطار (ميلانو) في إيطاليا حيث ستقام مراسيم الجنازة بحضور الأسرة التي تعرّف هاني عليهم فرداً فرداً، وتعرفوا أيضاً عليه من خلال الصور التي كانوا يتبادلونها مع أبيهم التي يطلع هاني عليها.

قرأ وسمع هاني الكثير عن كنيسة (سانت ماريا ديليه) بما حوته من أعمال الفسيفساء ولوحات جدارية هي الأشهر في العالم لعمالقة الفن في عصر النهضة من أمثال مايكل أنجلو وليونارد دافنشي وغيرهم.

مقبرة الكنيسة منظمة، القبور الرخامية البيضاء التي تتصدرها الصلبان أشبه ما تكون بقوالب ثلجية على أديم أخضر، رُصّت هذه القبور بشكل متوازٍ، المسافات البينية لها متشابهة حتى بدت كأزرار لوحة مفاتيح الكمبيوتر. ما زالت زهور الأقحوان التي وضعت من قِبل أهل وأحباب من سكنت أرواحهم في المقبرة- بمناسبة عيد الموتى في تشرين الماضي- مسجاة على بعض هذه القبور ومازالت هذه الزهور تحتفظ ببعض طراوتها وألوانها.

وصل الجميع إلى المقبرة في وقت واحد وقد أُحضر التابوت المصنوع من الخشب المصقول المدهون بمادة الورنيش الأبنوسية الزجاجية اللامعة، كانت تقله سيارة (جاكوار) مستطيلة ذات لون أسود لا تقل لمعاناً عن التابوت، يقودها شاب وسيم طويل القامة يرتدي ملابس عسكرية زاهية الألوان يُكيِس يديه بقفازين أبيضي اللون كتلك التي يرتديها حرس التشريفات، كان السائق أول من ترجل من السيارة ليفتح باب الخانة الخلفية لإخراج التابوت الذي بدا وكأنه جزء من السيارة أو ابنها الذي أُخرج من بطنها، لحق بالسائق ثلاثة من الشباب، عندما قدم هاني إليهم انسحب أحدهم وبذلك كان على هاني المشاركة في عملية اللّحد بإنزال التابوت إلى القبر عن طريق شريطين من القماش الأبيض بأربعة أطراف، كان هاني يقرأ في سِره آيٍ من القرآن الكريم، عندما أتم لَحد البيرتو، أخذ من جيب سترته المصحف الصغير الذي أهداه له صديقه الراحل.

كان الجو غائماً، ثمة رذاذٌ خفيفٌ بارد يتساقط عليهم، شرع هاني بالقراءة صامتاً في مصحفه، في حين كان القس يقرأ موعظته في

الحاضرين، عندما لحظ هاني على ذلك الحال حَدَجَه بنظرة تسللت من على جدار نظارته الذهبية الرفيعة المتدحرجة على أرنبة أنفه المدبب تحمل هذه النظرة معنى الاستغراب، حاول هاني أن يوحي للقس بأنه مسلم من خلال حركة أبداها له، بيدَ أنه لم يفهمها إلاّ أن (نتاشا) أرملة البيرتو قد فهمت فهمست في أذن القس بذلك، هزَّ القس رأسه هزة جعلت طاقيته تتحرك قليلاً موحياً بتفهمه وتقديره، وهزَّ رأسه ثانيةً مع انحنائه من رأسه وخلع الطاقية التي ابتلت من الرذاذ واضعاً يده على بطنه، أما يمينه فقد ظلت ممسكة بالكتاب المقدس الذي كان يحتمي من الرذاذ بطاقيته. بادلهُ هاني التحية نفسها..

كان هاني من أكثر من ارتسم على وجوههم الحزن، برغم ارتدائه نظارة شمسية تحجب عينيه من أن يُرى احمرارها؛ غير أنها لم تستطع إخفاء أنفه الذي بدا كشراع سفينة فينيقية، كان يرتدي بدلة من الصوف الإنكليزي ماركة (مستيرو).. كُحلية اللون يظهر من فتحة سترته سلسلة ذهبية ترتبط بساعة ذهبية من عيار ١٤ قيراط أهداها له صديقه الراحل.

كان هاني يسرح بين حين وآخر، لعله يفكر في تلك الذكريات والأحداث التي جمعته بالسيد البيرتو ولعل منها تلك اللحظات التي أهداه فيها المصحف، كان هاني يقول له:

- ظننته إنجيلاً، فيجيبه البيرتو:

- لا أريدك أن تكون إنجيلياً حسبك أن تكون مسلماً فاضلاً.

- ولكن لماذا بالإيطالية؟

- ذلك لأنها لغة فاضلة صنعت حضارات عظيمة.. وهي على الأقل اللغة التي تحدثنا بها في لقائنا الأول.. ألا تذكر ذلك ؟

- يقول مثلنا العربي: (كل إناء بما فيه ينضح)..

لهاني مواقف متعددة مع صديقه الراحل، كلها مواقف رجولة وشهامة وعطاء. لعله كان يستحضراها من ذاكرته وهو مطرقاً.

سأل هاني القس إن كان بمقدوره دخول الكنيسة، رحب القس بذلك واصطحبه إليها.

كانت الكنيسة غاية في الروعة والسعة، لقد بنيت في عصر النهضة، و بنفس النمط على شكل الصليب الروماني إلاّ أن طرازها المعماري كان فخماً ومهيباً، أما من الداخل فقد حوت الكثير من القطع الفنية النادرة ولوحات الفسيفساء واللوحات الزيتية للرسام الإيطالي ليونارد دافنشي بما فيها أهم لوحاته (العشاء الأخير) تلك اللوحة التي شغلت بال الكثير من عشاق الجمال والفن والمتدينين والمثقفين والمؤرخين وعلما اللاهوت الذين يهمهم أمر المسيح، اللوحة تضم السيد المسيح يتوسط اثني عشر من الحواريين، تسمر هاني أمام اللوحة يتأملها وكأنه يجري دراسة نقدية عليها، بعد لحظات عاد إليه القس ووضع يده على كتفه بطريقة حميمية قائلاً:

- أنني رجل دين مسيحي لذلك فإنني أحترم كل متدينٍ موحد أي كانت ديانته.. ما الذي أستوقف أخانا المسلم ؟

- قرأتُ موضوعاً في صحيفة (الأُبسيرفر فيو) اللندنية بعنوان: (هل كان المسيح متزوجاً؟) وذُكِرت هذه اللوحة، وكم تمنيت رؤيتها، لذلك تجدني أنعم النظر فيها.. كم تحمل هذه اللوحة من أسرار عجيبة ؟

- أجل إن جميع أعمال دافنشي تحمل أسراراً عجيبة، إنه عبقري، متعدد

المواهب. لعله جاء بذلك من أخواله العرب[1] قالها القس مبتسماً مجاملة لهاني.

- اعتقدت بأن مشاهدتي للوحة الأصل سيجيب على تساؤلاتي ولكنها وضعتني أمام تساؤلات أخري !.. كم أتمنى أن أحظى بأكثر من زيارة لكنيستكم الجميلة.

- يسعدني تكرار ذلك، وفي أي وقت.

ذهب به إلى غرفة (السكرِيبتُوريُوم) وأطلعه على نسخة قديمة ونادرة من كتاب القديس يوحنا الدمشقي وكتب أخرى منها كتاب باسم كنائس اليمن يتحدث عن كنيستين أحداهن في نجران والأخرى في مأرب ورد فيها أنه قد حضر بطارقتها المجمع النيقاوي الذي دعا إليه الإمبراطور الروماني قسطنطين في مدينة (نيقيه) عام ٣٢٥ م.

*****

دُعي الجميع لتناول طعام الغداء تلبية لدعوة أرملة السيد البيرتو، أعد المنزل لهذه المناسبة إعداداً مناسباً، رُصت الأوسمة والميداليات والنياشين التي حصدها الراحل في حياته، وكذا شهادات التكريم من الجمعيات التي تُعنَى بالأيتام ومرضى السرطان، وغيرها من المؤسسات الخيرية، رُصت صور أصدقاء الراحل فكان فيها عدد من الشخصيات التي ارتبطت به في مسيرة العطاء التي عاشها الكابتن الراحل.

---

(١) ثبت أن أم ليونارد دافنشي عربية شرق أوسطية تم شراؤها من القسطنطينية. (مجلة الفيصل العدد ٣٦٦ يناير ٢٠٠٧م).

مدت مائدة مستطيلة ونشرت عليها أطباق الطعام التي كان غالبيتها يتألف من المنتجات البحرية، و المعكرونة وبعض اللحوم والمشروبات الكحولية، أُجلس هاني إلى جانب السيدة نتاشا. كانت تقول له :

- الطعام من حولك خال من لحم الخنزير و ومشتقاته..لقد أخبرني جون بأنك لا تتعاطاها..لقد وضعت اعتبارا لذلك.

- ما كان عليك أن تتعبي نفسك..سأختار لنفسي من الأطعمة البحرية..

كانت الملاعق والسكاكين بجانب الأطباق المصنوعة من البورسلين الأبيض، قبل أن يشرع الجميع في تناول طعامهم، رددوا بشكل جماعي دعاء الشكر للرب على نعمة الطعام، كانوا يطلبون من الله أن يجعل طعامهم قوة لهم على صنع الخير وأن لا يكون قوة لصنع الشر.

في المساء ذهبوا إلى احد الصالات التابعة لبعض الجمعيات الخيرية التي تبنت الحفل التأبيني للراحل السيد جون البيرتو.

أدرك هاني لأول مرة من خلال الكلمة التي قيلت عن قيادات الجمعيات الخيرية أن صديقه يتبرع بثلث دخله لهذه الجمعيات التي تهتم بأصحاب الاحتياجات الخاصة. لاحظت نتاشا أن القس كان ودوداً مع هاني وقد انسجم معه في حديث مطول، بدا لها من خلال حركات يديه الطويلة التي كانت تلاحظها من الطرف المقابل ولعل ذلك شجعها لأن تطلب من هاني ارتجال كلمة عن السيد البيرتو، قائلة :

- لعل ما تعرفه عن زوجي غير ما نعرفه جميعا.

- لا أظنه مناسباً أن أتحدث في هذه المناسبة.

- بل أنك أنسب من يتحدث فيها..انه صديقك..المتواجدون هنا يريدون أن يعرفون عن حياة جون البحرية.

لعل هاني فوجئ بهذا الطلب إلاَّ أن القس الذي كان يربت على كتفه شجعه على ذلك، بدأ هاني كلمته:

بسم الله الرحمن الرحيم

أقف بين أيديكم امتثالاً لأمر (الفاذر ماثيوس) والسيدة نتاشا.. ولَما إنني لم أُحَضِّر لكلمتي أرجو المعذرة عن أي هفوة أو تقصير.. أستهلُ حديثي في هذه المناسبة المباركة بعد أن ودعنا صديقاً وفياً وأباً فاضلاً وعاملاً مخلصاً وإدارياً وقبطاناً فذاً نادراً.. كان فقيدنا يصنع المعروف بسليقته ولا يذكره لأحد لذلك عرفت من مكارم أخلاقه -التي تُعد ديدنه الذي دأب عليه- ما لم أكن أعرفه من قبل.. إنني أعرف من مكارمه الفاضلة الأخرى التي ربما لا يعرفها جمعكم الكريم هذا.. لقد علَّمنا الكثير..علَّمنا كيف نتعامل بإنسانية حتى مع الحيتان في البحر... تصورا عند ما تعرفت عليه كنتُ غضاً اضطرتني الظروف للعمل بعيداً عن أسرتي، كنت وقتئذ محطم القلب من مصيبة أَلَّمت بي، جعلت الحياة تضيق في عيني إلى الحد الذي تمنيت فيه مغادرة هذه البسيطة..ما كنت لأحكي مصيبتي ولم أحكيها بالفعل إلا للوالد (جون) لسعة صدره وحسن شكيمته.. تصوروا ماذا كان يقول لي؟ قال: إن كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة فإنها تبدأ كبيرة وتنتهي صغيرة.كان يقول لي : دعنا نعمل معاً على تبديدها. لعلي أوجز إن قلت إن المرحوم كان قلب قرطاج النابض.. لقد استطاع أن يصنع صداقة حميمة مع جميع العاملين والملاحين فيها.. كان أبا ومعلماً وصديقاً.

لقد مثلت لنا وفاته فاجعة كبيرة.. استطاع أن يحقق بحميميته مع موظفيه نمطاً آخراً من الإدارة و القيادة الراقية و الناجحة الأكثر احتراماً

لإنسانية ملاحيه، وهو أمرٌ قلَّ ما تلاقيه في الكباتنة.. استطاع راحلنا أن يجعل ملوحة البحر زلالاً بحسن رفقته... هناك شيء عظيم يتميز به صديقي الراحل يجب أن أذكره!ولكنني استهله بحديثٍ شريفٍ ورد عن نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يقول فيه: (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنا بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه.. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة؟.. فأنا هذه اللَّبنة وأنا خاتم النبيين). لذلك فإنه لم يكن مسلماً من لا يؤمن برُسل وأنبياء الله الكرام الذين أرسلهم الله إلى عباده من قبل.. لقد حمل نبينا الكريم- عليه وعلى أنبياء الله أفضل السلام – خاتم الرسالات التي ارتضاها الحق لعباده عامة. كان السيد جون يحترمني كمسلم ويحترم تديني بل انه أهداني هذا المصحف باللغة الايطالية.. قال ذلك هاني وهو يخرج من جيب سترته مصحفاً صغيراً ويرفعه بيمينه... لقد علَّمنا السيد جون أن عظمة الفرد لا تقاس إلا بمدى استيعابه للآخرين أين كانوا.. وعلَّمنا أن حسن الخلق يستر كثيراً من السيئات.. توقف هاني لحظة ليقرأ وقع كلمته على مستمعيه الذين بدو وكأن على رؤوسهم الطير مما شجعه لأن يُردف قائلاً : ورد في هذا المصحف الكريم {قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ...} فعندما ظهر الإسلام اعتبرته -بعض الطوائف المسيحية مثل النسطوريين في فارس واليعاقبة في مصر والآريوسيين في اسبانيا – تجديدا تتطلبه المرحلة التي آلت إليها الأوضاع في الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية اللتان كانتا في حالة انهيار مادي وروحي، لذلك فقد رحبوا به، في حين اعتبرته طوائف مسيحية أخرى هرطقة مسيحية.

فإذا ما وقفنا اليوم في حائط المبكى نستمع إلى حاخام يهودي يتلو في (التوراة العبرية القديمة) نشيد الإنشاد لسليمان وهو العدد (١٦) من الإصحاح الخامس.. سنجده يتحدث على لسان أحد زوجات نبي الله سليمان عليه السلام وهي – أي الزوجة – تصف رجلاً لم يُخلق بعد، ستجد ذلك الحاخام يذكر اسم (מחמדים) بلسانٍ سامي سليم ويعني (محمد). سكت قليلاً ثم أردف:

أن عالمنا مازال في خير وأن شجرة المحبة التي غرسها الأنبياء ستظل وارِفة الظلِ سخية الثمار.. فالفضيلة التي أتى بها الرُّسل الكرام ستكون باقية إلى يوم الساعة طالما هناك من أمثال الأب الفاضل الودود (الفاذر ماثيوس) والسيد جون البيرتو الذي سيكون لا محالة سلفاً لخلف مثله.. أطلب من الله الكريم أن يحل البركة في زوجة فقيدنا الوفية وفي أولادها.. كان الفاذر ماثيوس يقول: (إمين) وهو يرسم في الهواء صليبا أمامه وقد تبعه البقية. في حين أردف هاني أكثيرا ما أخبرني السيد جون عن حبه لهذه السيدة الطاهرة التي حفظته حاضرا وغائبا. هناك الكثير من أمثالهم لا نعرفهم.. لا شك بأن التربة التي نشأ فيها راحلُنا تربة طيِّبة لا تنبت إلاّ طيباً.. ذلك ما استشعرته من السكينة التي تخيم علينا في المقبرة وفي جلستنا هذه.. أرجوا مساحتي على تطاولي ولكنه امتثالاً لأمر الأجلاء.. ولكنه يشفع لي أن الضيف يكون في حكم المُضيف.

تفاعل الحاضرون مع كلمة هاني وكان أكثرهم تفاعلا السيدة (نتاشا) و (الفاذر ماثيوس) الذي كان ينصت إليها باهتمام بالغ، وتكشف قسمات وجهه عن إعجابه بما يُقال، لذلك حازت الكلمة تصفيقاً حاراً حتى أن الفاذر ماثيوس جاء إلى هاني ليصافحه بحرارة.

قائلاً بصوت مرتفع وهو ما زال ممسكا بيده موجهاً حديثة للحشد:

- انه هاني.. الصديق الوفي لراحلنا.. لقد جاء من أرض العواصم المقدسة التي وردت في كتبنا..جاء من أرض (سبأ ومن هزرميت) من (عدن) التي عاش فيها الشاعر العظيم (رامبو)..

إضافة إلى هذه الكلمة المؤثرة فجود صورة هاني على الجدار بين وزيري النقل والبحرية الإيطاليين جعل له أهمية كبيرة لدى الحاضرين. وليصبح هاني نجم الحفل،حتى ان أحد القساوسة طلب منه أن يلقي محاضرة عقب قداس يوم الأحد القادم في كاتدرائيته.



وداع

عندما قفَل وفد قرطاج عائداً إلى فندق (شيراتون) كان هاني يودع رفقته بعد أن سُمح له بتصفية إجازاته المستحقة. فزِعَ هاني من السفينة بعد أن كانت هي مَفزَعه من كل شيء.

كان وداع هاني أمراً ثقيلَ الوطأة على المجموعة لعل الألفة والمودة بين رفاق البحر أكثر منها بين بني اليابسة.. حزم هاني أمتعته بعد أن حجزت له خدمات الفندق تذكرة سفر على الخطوط الإيطالية من ميلانو إلى (تورانتو)، فهو يتراسل مع صديقه اللبناني شهاب الذي يسكن هناك من سنتين، كانا يعملان معاً في السفينة (قرِيس) ذهب شهاب إلى هناك ليودع حياة البحر إلى الأبد، وبدت نصيحته التي يكررها لهاني اليوم مناسبة فلم تعد قرطاج كما كانت عليه بربانها الراحل الذي كان بمثابة قلبها النابض الذي يحلي لهم ملوحة البحر.

في مطار (تورانتو) كان لقاءً حمياً بين الصديقين. يكبر شهاب هاني بسنتين رغم أنه يبدو أكبر من ذلك فملامحه أكثر صرامة، وقد بدت التجاعيد تظهر على جبينه، كان يسأل هاني عن صديقه الراحل جون البيرتو بشيء من الحسرة ثم تحدث عن كندا والحياة فيها وقوانين الهجرة والجنسية فيها ويشرح بعض القوانين التي تميزت بها كندا عن غيرها من البلدان.

- العالم هنا جديد ولا هَمَّ لسكان هذه الأرض اليوم إلاَّ أعمارها وتطويع أرضها البكر لتصير صديقة للإنسان، كان يتحدث وهو يقود سيارته والشمس توشك على المغيب بشكل بطئ وترسل أشعتها الوردية الباهتة في الأفق؛ لتنعكس على القمم التي اعتمّت بالجليد الناصع وقد بدا لهاني المنحدر الجليدي به منزلان متوازيان مسقوفان بالقرميد الأحمر تحفهما أشجار الكستناء والحور العملاقة ذات اللون الفضي، بدا ذلك مع ظل شمس المغيب وانعكاسها على النتوآت الجليدية، وكأنه وجهٌ باسمٌ ذو ثغر أقحواني لعروسة جميلة. مَثَلَ المنحدرُ الأبيضُ طرحتها ومَثَلَ قيطان هذه الطرحة الأطفال والصبية والشباب الذين يتزلجون - على الزلاجات التي احتذتها أقدامهم - في خطوط متوازية بملابسهم وقبعاتهم ذات الألوان الزاهية، كانوا يتراشقون بكرات الثلج والبعض يصنع منها تماثيل ثلجية، كان هاني يصف ذلك المنظر بطريقة شاعرية حتى توقف شهاب عن القيادة ليُمَلِّي صديقه النظرَ في هذا المشهد الذي استرعى اهتمامه، ترجلا عن السيارة، مرت لحظات بعدها أخذ شهاب بيد ضيفه قائلاً:

- يا لكَ من شاعر حَرَمه البحرُ مشاعره.. لازلت كما كنت في خيالك القديم، أتذكركَ عندما كنت تشاهد أشياء غير مرئية لنا تشكلها في السحب الرُكامية، أعرف أن الرسامين يرسمون بالألوان الزيتية أو المائية أو الحبر الصيني أو الشمع وغيره ولكنك أول من استخدم السحب والجليد والجبال في رَسمِهِ. سكت قليلاً ثم أردف : حقاً إن ذلك أشبه بالعروسة.. لديك خيالٌ خصبٌ تُحسد عليه.. اصعد إلى السيارة.. أخشى أن تفتنك هذه العروسة للحد الذي يجعل قَرطاج تَغار عليك. كان الاثنان يضحكان..

أشعل شهاب سيجارته التي كانت بين شفتيه ثم أردف.. بمناسبة العروسة ألم تفكرْ بعدُ في حياة الاستقرار والزواج بعيداً عن قرطاج؟

- ليس بعدُ.. ولكنني سأفعل ذلك عندما تقدم عليه أنت.. لعلك أكثر إنسية مني وأكثر ملائمةً لذلك وأكبر سناً.. أما أنا فأنني أشبه بالحوت..

- لعلي وقعت في ما أخشاه. اشتريت منزلاً لأتزوج ولكنني وجدت نفسي لا أطيق حياة الأسرة والزوجة والأطفال وما يترتب على ذلك من التزاماتهم وصداعهم.. تصوَر أنني لازلت أتخيل نفسي في البحر، حتى إنني إذا ما أطلَلت من شرفة منزلي أحسب أنني سأجد بحراً أمامي.

- ربما يكون ذلك من الأسباب التي جعلتني أبحث عن سبيل آخر غير البحر، حتى لا أصير مائي الطباع.. لقد عملت بنصيحتك التي كثيرًا ما نصحتني بها!

- أجل لقد وقعت فيما حذَّرتك منه.. هل تساعدني في الخروج من هذه المشكلة؟

المسافة من المطار إلى حي (سان جيف) الذي يسكنه شهاب تبعد ثمانين ميلاً ولكنهما قطعا وقتاً طويلاً في الطريق إليه، كان شهاب يقود السيارة ببطء متجنباً الخطوط السريعة ليسلك خطوط الخدمات ذات التفرعات رغبة منه بأن يتمتع هاني بمناظر سويعات الأصيل التي تطول في شمال الكرة الأرضية، فانعكاسات أشعة الشمس الذهبية على التلال والسهول التي تترامى على الطريق المنبسطة أمامهما، تصنع منظراً خلاباً. بدأت الشمس تختفي ببطء خلف القمم الجبلية وتنخفض أشعتها الناعسة الجميلة لتبدو بتثاقلها في الغروب كرسام يعز عليه مغادرة لوحته التي أبدع فيها وهو يضع لمساتها الأخيرة، من أجل ذلك خلع الصديقان

نظارتيهما الشمسية وجعلا يتبادلان أطراف الحديث ليتمتعا بسويعة الغروب.

- أتذكر عندما ننزل بأحد الموانئ في هذا الوقت فأنك تقصد أقرب مسجد.

- وهل يوجد في الجوار مسجد؟

- على بعد خمسة أميال من منزلنا.

- أعود إليه لاحقاً.

- إنني أتشوق كثيراً لمقدمك، أعددت لكَ جناحاً في منزلي وأخذت إجازة من العمل لمدة أسبوع.

- كم أنت لطيف وودود.

- كم؟

كان الاثنان يضحكان ويصفق كل منهما في يد الآخر.

- لازلتَ مرحاً ولطيفاً كما كنت في البحر.. لم تغيرك اليابسة.

- السمك وحده يتغير عندما يغادر البحر؛ لكنه بالفعل ليس من الحكمة أن يطول بالإنسان المقام في البحر حتى لا يتحول إلى حوت في نظرته إلى اليابسة.

****

يذهب الصديقان يومياً في الصباح الباكر لممارسة رياضة الجري تلك الرياضة التي تعودا على ممارستها عند وصولهما إلى المرافئ أو حتى في السواحل عندما تقف سفينتهما بالقرب منها، فهذه الرياضة تُعَبِر أيضاً

عن ابتهاج الملاحين بوصول البر ويفعلها معظم الملاحين الذين يتوقون إلى البر بعد طول غياب عنه. تماماً كما يفعل أهل اليابسة عندما يأخذون أنفسهم للنزهة إلى البحر.

وصف شهابٌ لصديقه جاراً له في حيه (سان جيف) اسمه (سعد البوني) من أصول يمنية يدين باليهودية صدوق خلوق يحب الخير لكل من حوله فهو يُعزي ذلك لدينه وثقافته الشرقية التي يعتز بها كثيراً، يكره الصهيونية كراهية الموت حتى أسماه بعض اليهود (كاره نفسه) وهذا مصطلح يطلقه الصهاينة على كل من يعادي مشروعهم من اليهود، أما من يعاديه من غير اليهود فهو معادٍ للسامية..ينسب صديقي سعد معظم مشاكل اليهود إلى الصهيونية التي ينسب إليها أيضاً معظم مشاكل العالم، له علاقة حميمة بالناشط السياسي وعالم اللسانيات (نعوم شومسكي) ويتراسل معه. كانت له تجربة مريرة مع أبيه الذي مات كمداً في إسرائيل، عندما فقد فيها أولاده جميعهم فهو يتهم السلطة الصهيونية باختطافهم إلى الأبد لتتم تربيتهم صهيونياً بعيداً عن ثقافتهم الشرقية فهو يقول: لقد صنعت الحكومة مقبرة وهمية أسمتها مقبرة أطفال اليمن، لذلك فهو يكره الصهيونية، كان ينوي العودة إلى (اليمن) التي يحن إليها كثيراً إلاَّ أن ذلك يتعذَّر عليه، فهو يجلس مع زوجته المعاقة ويقوم بتمريضها ورعايتها، إضافة إلى أنه لا يملك ما يعود إليه في اليمن، فهم أرغموا من قبل الوكالة اليهودية عند ترحيلهم إلى (تل أبيب) على بيع جميع ما يملكون حتى لا يتمكنوا من العودة إلى اليمن، أما الثمن فقد قبضته الوكالة لتستقطع منه ما شاءت كمصاريف لرحلة (بساط الريح) وهو اسم عمليات الترحيل لليهود إلى فلسطين التي قامت بها الوكالات

اليهودية بتنسيق ودعم بريطانيا.. لقد أحببته لأنـه غَـيَّر رأيـي في اليهـود، فكم كان وفياً، وجُلَّ ما استفدت منه أن جعلني أفرق بين اليهودية كدين وبين الصهيونية كسياسة مُلحدة توظف الدِّين وتـستغله لمـصالحها عـلى حساب اليهود، بعد أن نصَّبت نفسها وكيلاً عنهم.. إنـه يتمتـع بحكمـة وثقافة واسعة وفراسة فطرية.. لاشك بأنه سيروي لـك قـصته الحزينـة هذه قصة أطفال اليمن.

كان هاني يُنصت إلى صديقه وهو يحدثه عـن جـاره غريـب الأطـوار وقد أبدى تعاطفاً معه حتى قال وهو يلفظ نفساً عميقاً:

– يا له من مسكين.. ولكن كلمة البـوني هـذه تـذكرني بكلمـة يطلقهـا الرومان على كل ما يمت بصلة إلى الفينيقيين لذلك فقد أسـمو حـروبهم الثلاث مع القرطاجيين بالحروب البونية.. هل لسعد علاقة بذلك؟

– لا اعتقـد ذلـك.. ولكـن تـستطيع تقـديم الـسؤال إليـه فهـو مهـتم بالتاريخ.. منذ أخبرته هاتفياً بأن لدي ضيف من الـيمن وهـو يتـصل بي ليستضيفنا.

– أصبحت أتوق إليه لما أسمعتني عنه.

– لا شك أنك سترتاح إليه فلحديثه شجون، وثقافته واسعة فهو يصلح أن يكون نديماً بحرياً.



سعد البُوني

كان سعد البوني يجلس بباب فلّته الصغيرة في حي (سانت جيف) التي بنيت على طراز يتجسد فيه الطابع الشرقي، وتظهر نجمة داوود مجسمة في صدر تشكيلة بابها الحديدي، هناك لوحة صغيرة الحجم من النحاس مثبتة في الجدار تحت زر الجرس كتب عليها (منزل السيد سعد البوني) بثلاث لغات العبرية والعربية واللاتينية وهذه من مشغولات خان الخليلي، أهداها له عزيز عليه من يهود مصر وكانت قبل ذلك معلقة في منزله في (تل أبيب)، لذلك فإن لها مكانة خاصة في نفسه، ولدى سعد أملٌ بأن ينقلها إلى صنعاء.

يبدو سعدٌ قمحي البشرة ممتلئ الجسم، عريض المنكبين متوسط القامة لعل ذلك مرده إلى انحناءة شابت ظهره، لمداومته على رعاية زوجته المقعدة من أمد بعيد. تتدلى على صدغيه زنارتين تتأرجحان مع حركة رأسه بشكل متوازٍ كأنهما بندولان لساعة جدارية، بدأ الشيب يزحف عليهما، يضع طاقية صغيرة على هامته، يشبكها بمشبك شعر، كان عريض الفكين مما يوحي بأن شخصيته جادة، له نظرات ثاقبة فعيناه تتحركان في محجريهما بخفة، رغم أنهما تحجبهما عدستان زجاجيتان مقعرتان سميكتان تصنعان هالات دائرية متداخلة شبه شفافة حول بؤبؤيه ولعلهما أكثر شبه بنظارة الموسيقار عبد الوهاب، فإذا ما نظرت إلى عينيه كأنك تنظر إلى قعر بئر عميق، ولكنهما رغم ذلك يوحيان

بالطمأنينة والدفء. كانت زوجته (أستير) تجلس إلى جواره خارج المنزل على كرسي إعاقة ذي عجلات، صنع من النيكل اللامع الأنيق والمريح ماركة (ترايفي) وقد نشرت عليها مظلة سوداء لتمنع عنها ذرّات الرذاذ الخفيفة الباردة التي تتساقط حينها، أما هو فيجلس على كرسي صغير من تلك التي تُلف وتؤخذ للرحلات البرية والساحلية، كان يلاطف يد زوجته التي امتدت على ساعد كرسيها حيناً، وحيناً يقوم لينظر إلى امتداد الشارع مستطلعاً قدوم وافد هام، يتسلى حيناً بقضم ظفر بنصره. الذي تعود على قضمه عندما يكون قلقاً، توقف عن ذلك عندما لاحت له سيارة نوع (مرسيدس) خضراء متجهة صوبه، نهض من كرسيه، وما إن توقفت السيارة بجانبه حتى هرع إليها.

كان عناقاً حاراً بينه وبين شهاب الذي عرَّفَه على هاني ليشرع معه أيضاً في عناق آخر أكثر حرارة، أخذه من يده إلى زوجته معرفاً بها لهاني الذي سبق له أن عرف الكثير عنه من شهاب. أخذ شهاب مقبضي الكرسي ليدخل السيدة (أستير) قائلاً:

– لا داعي لأن تنتظرينا في الخارج.. لعل الرذاذ يصيبك بالبرد.. كان علينا أن نفاجئكما بزيارتنا حتى لا نجعل سعداً يزعجك بالانتظار.

– لا عليك إنها فرصة لي بالخروج من المنزل وفرصة أن أراكما.

كان الجميع يدلف إلى حوش الفلة، استقبلهم كلب حراسة المنزل الذي أخذ يسير بموازاة (أستير) ويحك جسمه بكرسيها وهو ينبح بصوت منخفض ويحرك ذنبه زهواً، بينما تقدَّمَ سعد وهو مازال ممسكاً بيد هاني، كأن حديثهما قد أنساهما من حولهما، ومع أن سعداً كان يتلهف إلى أخبار اليمن إلاّ أن هاني خيَّب أمله بأنه لا يعرف عنها إلا بقايا عصارة

ذاكرة قديمة غير أنه وجد نفسه يذوب في الحديث معه. أوصل سعد (أستير) إلى غرفتها وعاد إلى الصالة حيث يجلس ضيفاه. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والربع حينما خرج شهاب إلى البقالة التي لا تبعد كثيراً عن المنزل وعاد محملاً بالفواكه والخضروات المعلبة والطازجة وأكياس الشاي الصغيرة التي أدخلها إلى المطبخ المجاور للصالة.

- ماذا أحضرت؟.. أرنِيه ؟.. لماذا تتعب نفسك؟.. الثلاجة بالداخل ملأة..

بعد أن حمل شهاب قنينة النبيذ من السلة ليضعها في الثلاجة، أحضر السلة ليضعها على المنضدة الزجاجية التي يجلسون حولها في الصالة. أخذ سعد عدسة مُكبِرة كانت على المنضدة وجعل يتفحص تلك المعلبات وكأنه يبحث عن أشياء دقيقة لا تدركها العين المجردة ليكون أشبه بمهندس ساعات.

- ماذا تصنع ؟ كان ذلك شهاب الذي بدا مستغرباً ثم أردف:

كأنك هاوٍ للطوابع ينظر إلى مجموعة من طوابعه التي اقتناها لتوه.

كان سعد يزم شفتيه ويهز رأسه عند ما كان يقول:

- بل إن الأمر أهم من ذلك.

قال سعد ذلك وهو يفرز المعلبات على المنضدة. ثم أردف:

- علبة الفاصوليا هذه معالجة بشحم الخنزير، أنظر هذا الرقم الصغير بأسفل العلبة إنه الرقم (e١٠١)[1] وهذه الجبنة و الزُبدة معاملة أيضاً بشحم الخنزير.. انظر إلى الرمز بالأسفل (e١١٠).

---

(١) أحد الرموز التي تُلزَم المصانع المنتجة للمواد الغذائية على وضعها في أغلفة منتجاتها المعلبة وهذه الرموز كثيرة، ولكل منها دلالته المصدرية. راجع مقال (أمجد خان) على الشبكة العنكبوتية وجريدة الأسبوع العدد (٢٧) يونيو ٢٠٠٥م للكاتبة منى مدكور.

- ولكنني أراك كثيراً ما تشتري هذه الأصناف و(الماركات).
- أجل إنني اشتري هذه (الماركات) ولكن ليست هذه الأصناف التي تُعامل بلحم أو بشحم الخنزير، والتي هي أقل ثمناً مما أشتري.. علبة الفاصوليا هذه التي اشتريتها أنت بدولار واحد مُعالج قصديرها الداخلي ضد الصدأ بشحم الخنزير فهو أرخص الشحوم على الإطلاق، أما التي اشتريها أنا رغم أنها من نفس الماركة إلا أن ثمنها يكون بدولار وخمسة وعشرين سنتاً، بسبب أن قصديرها معالج بشحم البقر الذي يُعد أكثر كُلفة. أما أكياس الشاي الصغيرة هذه مع إنها من ماركة (إيرل جري الإنجليزية) فإن أكياسها أيضاً معالجة بشحم الخنزير أنظر العلامة.. إنهم يضعون شحماً ليحافظ على ليونة ورقها وليمنع عنه تأثره بالروائح الأخرى المجاورة ولتحفظ له نكهته، دعني أريك ذلك. سكب سعد ماءً ساخناً من العلبة الموضوعة أمامه في كوب ووضع كيس الشاي الصغير الذي أمسك خيطه وهو يقول:
- أنظرا إلى هذه البقعة الصغيرة من الدهن ألا تريانها؟
- أجل إنني أراها، ولكن ما يدريك بأنها من شحم خنزير.. قال ذلك هاني الذي بدا مستغرباً للأمر؟
- هذا هو رقمها الدولي (e١٠١) وتستطيع أيضاً التمييز بين شحم البقر وشحم الخنزير.
- أدركت ما تقصده.. لقد أفدتني بمعلومة لا يمكنني إدراكها إلا عندك.. كم تمنيت لو عرفت ذلك من قبل.. كل ما أعرفه عن هذه المعلبات هو حول السَعرات الحرارية في (الأونز) الواحدة وتواريخ الإنتاج والصلاحية.. لعلي أكلت من شحوم الخنزير بل ولحومها في

هذه الأجبان ومشتقاتها في البحر الكثير بسبب جهلي هذه المعلومة القيمة..لعل الكثير من المسلمين لا يعرفون ذلك.

- إنها مقادير يسيرة وضرورية للنكهة ولحفظ الصناعات الغذائية كان ذلك شهاب الذي بدا غير مكترث للأمر.

- ذلك لديكم أنتم في المسيحية فقط، أما نحن والمسلمون فإن الأمر مُحرَم لدينا قليله وكثيره، بل ويُعد لدينا من المحرمات المغلظة حتى أن الذبيحة لدينا يجب أن يمر عليها السكين المشحوذ مرة واحدة وإن تجاوز ذلك فهي ميتة وليست ذبيحة، ولا تكون بعد ذلك إلا طعاماً للكلاب.

- عندما كنا في صنعاء كان اليمنيون، يأخذون لحومهم من مسالخنا.. قال ذلك سعد وقد أخذ السلةَ ليعيدَها إلى شهاب بعد أن فرز المعلبات.

- الطب الحديث أكتشف أن الدودة الشريطية تعيش بكثرة في الخنازير وتنتقل منها إلى الإنسان..بل أن لَدى الخنازير أربع مائة وخمسون مرضاً قابلة للانتقال إلى الإنسان.كان ذلك هاني الذي مازال مندهشاً من هذه المعلومات التي فرح بها كثيراً.

اعتاد شهاب الذي مازال أعزباً عند ما يتناول طعامه مع سعد أن يطبخا طعامهما سوياً لذلك قال:

- الساعة الآن الواحدة والنصف ونحن لم نطبخ طعامنا بعد.

- سيصلنا الطعام الآن..قال ذلك سعد بعد سماعه نباح كلب الحراسة من الخارج والذي عقبه رنين جرس (الأنتركم) بيدَ أن الكلب زاد من نباحه حتى خرج سعد إلى حوش الفلة ثم عاد وهو يقول:

- أهلاً تفضل بالدخول..

دخل شابٌ طويل ونحيف أسمر يبدو من ملامحه أنه من ولاية (كيرلا) الهندية يرتدي ملابس أنيقة كُتِبَ عليها شعار (بيتزا هت).

ويحمل حافظة تحمل الشعار نفسه، أخذ سعد الشاب إلى طاولة الطعام التي كانت محاطة بستة كراسي. عَمد الشاب على فحص أطباق الطعام المرصوصة على (فاترينة) الأواني الصينية وقام بمسحها ونشرها على المنضدة وهو يقول:

- كم عدد من سيجلس على المائدة؟

- أمهلني دقيقة.. قال ذلك سعد الذي ذهب إلى الداخل حيث تكون أستيِر وعاد ليقول:

- عددنا أربعة، وليتك تكون خامسنا..

- شكراً تناولتُ طعامي لتوي. قالها وهو منهمك في إعداد المائدة

- زوجتي تريد أن تأكل بمفردها..افرز لها طعامها.

- لا شكَ بأنها تعبت من الطقس في الخارج..لم تكن هناك ضرورة لإخراجها.. يحق لك أن تأخذ على نفسك ولكن لا يحق لك أن تأخذ على زوجتك. كان ذلك شهاب الذي كان يساعد النادل في توزيع الأطباق على الطاولة.

- بل هي التي تريد الخروج..لقد ضاقت ذرعاً بالجلوس في المنزل.

- إذن فلنرتب خلال أجازتي هذه برنامجاً لإسعادها خارج المنزل..المشكلة أننا كلنا رجال بدون زوجات.

- آنَ لك أن تتزوج طوعاً أو كرهاً.. ستتعاون مع هاني لترتيب عش الزوجية لك.

- وهل مازال الوقت مناسباً لذلك؟

- لازلتَ صغيراً..كل ما مضت بك الأيام دون زواج سيكون اتخاذك لقرار الزواج أكثر صعوبة.

- بل صار صعباً من قبل اليوم.. القفص هو القفص لا فرق في أن يكون ذهباً أو حديداً..والمُدْيَة التي تُذبح بها لا فرق في أن تكون مصنوعة من الذهب أو القصدير.

- حرام عليك أن تُشَبِه الزواج بالمُدْيَة.. الزواج نعمة الله بل هو من أهم النعم بعد العافية..لن تعرف هذا إلا بعد أن تكون متزوجاً.

- هل يعني ذلك أنك غير نادم على زواجك ؟

تدخل هاني في الحديث قائلا:

- لعل وجودك في البحر أوجد لك نظرة سوداوية عن الزواج.. لا يكون المرء سوياً إلا إذا كان متزوجاً وكثير من الوظائف المدنية والدينية والرسمية يكون من أهم شروط الانتساب إليها أن يكون المتقدم متزوجاً..ولا يكتمل دِينُ المرء إلا بالزواج.. ولا يحترمك جيرانك حيث تسكن إلا إذا كنت متزوجاً.. فالزواج رباط مقدس يربط الإنسان ويحجبه عن العشوائية والتخبط.. يجعله خلية فاعلة ومساهمة في الحفاظ على النوع البشري والاستقرار النفسي له ولمجتمعه عموماً..ثَب أن الناس جميعاً قد عزفوا عن الزواج ؟.. ولكنها حكمة الله ماضية.

- أنت تعاني مما أعاني..آلاَ تتذكر نصيحتي بخطورة المكث في البحر..أن كلينا يعاني من مدة جلوسه في البحر..ولكن إذا تزوجت أنت سأتزوج بعدك

- هل تَعِدني بذلك؟

- أجل أعدك.. بل انه يخالجني شعورٌ بأن زواجنا سيكون معاً!!

- هل هي مشاعر أم وعد؟

- لا بل وعد..ولكنني يجب أن أتزوج بإمرآة مثقفة وناضجة.

تدخل سعد في الحديث قائلاً:

- وأنا أعدكما بحضور زواجكما.

بداء الجميع يتناولون طعامهم بعد أن أعـدّت الـسفرة بنظـام فنـادق الدرجة الأولى، قـام النـادل بتوزيـع المـاء في الكـؤوس البلوريـة وأتبعـه بالعصائر ثم المقبلات وشربة الخضار ثم الكفيار وسمك الزنجـة بقطعـه الصغيرة، قام بتوزيع المشويات وطبـق (البيتـزاء) وكـل ماقـدّم النـادلُ للمجموعة صنفاً يعود إلى الخلف ينظر إلـيهم ليرعـى طلبـاتهم، بعـد أن وضع لهم أصابع البطاطس (الشبس) والنقانق قال سعد:

- زوجتي لا تحب النقانق.. جهز لها طعامها..أمنحها كل الألوان عـداء أصابع (الشبس والنقانق) فأنها لا تحبها..كان ذلـك سـعد الـذي أردف: تأكد يا هاني أن كل ما في السفرة حلال..إنه طلب خاص.. أحـذر فقـط أن تأكل مع شهاب.كان يقول ذلـك وهـو يـضحك، وقـد كانـت احـد أصابع النقانق بين إصبعيه لتبدو وكأنها سيكاراً كوبياً.

- لا.. أما اليوم فقد عرفت..سـأحمل معـي عدسـة مكـبرة لأتبـين هـذه الرموز عند ذهابي لأخذ أي طعام.. إنها فائدة عظيمة اكتسبتها اليوم.

- لا أظن أن أي عدسة تنفع لهذه المهمة غير عدسة سعد..بل إنني أعتقد أن تلك الحروف والأرقام مكتوبة عليها لا على تلك المعلبات.

بدا الجميع في الضحك. ساد بعد ذلك فاصلٌ من الصمت لا يُسمع خلالها إلا أصوات وقع الملاعق والسكاكين وهي تتـصارع عـلى أطبـاق الطعام الزجاجية لأخذ الطعام وكأنها مـضارب تخـوض مبـاراة في لعبـة الهوكي.

يسيطر عليّ إعتقادٌ أن كل إنسان متدين غـير متعـصب يعـد شخـصاً فاضلاً. إنني أحب الثقافة الدينية بمصادرها المختلفـة..بـل أننـي أعتـبر

تعدد الديانات الإبراهيمية يمثل إثراء للتراث الابراهيمي..بذلك أدار سعد دفة الحديث ليكون حول الكُتب السماوية. عقبه هاني بالحديث عن الكتب التي تعرضت للتحريف بحسب المقتضيات السياسية وقال بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يتغير لأن الله تكفل بحفظه. وقال بأنه لا توجد البتَّة مُذ فجر الإسلام طائفة أو مذهب تشكك في القرآن.

– بل لا توجد ديانة أخرى تشكك فيه. كان ذلك سعد الذي توقف ليبلع ما احتشد به فمه ثم أردف: عندما كنا في اليمن كنا نُطالع التوراة التي يزيد عمرها عن خمسمائة عام وهي تختلف في بعض جوانبه عن التوراة التي نقراءها في إسرائيل.

– وهل لا زالت موجودة؟..قال ذلك هاني الذي بدا مستغرباً.

– أجل مازالت موجودة لدى (عليوم)[1] الطائفة هناك الحاخام (يعيش بن يحيى) في منطقة (ريدة).

– لماذا لم تحضروها إلى إسرائيل؟

– لن يُسمح لنا بذلك، ولعلهم يصادرونها في إسرائيل، فهي أكثر مأمنا لدى (العليوم)، وباعتبارها مادة تراثية فهي من حق اليمنيين وليس إسرائيل.

– هل يعني ذلك أنكم في اليمن تمارسون شعائركم بحرية أكبر من إسرائيل نفسها؟

– كنا في اليمن نتمتع بكامل الحرية والمواطنة، وممارسة شعائرنا، وكانت علاقتنا بالحكم والناس ممتازة لا توجد العدائية القائمة اليوم بيننا، هذه العدائية التي اخترقت الخطاب الدعوي الإسلامي والذي وضعته

---

١) عَالِم الطائفة باللغة العِبرية.

الصهيونية الغربية وهي تحقق به هدفاً استراتيجياً في عملية الحفاظ على الدولة الصهيونية في أرض الرسالات وهو حجر الزاوية للمشروع الاستعماري الذي تشكل في المنطقة كلها بعد قيام هذه الدويلة.

بمجرد أن علمَ سعد بأنه سيلتقي رجلاً من اليمن، كانت الذكريات القديمة تتوارد إلى ذهنه تباعاً، ولعل سعد قد ورث جزءاكبيراً من محبة اليمن من أبيه الذي يحبه كثيراً حتى أنه يخال نفسه نسخة من أبيه لذلك أردف:

- اخبرني أبي أن عربياً من أهل اليمن مُختل العقل ضرب يهودياً من يهود منطقة ملح فأرداه قتيلاً، وعلى الفور هبَت قبيلة (أبو لحوم) الحامية للقتيل استعداداً للثأر لجارهم - الذي تلزمُهم حمايته - مما دفع أهل القاتل إلى التوسط لدي القضاة الشرعيين لفض النزاع الذي كاد أن يتحول إلى فتنة بين القبيلتين. وصدر الحكم على القاتل بأربع ديات مضافاً إليها جميع الخسائر المتعلقة بالصُّلح.. كان والدي يقول لي :(ولو كان القاتلُ عاقلاً لقضى الأمر بقتله).

تدخل شهاب في الأمر.

- لعل حكام اليمن يحافظون عليكم أكثر من اليمنيين المسلمين أنفسهم لدفعكم الجزية! بل لعلهم يريدون اليمنيين أن يتهودوا في سبيل الحصول على الجزية.. قال ذلك شهاب: وهو يزدرد ريقه بعد أن ضحك ليعقب ذلك بكوب من الماء.

- المهم أن ذلك ضَمنَ لنا مواطنة متساوية، وهو ما لم نجده في إسرائيل، رغم دفعنا لضرائب أكبر من تلك الجزية.. وهذا لا يُقدر بثمن.. في الوقت الذي كانت تُدعم فيه بقوة إشاعة أن اليهود يشربون دماء البشر

من غير اليهود في العالم المسيحي من خلال طقس ديني زُيف على اليهود[1]، وفي الوقت الذي تُكتب إعلانات تحذيرية بمنع دخول الكلاب واليهود إلى المطاعم في الغرب كنا في اليمن بل في الدول الإسلامية عموماً نتمتع بالمواطنة المتساوية. عندما أُرتكبت المجازر في إسبانيا بحق اليهود لم يجد اليهود حُضْناً دافئاً إلاَّ لدى العرب والمسلمين لما ضَمِنَ لهم من حقوق أهل الذمة في الشريعة الإسلامية.

- أجل عندما كان الخليفة عمر بن الخطاب يَعِسُ بنفسه في بيت المقدس وجد متسولاً يهودياً فأخذ بيده وصاح في عامله هناك قائلاً: تأخذون الجزية منه شاباً وتتركونه يتسوَّل شيخاً!.. أعطوه من بيت المال ما يكفيه عن التسول.

- فكرة مُبكرة للضمان الاجتماعي.. ولكن يا أخ سعد هل تقصد أن الغرب يكرهكم ؟

- بل هي الصهيونية الغربية.. وإن لُفِق الإرهاب على المسلمين حيناً إلاَّ أنهم لن يكرهوهم بقدر كراهيتهم المتأصلة في ثقافتهم لنا وللأسف استطاعوا إقناع بعض الطوائف من اليهود بكذبة (أرض الميعاد)، وهي في الحقيقة ميعاد مع (هولوكست) أبشع من سالفتها باتت وشيكة. الإنسان الواعي يقرأ الأحداث بعين ويترك الأخرى تقرأ التاريخ وإلا فجدير به أن لا يقرأها.. إن وجود دولة إسرائيل المؤقتة هذه من شأنه القضاء على الحضن الدافئ الوحيد لبقية اليهود في العالم.

---

١) (العشاء الرباني) أو فطير الرب هو ما رسخته الإشاعة القوية المعادية لليهود لسنوات طويلة، التي استمرت إلى ما بعد الاحتلال لفلسطين ومضمونها أن حاخامات اليهود يعجنون فطيرة العشاء الرباني لعيد الفصح بدماء الآغيار من النصارى والمسلمين. وهذه الإشاعة أكثر ما تكون في الغرب. ويَعُدها سعدٌ مثل إشاعة الإرهاب التي يتم إلصاقها بالمسلمين.

قاطعه شهاب قائلاً: قال هتلر: كان بمقدوري أن أُبيد جميع اليهود في العالم ولكنني تركت بعضاً منهم، فقط ليعرف الناس لماذا صنعت ذلك..

قاطعه هاني قائلاً:

- هذه أفكار عنصرية مقيتة.. فكم من يهودي يساوي ألاف من غير اليهود ثم وجه حديثه إلى سعد:

- لا أنكر جهلي بهذه المفاهيم القيمة، ولكن بالعودة إلى التاريخ يجده المرء متسقاً مع حديثك.. كم أنت عظيم..

- لقد أباد هتلر الكثير من اليهود ولكنه لم يقتل صهيونيا واحداً بل أن (عزرا وايزمن) حشر له اليهود المتدينين المعارضين للمشروع الصهيوني ليكونوا عبرة وليفزع اليهود إلى أرض الميعاد بعد أن أحيلت أوربا جحيماً عليهم.. لقد أثبت ذلك أحكامٌ قضائية في إسرائيل نفسها. سكت برهة ليشرب جرعة من الماء ثم أردف: مما تهدف إليه الصهيونية الغربية أيضاً هو تمزيق دفاتر التنكيل باليهود لقرون مضت ونقل حلبة الصراع بعيداً عنهم ليوهمونا بأن العرب و المسلمين أعداءُنا من خلال توظيف الدين.. سكت قليلاً ثم أردف :يعود الفضل في إقامة نظام صهيوني في أرض الرسالات لأدولف هتلر.. كيف تكون دويلة يهودية وعلى رأسها أكبر نظام يتصف بالعلمانية.. وجود هذه الدويلة بحد ذاته مخالف لمشيئة الرب.. بل أنها مخالفة مواثيق الأمم المتحدة.

- ولكن الغرب ينفقون على إسرائيل؟

- (لأمر ما جدَع قصيرٌ أنفه).. إنهم أشبه بمن ينمي بذرة غير قابلة للنماء.. وهم الأعرف بذلك.

الصهيونية الغربية نالت من المسيحية واليهودية وربما الإسلام مؤخراً عن طريق صناعة ومكافحة الإرهاب.

- لعلك تحن إلى اليمن؟

- إنه موطني الدافئ.. إنني أتذكر صباي عندما كنت أرتع في روابيها الخضراء الجميلة التي انعكست على طباع أهله من أمثال هاني.

- شكراً سيد سعد..رغم أنك أحق بهذا التشبيه مني

- ألم تشعروا بذلك في إسرائيل.. قال ذلك شهاب وهو ينظر إلى سعد.

- إنها دولة عنصرية، لا تمارس العنصرية على الفلسطينيين فقط؛ بل تمارسها على اليهود أنفسهم. أما في اليمن وفي جميع البلاد الإسلامية فإن الأمر يختلف كثيراً.. لقد أخبرني صديق الباني للوالد أنهم عند ما كانوا في ألبانيا مع أسرهم عاشوا في بيوت المسلمين وبين أسرهم هربا من النازيين كما أن الحكومة الألبانية أعطت اليهود الأمان في هذه الظروف العصيبة.

كان سعد منتشياً بذكر موطنه الأصلي، للحد الذي ذرفت عيناه دمعتين، عندها شرع في قصيدة قديمة يقول بأنها لأحد عمومته قد كانت بحق مؤثرة.

****

ما أعجب هاني في سعد، أنه لم يكن متعصباً ويتمتع بعقلية نظيفة ويقر بالحقائق أياً كانت، وإن كانت لديه عصبية فهي لساميته وعقيدته وشرقيته التي يدعي أنها حافظت على أصول اليهودية من التهام الصهيونية الغربية التي لا يعُدها سَاميّة الأصل و الجذور.

بعد أن انقضت أجازة شهاب وباشر عمله، أصبح هاني كثير التردد إلى سعد الذي نشأت بينهما صداقة حميمة.

بدا هاني يعاني من الفراغ، فهو لا يطيق أن يكون بلا عمل، لذلك بحث عن عمل، كما أن الشهادات والأوسمة التي تحصّل عليها في

خدمته البحرية لا تؤهله لعمل على اليابسة، لم يتحصل حتى على عمل عضلي بأجر كامل مما عرضه لابتزاز مكاتب الاستخدام، اضطره ذلك للعمل بمبلغ خمسة وعشرين دولاراً في اليوم بدلاً من ثمانين دولاراً، حيث يذهب الباقي لسماسرة الاستخدام، لذلك أعطاه سعد ورقة لابن عمه الذي يمتلك ورشة لصناعة الأثاث عمل بها هاني بأجر يومي قدره ثمانون دولاراً.



عودة الحوت إلى الماء

في الوقت الذي يعمل فيه هاني على تطويع نفسه لتألف حياة اليابسة كانت الأفكار تتزاحم في تواردها إلى مخيلته غير أنه يكون محجماً عن إستحضار الماضي البعيد بما يحمله من الذكريات التي يرى فيها قريبه محروق - الذي نكد عيشته في إفريقيا - مفتاحاً وعنواناً لهذه الذكريات، كانت فكرة العودة إلى بلده الأم يراها السبيل الأفضل لتحقيق ذلك مع محاذيره من أن محروقاً قد سبقه إلى بلدته الأم، وإلى هذا وذاك فهو لم يستطع بعد توفير مصاريف رحلته، خاصة وإن المعيشة في (كَندا) مُكلفة بحيث يكون من الصعوبة لشخص مثله اتصف بالكرم، الادخار من أجره اليومي.

في يوم من الأيام وصل إلى منزل شهاب تلغراف باسم هاني صادر من مكتب قرطاج، يطلب من هاني القدوم إلى مكتبهم في (تورانتو) بحسب العنوان في التلغراف لاستلام استحقاقات نهاية الخدمة، في حال عدم رغبته مواصلة خدماته لديهم.

في صبيحة اليوم التالي تعرف هاني على أحد الإداريين، في مكتب قرطاج كان يعمل في السفينة عندما كان هاني يعمل بها أيضاً، ذهبا معاً لمقابلة مدير الفرع الذي رحب بهاني قائلاً:

- كُلفت بإقناعك للعودة إلى سفينتنا، وفي حال فَشلي تستطيع استلام استحقاقاتك من مكافأة نهاية الخدمة.
- أظنني أرغب في مواصلة الخدمة لديكم.
- عظيم.. سأنقل قناعتك هذه إلى مدير السفينة لتتم عملية ترحيلك إليها. أما الآن فتستطيع المداومة في مكتبنا.. أرجو التوجه لمكتب شؤون الموظفين لاستكمال الإجراءات.

عودة هاني إلى قرطاج أشبه ما يكون بعودة السمكة إلى محيطها التي دأبت عليه، استُقْبِلَ هناك بحفاوة كبيرة من قبل الملاحين، فهو يمتلك القدرة على فرض احترامه ليس بماضيه؛ بل بحاظره الذي يتمثل في معاملاته مع الآخرين، وبتفانيه لهم، واعتداده بنفسه. لذلك مرت على هاني في قرطاج سنوات طويلة، وكأنها سنة أو بضع سنين.

****

في يوم من أيام الخريف كانت السفينة مبحرة في المياه الواقعة بين المحيط الأطلسي والهندي قبالة مدينة (كبتاون)، كانت سرعة السفينة عشرين عقدة بحرية، وقتئذ هبت على السفينة رياح عاتية هوجاء جعلت "قرطاج" بكبريائها وعظمتها مترنحة تميل إلى اليمين تارةً وإلى الشمال تارةً أخرى، دفعت هذه الرياح الاستوائية بعدد من السياح والمسافرين ممن كانوا على ظهرها، وقذفت بهم إلى البحر الذي كان هائجاً، كانت الأمواج تتلاطم بالسفينة محدثةً هديراً، بدا البحر أبيضاً مثل الجليد حول السفينة وبدت السفينة كقطعة الصابون في هذا الزبد الأبيض الهائل.

كان هاني على ظهر السفينة حينها، إلاَّ أنه تشبث بسياج حافتها، وأطلقت صفارات الإنذار التي ملأت الجو صياحاً، كان هاني يراقب

المشهد عن كثب ويهيئ نفسه لإنقاذ هؤلاء الركاب، سرعان ما اتجه بمساعدة عدد من البحارة إلى قوارب النجاة لإطلاقها لمباشرة عملية الإنقاذ.

في هذا الجو المشحون بالخوف والتوتر وصوت الرياح وهدير الأمواج التي ترتطم ببعضها وبالسفينة مما نشر رذاذا كثيفا حتى أن قوس قزح ارتسم في الأفق، علت الصيحات في الجو من الركاب الذين يتدافعون إلى حافتها لينظروا إلى أصحابهم، تمكنت فرق الإنقاذ من رفع المسافرين الذين دفعتهم الريح في البحر بالقرب من السفينة، كانوا يعتقدون أنهم أكملوا مهمتهم، عندما كان هاني يصعد سلم السفينة لمح فتاة بعيدة تقاذفتها الأمواج حتى كادت تغرقها، لم يظهر منها إلاَّ يداها وكما معطفها الحمراوان اللذان تلوح بهما من على مقربة من مؤخرة السفينة، خشي هاني أن تشفط تربينات السفينة هذه الفتاة وتقطعها، أو تدفعها باتجاه الأعماق، وثب هاني من على السلم وأخذ يعوم صوب الفتاة.

عندما وصل إلى الموقع الذي رآها فيه لم يجدها، تلفّتَ يمنةً ويسرةً، شَخَص بنظره نحو الأمواج التي تحجب عنه الأُفق، لم يجد لها أثراً، غاص في البحر، واصل الغوص غير عابئ بخطورة ما يفعل، كان يتنقل في الأعماق ويصعد إلى السطح وكأنه سمكة أو فقمة بحرية، لم تكن لديه أسطوانة للأكسجين لذلك فهو يغوص في الأعماق بحثاً عن الفتاة المفقودة، وعندما يستنفد ما أحرقه جسمه من الأكسجين يعود إلى سطح البحر للتزود بما يكفيه لغطسة أخرى.

لم تكن الفتاة في صراع مع البحر الهائج فحسب، بل كانت أيضاً في صراع مع سمك القرش الهائج، حتى بدت وكأنها ترقص مع القِرش، على أنغام شيطانية.

بدا لمن كان على سطح السفينة ذيل وظهر القرش وهو يتنقل بجانب السفينة، تأكد لبعض الملاحين الذين شاهدوه أنه من نوع القرش الأبيض المنقوط الذي يسميه الأفارقة في هذه النواح (بابا شلنغ) نسبة لعُملة الشلن الإفريقية وتعود هذه التسمية إلى الأسطورة القائلة بأن الله ألقى بالشلن على ظهر هذا الحوت ليصبح بعد ذلك منقوطاً.

*****

لعل هذه الفتاة التي أُنهكت تدرك بأن القِرش يخاف تيار الماء الذي تعكره الفقاعات الناجمة عن حركة التربينات،و لعلها تدرك أيضاً أن ذلك يمثل خطراً عليها غير أنه لم يكن لديها خيارٌ آخر إلا أن تقترب من الفقاعات أكثر، كانت كالمستجير من الرمضاء بالنار، لعلها كانت تثق في مهارتها في السباحة، حتى أنها بدت كسمكة ترقص في هذه الأمواج المُعتمة،كل ماقربت من فك القِرش وأراد أن يطبقه عليها تخلصت منه ببراعة لاعب كرة القدم الماهر، استطاعت أن تتخلص من أنيابه بأن لجأت إلى المياه المعتمة. لعلها أدركت أن معطفها القاني الحمرة من أسباب استهدافها، لذلك عمدت إلى حل معطفها ودفعت به صوب القِرش الذي ما لبث أن تبعه في حين انسلّت لتتخذ سبيلها في العمق، كان ذلك بعد معركة حامية الوطيس شهدتها الأعماق. انتصرت الفتاة ولكن بعد أن خارت قواها أو كادت، لكنها استطاعت بعد أن أُوقفت تربينات الدفع (الهيدولكية) للسفينة أن تنجو من دائرة مجال جذب التربينات.أو لعل الحوت كان يشم فريسة أخرى أسهل من هذه.

رجح بعض البحارة ؛ أن الحوت الذي أراد مهاجمة سفينتهم هي أنثى قامت بذلك بعد أن نقص مخزونها من الشحوم عن ما تحتاجه

لرعاية صغيرها الشَّرِه خاصة وان الأسماك تندر هنا لعدم وجود المراعي و الفقمات، لذلك فانك تجد المياه هنا صافية وشفافة لعدم وجود العوالق.

لعل سبب وجود سمك القرش في هذه المياه المتصحرة من المراعي والعوالق يعود إلى أن هذه المنطقة الاستوائية تعد منطقة تزاوج لهذه الأسماك وهي منطقة أمنة ترعى إناث القرش فيها صغارها، فعند ما تأتي هذه الحيتان إلى هنا تكون مستعدة باختزان كميات هائلة من الشحوم تكفيها لأكثر من خمسة أشهر وهي مدة رعاية صغيرها الذي ترضعه يومياً نصف طن من حليبها، لتذهب به بعد ذلك في رحلة تعليمية طويلة وشاقة، لتصل به إلى المناطق القطبية في فصل الربيع حيث يذوب الجليد وتنبت الطحالب والمراعي البحرية.

تترك الأم صغيرها هناك إلى الأبد ولتعود إلى المنطقة الاستوائية للتزاوج من جديد لتكرر ذلك سنوياً.

عندما كان هاني يغوص في الأعماق متلفتاً لاح له غير بعيد جسمٌ معلق في البحر لا يكاد يبدي حراكاً. في بادئ الأمر، اعتقد أنه دولفيناً في صراع مع أخطبوط، بعد أن رأى انتشار أذرع ذهبية طويلة تتحرك بجانبه.

الرؤيا في بحار هذه المنطقة الاستوائية كثيرا ما تكون سهلة لشفافية المياه هنا بسبب عدم وجود العوالق المجهرية غير أنها كانت اليوم هنا معتمة بسبب كثرة الفقاعات الناجمة عن نشاط الأمواج وتربينات

السفينة ونشاط القِرش الذي إتخذ سبيله في البحر،ضاربا بذيله الضخم البحر ناشراً أبخرته المائية وكأنه مرجل طبخ مضغوط طار من شدة الضغط صمامُ أمانه، كان يزمجر ويملأ الجوّ ضجيجاً وكأنه يهدد بالويل والثبور وعواقب الأمور، قرب من ذلك الجسم، غير أنه قد بدا له أن تلك لم تكن أذرع أخطبوط ؛وما هي إلا ضفائر شعر أدمية طويلة ذهبية كان الماء يعبث بها لتبدو كأذرع متحركة. اقترب هاني من ذلك، انه شبح.. إنها امرأة..إنها فتاة في ريعان شبابها!.. غير أنها لا تلبس المعطف الأحمر الذي رأى هاني كُميه عند ما كانت تلوح بيديها. كانت لا تُبدي حراكاً إيجابياً، أخذ معصمها، جس نبضها، لم يظهر مؤشرٌ للحياة، وضع أذنه على صدرها شبه العاري. مازالت هناك نبضات ضعيفة تسمع من قلبها، إنها لا تزال على قيد الحياة! أطبق فمه على فمها، أفرغ كل ما بجوفه من الهواء بطريقة ذكية لا تسمح للماء بالدخول إلى رئتيها، أخذ بناصيتها ليصعد بها مسرعاً نحو سطح البحر، دبت الحياة في أوصالها شيئاً فشيئاً، بعد أن وصلا السطح، كان هاني يلبسها سترة نجاته البرتقالية اللون التي كان يرتديها، لم يعمد إلى إطلاق صمام تعبئتها بالهواء حتى لا تعيقه عن الغوص في الأعماق.

كانا يبعدان عن السفينة بقرابة مائة ياردة، شَخَصَ هاني بنظره صوب السفينة التي تدلى منها حبلٌ رُبطت به عجلة هوائية برتقالية اللون– أشبه بإطار السيارة الصغيرة– أُلقيَ بها إليهما.

عند ما وصلت الفتاة إلى السطح أخذت تملئ رئتيها بالهواء بدأت تستعيد قواها، ذهبت عنها زرقة وجهها و جسمها أصبحت تعي بما حولها.

كان هاني سريعاً في صعوده من الأعماق إلى سطح الماء، غير أنه لم يكن كذلك في ذهابه إلى السفينة،

– لماذا أصبحت تتباطأ في الذهاب إلى السفينة.. إن أسماك القرش تنتشر هنا..كنت في صراع مع أحدها.

– أن الآدمي الذي يتعرض لضغط الماء لمدة طويلة في الأعماق تدخل جسمه – عن طريق الجلد – جرعات سامة من النيتروجين، فإذا ما طلع من البحر تعمل هذه الجرعات على قتله خلال يوم أو يومين.. لا أريدك أن تتعرضي لذلك. سكت قليلاً..ثم أردف:

– الطريقة المُثلى للتخلص من ذلك أن يبقى الجسم ملامساً للبحر لكن دون ضغط منه.. يجب أن يُمنح جسمك فرصة كافية لتفريغ هذه الجرعات.. تسمى هذه علمياً بعملية (إبطال الضغط المائي).لعلها أشبه بتفريغ المشط من الشحنات التي تلتصق به اثنا تصفيف الشعر.

هناك جمهرة على حافة السفينة تهتف القِرش.. القِرش.. تشير إليه في الخلف، عندما كان هاني يتقدم برفقة الفتاة، نظر إلى الخلف، لمح ذيل القرش يشق صفحة الماء خلفه وكأنه شراع لسفينة تغرق وما لبث أن رفع ذيله ليضرب به البحر فتنبعث من ضربته الأبخرة المائية، وينتشر الرذاذ متطايراً في الفضاء ليحجب الأفق.

كان هاني يدفع بالفتاة صوب عرض السفينة هارباً بها من القِرش الذي يتعقبها؛ ولكنهما ما إن وصلا سلّم النجاة الذي تدلى من السفينة. حتى وصل القِرش وهو في أشد حالات هيجانه، بدا أكثر سرعةً ومباغتةً، تمكن القِرش من التهام رجل هاني من أسفل ركبته، التهمها كما

يلتهم مقص البستاني غصناً طرياً. أراد القِرش أن يلتهم هاني ولكنه لم يظفر إلا برجله اليُسرى أما اليمنى فقد رفعها إلى الأعلى.

لم يترك هاني الفتاة بل استمرَّ متشبثاً بها وبسلم النجاة الذي كانا معلقان به،ظل يدفع بالفتاة إلى الأعلى رغم الألم والنزيف الذي كان غزيراً، انقطعت احد دعامتي السلم، أصبح هاني يتأرجح في عرض السفينة مثل بندول ساعة جدارية وهو ممسك بالفتاة، زاد الثقل على الدعامة الثانية التي تأثرت هي الأخرى بشدَّة أنياب القرش، كادت تنقطع لولا أنهم مدو إليهما بحبل فتشبث به بأسنانه وهو مازال ممسك بالفتاة التي ساعدته في الإمساك بالحبل بعد أن حملها على عاتقه.

انتشر الدم حول جسم السفينة، لعل ذلك جعل القِرش يعود أكثر غضباً وهياجاً، أخذ القِرش دورته وهو مبتلع لرجل هاني التي غابت في جوفه، عندما عاد في طلعته ثانية، وجد أنه قد استحال عليه النيل من ذلك الرجُل الذي أفسد خطته وأضاع فرصته وحرمه فرصة افتراس الفتاة، فجعل يجول بجانب السفينة تستره الأمواج والرذاذ الناجم عن ضربات ذيله وزعانفه المروحية الشكل.

عاد الحوت إلى الخلف ليغوص في الأعماق. تنفس القوم الصعداء معتقدين بأنه قد اكتفي بما ناله من رجل هاني غير أنهم صعقوا عند ما شاهدو الحوت في الفضاء حتى كاد يصل إلى السياج العلوي للسفينة، بدا لهم كطائرة محلقة، وعند ما وقع على سطح البحر كان الماء قد وصل إلى أجزا واسعة من السفينة محدثا صوتا أشبه بالرعد القاصف أصاب ركاب السفينة بالرعب وقد حجبت الرؤيا بسبب كثرة الرذاذ.

****

سكنت العاصفة، قَلَّ هيَجان الأمواج شيئاً فشيئاً، عادت السفينة إلى اتـزانها ووقارها بعد ترنحها، بدا على جميع من كـان عـلى حافتهـا الحـزن والانكسار لما حل بزميلهم الذي أحبوه كثيراً. نُقـل هـاني للتـو إلى غرفـة العمليات على سطح الباخرة

حضر كابتن السفينة إلى المستشفي لعيادة هاني، كان يسأل الجراح:

– لو أحضرنا قدمه التي التهمها الحوت هل تستطيع إعادتها؟

كان الجراح يضحك وهو يحرك يديه قائلاً:

– ربما.!

– إنني جاد فيما أقول.. سنوجه إلى الحوت خطـاطيف مـدفعيتنا ونقطـره بالسفينة ونشق بطنه.. سنجد القدم كاملة في بطنه.. القـرش لا يـستخدم أسنانه إلاَّ للهجوم..كنا نعتزم اصطياده غير أننا عدلنا عن ذلـك ولم أكـن أعرف انه سلبنا رجل هاني.

– فكرة رائعة سيدي الكابتن..ولكن الحوت عند ما يكون جائعـا تكـون عصارته المعدية مركزة الحموضة..ربما تكون قد أتلفت تلـك الأحمـاض القدم. كـان الجـراح ينظـر إلى فـردة حـذاء هـاني ثـم أردف: باعتقـادي سيحافظ هذا الحذاء على قدمه في بطن الحوت.

تدخل هاني في الحديث:

– ولكن العملية هذه مكلفة كثيراً.. تبدوا سيدي غير مأمونة العواقب.. أرجوا أن لا تتم.. هذا الحوت في غاية الضخامة يقارب طوله ١٢ ياردة.

لقد علمت بأن إناث القرش لا تكون هنـا إلا لرعايـة صـغارها..لا نريد أن نحـرِم الـصغار أمهـم..أشـكر لـك كرمـك.. لا تقلـق سيدي تستطيع متابعة عملك..إن الأمر بسيط..سيعمل الجراح ما يلزم..

كان الكابتن يقول :إن نـائبي يقـوم بالعمـل سـوف أبقـى هنـا ثـم أردف: أتذكر عند ما كنت شابا في البحر أطلقـت المدفعيـة مـن سـفينتنا على احد القروش الصغيرة الحجم فأخرجت أحـشائه فـذهب يلتهمهـا بشراسة..لقد اعتقد بأنها عدوا له..

أجل.. لدى سمك القرش خاصـية عـدم الـشعور بـالألم.. فـإذا مـا أصيب بجرح يكون عرضة الافتراس من قبل الحيتان الأخرى.حتى أنهـا إذا ما خرجت أحشاؤه خارِجهُ جراء عراكٍ ما فانه يلتهمها ظناً منـه بأنهـا فريسته.

أجريت لهاني عملية تهذيب بتر قدمه جراحياً، أما الفتاة فهي بصحة جيدة، وتطوعت لهاني بقربة من دمها، كـان ذلـك بعـد أن أكـد فحـص الفصيل أن دمها مطابقٌ لدمه، لقد أوقفت نفـسها لمرافقتـه والجلـوس إلى جانب سريـره وخدمتـه والـسهر عـلى راحتـه ومتابعـة مواعيـد أدويتـه واستبدال غيارات جراحته.

وضِع هاني في إحدى غرف القسم الخاص في مستـشفى الـسفينة بهـا سريران ودولاب للملابس وطاولة صغيرة توضع عليهـا باقـات الـورد التي يحضرها له الزملاء والأصدقاء مـن مـشتل الـسفينة، هنـاك طاولـة أخرى صغيرة توضع على صدر هاني عند ما يتناول طعامـه، أمـا الـسرير الآخر فقد احتلته الفتاة للعناية به.

عندما بدأ هاني يفيق من التخدير وجد نفـسه مـستلقياً عـلى الـسرير تجلس إلى جواره فتاة، كان محملقاً في وجههـا بعينـين جـاحظتين بلهـاء، متسعة الحدقتين من أثـر التخـدير وقـد انتـاب الفتـاة شـعور بالارتيـاح والطمأنينة من إفاقته.

- أين أنا؟ متمتماً بذلك هاني، بلسان ثقيل.
- في المستشفى.. أجابته الفتاة وهي تضع يدها على جبهته.
- ولماذا أنا هنا؟
- كنت إنساناً رائعاً يا بال..لقد أنقذتني من موت محقق.
- ماذا حل بي؟ كان يقول ذلك بصوت متثاقل أشبه بصوت رجل ثمل، في حين كان يحاول رفع رأسه ليتبين ما حل به. وضعت الفتاة يدها على صدره قائلة:
- لا تتحرك.. فالحركة مضرة بك.. إنني هنا لخدمتك.. تستطيع أن تأمرني بما تريد.
- شكراً.. ولكن من تكونين؟.. قال ذلك وهو يحملق فيها بنظراته البلهاء.

رسمت الفتاة ابتسامة رقيقة على محياها وهي تقول:

- ألا تذكرني يا بال..؟ أنا إيزابيلا. الفتاة التي أنقذتها من موت محقق.

اكتفى هاني بأن هز رأسه بحركة ثقيلة كأنها عرض تلفزيوني بالحركة البطيئة، وما لبث أن غرق في سبات عميق، ارتفع بعدها شخيره، أعادت إيزابيلا رأسه إلى الوضع الأفقي خشية عليه من الاختناق بلسانه التي غدت ككتلة من أثر التخدير، كانت تقعد على الكرسي الصغير، ما زال بنطالها الجِنز مبتلاً من ماء البحر لارتدائها له على عجل وقد بدا ذلك واضحاً في أطرافه و عطفاته القطنية الغليظة، كما أنها لم تُسرِح شعرها وقد اكتفت بتخليل أصابعها له بين حين وآخر، شبكت أصابع يسراها بيد هاني بينما تركت الأخرى تربت على صدره تارةً وتتحسس بها جبينه تارةً أخرى.لحظات مضت عندما قدم الطبيب

المناوب لأخذ معصم هاني لجس نبضه ثم أخذ مقياس الحرارة الزئبقي وهزه بشدة ثم وضعه في إبطه وقد حمل (ملف العلاج) المصنوع من صفيحة الألمنيوم، كان ينظر إليه من خلال نظارته الرفيعة التي تدحرجت فيما بعد على أرنبة أنفه بعد أن تسورتها عيناه لينظر إلى إيزابيلا بنظرة جمعت بين المهنية والإعجاب:

- هل أفاق من تخديره؟

- أفاق للحظة، ثم عاد ليغط في سبات عميق كما ترى..

- أهو قريبك؟ قالها وهو ينظر إلى الملف.

- لا.. إنه هانيبال الذي يعمل بسفينتكم.

- أجل إنه هانيبال..

- اسمي إيزابيلا.. أنا الآنسة التي أنقذها بال من الغرق والقِرش.

- تسعدني معرفتك..كم هو عظيم ورائع هانيبال هذا.. وكم أنت وفيّة ورائعة أيضاً آنسة إيزابيلا. أخذ مقياس الحرارة وتفحصه وأخذ جهاز ضغط الدم الزئبقي ولف وسادته على عضد هاني وجعل ينفخ فيها عن طريق النافخة المطاطية وما أن انتهى من أخذ العلامات الحيوية من ضغط الدم وعدد الزفرات والحرارة والنبض حتى قام بتدوين كل ذلك على شكل رسم بياني في أوراق الملف.

تعوّدَ من بالسفينة بأن ينادوا هاني باعلي بهانيبال، وأول من أطلق عليه هذا الاسم هو الكابتن الراحل جون البيرتو تعبيراً عن إعجابه به وإعجابه بـ(هانيبال) القائد القرطاجي.

- كان السيد البيرتو محقاً حينما أسماك بهانيبال..انظر إلى صورته في الكتاب.

- أي كتاب ؟

- هذا الكتاب للكاتب(انلي برادفور) كانت إيزابيلا تخرج من حقيبتها الكتاب وفتحته..

- من أين أحضرتِيه ؟

- استعرته من مكتبة السفينة..لقد رأيت بعيني التمثال النصفي البرونزي الذي أُكتشف مؤخراً في عاصمتنا (مدريد) فملامح القائد القرطاجي هي شبيهة بك إلى حد كبير فهو عريض الجبهة نافرها بارز الحاجبين طويل الأنف معقوفهُ لينتهي بمنخرين كبيرين..إن فمك الصغير هذا بزواياه الذاهبة إلى الأسفل وشفتيك الممتلئتين كفمه تماماً..حتى ذقنك القوى هذا هو مثل ذقنه.

- هل تتغزلين فيَّ يا آنستي الجميلة؟..ما عليك إلا أن تنظري إلى رجله أيضاً.!

- إنني أتغزل في هانيبال بطل قرطاج العظيمة..سكتت قليلا ثم أردفت وهي ضاحكة: قرطاج التي نُبحر عليها طبعاً وليست التي أبحرت إلينَا.

- يقول المثل يخلق من الشبه أربعين.. هذا في حال وجود الشخص الشبه حياً أما هانيبال القرطاجي لكي تحصرين أشباهه فعليكِ أن تضربي أربعين في ألفين ومائتين سنة، ناهيك عن أن كل إنسان تغير السنون ملامحه كل خمس سنوات على أقل تقدير.. إذاً فعليكِ أن تضربي الناتج أيضا في ثلاثة عشرة مرة..دعيك من ذلك.. في بادئ الأمر عند ما اخبرني السيد البيرتو عن هانيبال كنت ازهوا بذلك كثيراً.. كنت اغسل شعري بمشروب (الكاكاكولا) ليصير متموجاً وأضع على راسي شريطاً كالذي يفعله في الصورة المرسومة على العملة الفينيقية..ولو كانت خوذته ودرعه لدي حينها للبستهما.. كانا يضحكان معاً.

- نحن في (ملقة) بل وفي عموم شبه الجزيرة الأيبيرية نعتبره اسبانياً.. لقد تزوج بالآنسة (باملكا) ابنة أحد شيوخ القبائل الاسبانية..وبرغم انه ولد في قرطاج إلا إنه عاش في اسبانيا معظم حياته.

أخذ الطبيب المشرف على علاج هاني مقاسات الفراغ الذي تركته رجلة المبتورة وتم إرسالها برقياً إلى الشركة الأم لتقوم بتدبير الرِجل المصنعة المناسبة- بشكل مؤقت- و إرسالها من قبلهم إلى السفينة.

بدأ هاني يتماثل للشفاء شيئاً فشيئاً في حين كانت إيزابيلا ترعاه، أصبحت تطوف به في أرجاء المستشفى بحسب نصيحة الأطباء فهي تسنده على كتفها، تحادثه وتروي له النكات لتخفف عنه الوجوم الذي أصبح كثيرًا ما ينتابه بعد بتر رجله، وهو الرجل المرح بحسب ما يصفه زواره لإيزابيلا. أصبح هاني كثيراً ما يُطرق صامتاً، عندما يكون مستلقياً على ظهره تغرورق عيناه بالدموع، لتصير كمحارتين عقب انحسار البحر عنهما لتفيض بعد ذلك على صدغيه، ويكون واجماً مطرقاً في تفكير عميق، كمن يغوص في أعماق بحر مظلم لا قرار له.

أحب هاني قرطاج كثيراً، أعطاها وقته وجهده، أعطاها ما يستحقه أبواه من حبه، أعطاها كل شيء وأصبحت بالنسبة له هي كل شيء. إجازته كلها يقضيها على متنها، فهو يبتعد عنها فقط كي يتمتع بجمالها ويرى كيف يبدو منظرها من بُعد مثل رسام يبعد عن لوحته التي أتمها ليرى كيف تكون. أما الآخرون فإنهم يأخذون إجازتهم ليذهبوا إلى ذويهم وأحبابهم، فقرطاج بالنسبة له هي الحبيبة وهي الأهل وهي الوطن الذي قضى على ظهره عشرين عاماً، وبالتأكيد فهي أعطته وميزته بعض

الشيء، أُعطيَ غرفة خاصة به، زينها بالعديد من الشهادات التكريمية والأوسمة التي منحت له من قيادة السفينة التي حازها كبطل للعبة كرة الطائرة وكذا الصور التي تجمع بينه وبين السفينة وقائدها الراحل صديقه (جون البيرتو).

****

كل محاولات إيزابيلا في سرد القصص والنكات والتجوال بهاني لتخفيف حزنه وهمومه باءت بالفشل، لعل ذلك أصبح عبئاً على هاني الذي يجد نفسه مضطراً لمجاملتها، ليشعرها بأن جهودها هذه لم تخب فهو يرسم على محياه بعض الابتسامات المفتعلة، حتى أصبحت إيزابيلا هذه الشابة التي أبهرت الأبصار، ثقيلة الوطأة عليه بأن تعود أدراجها لتتركه وشأنه، فهو يجد نفسه أكثر راحةً باحتساء همومه وأحزانه وحيداً بلا نديم ولا مشارك، لعل ذلك ما فرضت عليه الغربةُ والوحدةُ تعلُمه منذ نعومة أظفاره، مع أنه في بعض الأحيان يجد نفسه بحاجة لأن يبوح بما يجيش به صدره، من تلك الذكريات القديمة. همَّ لأكثر من مرة أن يُحدث إيزابيلا بما يعتلجُ به صدره إلاّ أنه لا يريد أن يثقل كاهلها بهمومه، خاصة أنه في كثير من الأحيان يستعذب هذه العذَابَات، كما أنه قد تعود بألاَّ يكون ثقيل الظل على الآخرين، فهو ممن يُشرك الآخرين فقط في أفراحه لا أتراحه، فأحزانه هي أسراره الدفينة، التي لا يعلم سواه بها، فهو لا يُعرَف إلاّ مرحاً غير أنه وتحت إلحاح إيزابيلا في معرفة أحزانه قال لها: بنفس القدر الذي يبدي الإنسان نفسه نظيفاً وأنيقاً أمام الآخرين عليه أيضاً أن يكون بشوشاً، أما الهموم والأحزان فهي أمور شخصية بحتة.. بل إنني أراها أشبه بإفرازات الإنسان المستقذرة التي عليه أن يواريها.

عرفت إيزابيلا جوانب من شخصية هاني وأهميته عند مرؤوسيه وزملائه وزميلاته، فهي تكتشف في هاني كل يوم مزايا جديدة، أعجبت بدماثة خُلقه، حتى أنها شغفت به حباً، بعد أن عرفت أيضاً بأنه لم يرتبط بزوجة بعد، من خلال يديه التي لم يكن بها سوى ساعة (أوميقا) بحرية، فهي تسعى جاهدة لأن ترد دَينَها له بأن تخرجه من عالم البحر إلى اليابسة. أصبح هاني شيئاً فشيئاً فارس أحلامها، لتناديه بالاسم الذي أطلقه عليه الكابتن الراحل (جون البيرتو) هانيبال؛ بل تختصره تدليلاً (ببال).

برغم تعود هاني عدم مفارقة قرطاج، إلا أنه عندما أفاق من تخدير العملية، بدأ أمر مغادرتها يراود تفكيره شيئاً فشيئاً، مما ولّد لديه صراعاً، كيف يكون ذلك؟ فهو لا يعرف سواها؛ بل كيف يغادر البحر إلى اليابسة، إنه يرى نفسه تماماً كالسمكة التي تغادر البحر لقد نصحه شهاب ولكنه لم يستمع النصيحة؛ بل إن شهاباً نفسه لم يستفد من النصيحة، هل يكون البحر قدره الذي لا مناص له منه؟ أصبحت فكرة مغادرة السفينة تختمر في مخيلته حتى أصبح مقتنعاً بوجوب المغادرة، كان بإمكانه أن يغادرها في ميناء عدن أو جدة أو السويس أو أي ميناء يكون أقرب إلى بلده، ولكن هناك سبب مهم يجعله يتريث.

فقد قال لإيزابيلا انه يجب عليه أن يعرف أولاً عن أبويه قبل أي خطوة يخطوها، فهو لا يعرف شيئاً عنهما من قرابة ثلاثة وعشرين عاماً، لذلك قرر أن تكون انطلاقته من ليبيريا التي عمل بها طويلاً، و بها الكثير من أهل منطقته الذين يعرفهم، قال لها انه يتمنى أن يسمع ما يطمئنه عن أبويه ليقرر العودة إلى بلده فيما لو كانا على قيد الحياة ليسافر إليهما وينعم

بصحبتها، أما إذا لم يجدها كذلك لا سمح الله فانه سيمضي بقية حياته هائماً على وجهه، سيغادر إلى بلده، من أجل ذلك صمم على مواصلة الإبحار مع قرطاج في رحلتها المكوكية المعتادة، التي تطوف فيها بالقارة السمراء، ريثما تَبرأ جراحه، لذلك قرر الدوران بالقارة على متن قرطاج إلى ليبيريا، كل هذا أوجد صراعاً نفسياً مريراً بداخله.

إيزابيلا الفتاة الجميلة الرشيقة المثقفة والمتخصصة في تاريخ الشرق، استهوتها حياة الشرق منذ نعومة أظافرها وتحديداً عندما قرأت حكايات (ألف ليلة وليلة) التي أهداها لها جدها.. كانت هذه الحكايات مفتاح حضارة الشرق إلى قلبها. ذلك ما أخبرت به هاني.

أبحرت إيزابيلا مع قرطاج من جزر الكناري بعد أن حلت ضيفة على عمها، ووجدتها فرصة لأن تطوف بالقارة السمراء، علها تستطلع موانئ الشرق فهي تحلم دائماً أن تعيش في هذه المدن التي قرأت عنها كثيراً.

قررت إيزابيلا مصارحة هاني بحبها، حاولت أن تختار الوقت والمكان المناسبين حتى لقد حاولت أن تختار اللباس المناسب الذي يبرز فتنتها وجمالها وتختار الألوان التي تروق لهاني وبما يتناسب مع وقاره لتعبر له عن حبها.

أخذت هاني من سريره بعد أن لبس بنطالاً قصيراً من الجِنز الأبيض يصل إلى أسفل ركبتيه وقد بدت منه قدمه ملفوفة بالغيار الطبي، ويلبس فردة لجزمة جلدية سوداء لامعة مدببة الطرف معقوفته إلى الداخل أشبه بمقدمة سفينة فرعونية مصنوعة من أعواد البردي، كان

يلبس قميصاً أبيض مقلماً بخطوط حمراء مصنوع مـن الكُتَّـان المراكـشي، كان حينها متكئاً بيمينه على كتفها عند ما كانت تعينه على المشي إلى حافـة السفينة، وهو الموقع الذي مازال يسيطر على لبه، رغم كـل مـا حَـلَّ بـه. جلسا على كرسيين متقابلين يحتسيان عـصير الليمـون، وبـدت إيـزابيلا بنطالها الأحمر الـذي يكـشف عـن سـاقيها المـدملجتين في حـين دَسَّـتْ قدميها في حذاء أبيض متوسط الكعبين لتبرز من مقدمته أصابع متناسـقة مرصوصة بعناية تتمترس بأظافر بلوريـة أشـبه مـا تكـون بتحفـة نـادرة وعليها قميص وردي اللون، بينما ربطـت عـلى عنقهـا النحيـل منـديلاً حريرياً أحمر ليغطي ما تمرد من صدرها عـلى القمـيص، غـير أن نـسمات البحـر تعبـث بالمنـديل لتمنعـه مـن تأديـة مهمتـه، وتعبـث النـسيمات بخصلات شعرها الذهبية الكستنائية المتدلية من ناصـيتها عـلى جبينهـا، وقد أكسبتها شمس الأصيل مع الخجل حمرةً في وجنتيها، كانـت الـريح تجلب إليهما زخَّات خفيفة من ماء البحر تنتج عن اصطدام الموج بجـسم السفينة لذلك كانت تطبق جفنيهـا ذات الرمـوش الطويلـة عـلى عينيهـا الخضراوين. كانت بهذه الملبس الأنيق أشبه بقطعة زمرد حمراء متحركـة، غير أنها بدت متلعثمة عندما كانت تقول بلهجة ناعمة انـسدلت خلالهـا أهـدابها الطويلـة- الأشـبه بأجنحـة فراشـات الربيـع - عـلى عينيهـا العسليتين:

- كم تبدو وسيماً يا بال.. قالت ذلك ثم نظرت إليه نظرة ذات معنـى... ثم أردفت: أرجو أن يكون لديك نفـس الـشعور الـذي أكنـه تجاهـك.. إنني أحبك كثيراً! فهل تراك تبادلني نفس المشاعر؟ كانـت تقـول ذلـك وهي تقرب وجهها مـن وجهـه وتبعـد بأناملهـا العاجيـة ذات الأظـافر

البلورية المتناسقة خصلة الشعر الذهبية المنسدلة من ناصيتها التي كانت تحجب أنفها وفمها حتى إن أنفاسها كادت تلسع وجه هاني من حرارتها، كان قلبها يضطرم ويخفق إلاَّ أن هاني أشاح بوجهه قليلاً عنها مدارياً تأثير فعل أنفاسها الساخنة والساحرة عليه، كان يقول و هو يلفظ نفساً عميقاً مضطرباً وكأنه يريد به زجر وتوبيخ مشاعره التي بدت تحاول التمرد عليه:

- آه يا صغيرتي أو تحبين حوتاً؟

كرر ذلك وهو يجمع شتات جأشه في محاولة لإبعاد تأثيرها عليه بعد أن رسم بسمةً وقورةً على محياه، تورِدت وجنتاه ولم يُخفِ ذلك شعر عارضيه الذي زحف عليهما بعشوائية.

- بل أحببت من أنقذني من القِرش..الذي أعجبت به كثيراً بعد أن وجدت فيه ضالتي التي لم أجدها على اليابسة.

- إن الذي أنقذك من الحوت هو أيضاً حوت لم يُغادر البحر لخمس عشرة سنة، غير أنه خفف من حدة لهجته قائلاً:

- أنتِ فتاة جميلة ومتعلمة..كنت ألحظ نظرات الإعجاب التي يشيعك بها المارة في السفينة.. إنهم بلا شك يستكثرون فتاة جميلة في مقتبل شبابها على ملاح أعرج قارب الأربعين.. عندما أفكر بحبك أكون أنانياً..أطمع في ما لا استحقه لأن ذلك يا صغيرتي سيترتب عليه تعاستك..أنا لست كما أبدو لكِ..لعليَ أختلف عن ذلك كثيراً.. الحب الحقيقي يكون مجرداً من الأنانية، بل يصل إلى التضحية بالحب نفسه من أجل هذه الغاية.. كنتِ في الماضي منشغلة بالتعليم..لا تعرفين عن الحياة الكثير.. أنت مقبلةٌ على الحياة وستكون أمامك خيارات متعددة وجميلة فلا تحصريها في خيار واحد ساقته لكِ الصدفة.

- هل ادخرت تضحية من أجلي يا بال ؟
- يجب أن تعرفي أن ما قمت به هو الواجب.. عند ما يُقتل الجندي في ساحة الوغاء لا تكون له منَّة على وطنه..لقد ارتبط بالجندية من أجل ذلك..قال ذلك وهو يقرب يده من يديها على الطاولة الصغيرة الدائرية التي تفصل بينهما.. سكت قليلا ورسم على محياة بسمة رقيقة ثم أردف:
- لا يعني أنْ نجوتِ من الحوت بأن تقعي في براثن حوت آخر..أجل لقد أصبحتُ يا صغيرتي - بعد صول مكثي في البحر - لا أطيق اليابسة.. إن الذي أنقذكِ بحق هو ذكاؤك عندما خلعتِ معطفك الأحمر.. لقد استطعتِ أن تخدعي القِرش في البحر..فلا تخدعي نفسك بحوت آخر.. إن فقداني لرجلي يعد ثمناً زهيداً لظفري بذكرى سعيدة معكِ لن أنساها ما حييت.

لعل هاني كان يقصد من هذه الملاطفة أن يخفف من وقع كلماته عليها، ولكن بدا أنه يريد أن يحسم أمراً بدأ يقلقه، لذلك أردف:
- إن صداقتك هذه أعتز بها، وسيكون ذلك ما حييت لن أستغني مطلقاً عن رؤيتك.. ولكن يكون ذلك أفضل عندما أراك في منزل الزوجية محاطة بأبنائك وزوجك، بذلك تكتمل السعادة التي ربطتنا، عندها سأكون سعيداً لأنني أسهمت في إنقاذ امرأة هي اليوم سعيدة كل ما أتمناه أن تجمعنا لقاءات جميلة في المستقبل.عند ما يغرس المرء شجرة ويعود إليها وهي مثمرة وارفة الظلال يكون سعيدا بهذه النتيجة.

شعر هاني بشيء من الارتياح عندما وجد أسارير إيزابيلا عاد إليها تهللها، لذلك أراد أن يغيِّر دفة الحديث، قائلاً :
- هل نقوم بجولة في السفينة ؟
- حسناً.

قامت إيزابيلا لتوها ممسكة بيده لتساعده على النهوض وقد وضعت باعه على عاتقها، كانت تقول وهما يمشيان على ظهر السفينة:

- كم أنت عظيم.سكتت قليلا وكأن شيء خطر ببالها لتردف: لكن يا بال.. ألا تفكر بمغادرة السفينة في يوم من الأيام؟.. لا أخفيك قلقي من ذلك.

- بل إنني تواقٌ لذلك اليوم أكثر مما تتصورين.

- هل أنا التي دفعتك إلى التفكير بالعودة إلى اليابسة؟

- هي مشيئة الله.. لكنك بالطبع سبب ذلك.. كنتُ كمن يعيش ضالاً لطريقه فأنت من وضع قدمي على جادتها.

حاول هاني ثانية تغيير دفّةَ الحديث بتغيير المكان فأردف:

- ما رأيك في الذهاب إلى صالة كرة الطائرة؟

- فكرة جميلة.. أو تسمح لي باللّعب؟

- بالتأكيد.. ليتني أستطيع اللعب معك.

برغم أن هاني بذل جهوداً لإبلاغ إيزابيلا بأن حبها سوف يصل بها إلى طريق مسدود، لعله كان يعتقد أن ذلك كافياً لمنع حبها له. غير أن إيزابيلا لم تحسب الأمر كذلك، خاصة عندما استشارت الطبيب النفساني، وأفادها: (بأن هذا الوجوم والإطراق والعزلة لهاني، أمرٌ طبيعي، وأن ذلك يحصل عندما يفارق الإنسان عزيزاً عليه، فما بالك بأن يفارق المرء جزءامنه)، لذلك مضت إيزابيلا في استمتاعها بأيامها على ظهر قرطاج، هائمة بحب هاني رغم انقباضه، فهي ترى ذلك بمثابة سحابة صيف ستجلو الأيام غيومها، فتجدها دائماً تدفع كرسيه ذي العجلات وتجد هاني مستنداً على كتفها عندما يكون مترجلاً، فعمدت إلى التحدث معه في أمور يحبها.

عندما كانت السفينة في الساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط قبالة مدينة تونس كان هاني يشير بيده صوب مدينة (قرطاج) التي تبعد عن تونس بقرابة عشرة كيلو مترات كان يقول:

- هذه المدينة أبحرت إليها في القرن التاسع قبل الميلاد السيدة (أَليسارَ) أو (ديدو) كما يحلوا للرومان تسميتها بذلك، وهي ابنة ملك صور الفينيقية التي كانت مملكتها على الشاطئ اللبناني، بعد أن قُتل زوجُها هربت إلى هنا وأسست مدينتها الجديدة - (قرطاج) - بين القبائل النورمانية الأفريقية. كان يصف لها قلعة (بيرصا) وبعض مآثرها السياحية في حين كانت إيزابيلا تتحدث عن دور العرب في أسبانيا وكيفية نقلت علومهم إلى أوربا من خلال وجودهم فيها عند ما كانت أوربا تعيش في ظلمات القرون الوسطى،كانت تصف كيف تعود مآثر الوجود العربي علي أسبانيا بموارد سياحية تعد من أكبر مصادر الدخل حتى الآن، ولتصبح أسبانيا ملتقى العلوم والثقافات واللغات والأديان مستفيدة بذلك من عقلانية ابن رشد وصوفية ابن عربي وجلال الدين الرومي و إشراقية ابن طفيل في روايته (حي بن يقظان)، والرحالة ابن فضلان توقفت إيزابيلا كمن يستذكر شيئاً ثم أردفت:

- لقد دونت مخطوطتي ابن فضلان بعين شاهد العيان بشكل متميز وفريد كيف كانت أوربا قبل عشرة قرون.. عند ما قام (Michal Critchon) بترجمتها في كتابه (أكلة الموتى) حققت أكثر الكتب مبيعاً في الغرب عموماً. كان ابن فضلان أحد أفراد البعثة التي أرسلها الخليفة العباسي المقتدر إلى بلاد الصقالبة (الروس) لمساعدتهم في مواجهات دولة الخزر اليهودية التي تفرض عليهم الضرائب. وبعد أن طال عسفهم على

الصقالبة استنجد ملكهم بالخليفة العباسي فكان أهلاً لتلك النجدة..أنتم أهل نجدة وشهامة.

- كان ذاك في القديم قبل عشرة قرون من الزمن..أما اليوم فإن الأمر يختلف.

- ولكن النجدة باقية فيكم حتى هذه الساعة..ألم تضحي بحياتك من أجلي؟..ألم ترفض أن تذبح القرش لإخراج قدمك من أحشائها؟

أراد هاني أن يعيد الحديث إلى مجراه الأدبي لذلك أردف:

- عند ما نُفي أمير شعرائنا (احمد شوقي) إلى هذه البلد نظم أروع وأجمل قصائده..وعاش بها الشاعر (نزار قباني) لينتج أروع قصائده في ديوانه (الرسم بالكلمات).

- هناك نزعة قوية في الثقافة والأدب الاسباني إلى الجذور الثقافية الإسلامية والعربية يتزعمها على ممر السنين جمله من كبار الأدباء والكتاب الأسبان ولعل أهم معاصريهم الروائي (خوان جويتيسولو) و الشاعرة (كلارا خانيس) فهم يعتبرون أن جذور الثقافة الاسبانية الأصيلة هي تلك التي غرسها محيي الدين ابن عربي وجلال الدين الرومي، بروحها الإسلامية والعربية.

* * * *

عندما كانت السفينة على مقربة من مضيق جبل طارق خففت من سرعتها لتكون بسرعة سبع عُقدات بحرية في الساعة.

بدا الارتياح على أوجه المسافرين والملاحين حين لاح لهم كتفا القارتين - إفريقيا وأوربا - على شكل نقطتين صفراوين ليصلا إلى أدنى

تقارب لهذه القارتين حتى تبدو لهم بعد ذلك بين حين وآخر قمم جبل موسى الشاهقة الواقعة على الضفة الغربية للمضيق، كان الجو صحواً وكانت النوارس تحلق على رؤوسهم، كان هاني وإيزابيلا يحتلان موقعاً على سطح السفينة على مقربة من حافتها وقد طفقا ينظران إلى السفن التي تمخر عباب البحر وبدت عظمة قرطاج للناظرين ممن كانوا على هذه السفن التي تنتشر حول قرطاج. كانت إيزابيلا تتحدث عن منطقتها التي تقبع في الضفة الغربية لحوض البحر الأبيض المتوسط:

– (ملقة) هي المدينة التي أنجبت الفنان العظيم (بيكاسو) سكتت هُنيهة وهي تنظر إلى الأفق الشرقي لتُردف مشيرة بيدها :أنظر هناك.. على بعد ما يقارب الستين ميلاً من (ملقة) تكون مدينة (المونييكر)التي تتفاخر بقدوم صقر قريش إليها وحيداً هارباً من العباسيين ليتسلم زمام الحكم في الأندلس ويعيد تكوين الدولة فيها.. لذلك فإن عمدة هذه المدينة المثقف (خوان أباديس) يعتزم إقامة تمثالاً ضخماً لهذا الرجل في واجهة الميناء– الذي دخل منه هذا البطل – يليق بعظمة هذا الرجل.

عادا ليجلسا وهما ينظران إلى البحر وأفقه لتواصل إيزابيلا حديثها قائلة:

– أسس الفينيقيون مدينتنا وأسموها (الملكة) وفسر بعض المؤرخين العرب بأن اسمها يعني (الملح) بوصفها كانت مركزاً لتمليح الأسماك.

– لعل ما يؤكد ذلك أن الفينيقيين ينطقون الحاء كافاً.

– يطلق على مدينتي أيضاً اسم ضوء الليل لانعكاس ضوء القمر على شاطئها. وتمثل الجبال المحيطة سياجاً طبيعياً لها..كانت ايزبيلاء منتشية بالحديث عن مدينتها..غير أنها سكتت قليلاً لتردف : هل زرت (ملقة) يوماً؟

- للأسف لم أزرها لكنني أراها من على الباخرة فقط.. أصبحت مشتاقاً لزيارتها.. كثير من المسميات للأماكن تمثل المزاج العام لمكتشفيها أو روادها الأوائل وقت الاكتشاف إن لم يكن لهذا المكان تسمية جغرافية وظيفية.. يذكرني هذا الاسم بحالة اكتشاف العرب لجزر القَمر عند ما وصلوها ليلاً وهي في حالة عشق مع القمر.

- إن منزلنا يقع على ضفاف نهر (غوادالمدينا). ما زالا أبي وأمي يجلسان على كرسييهما المصنوعين من أعواد البامبو البيضاء في بلكونة منزلنا الصغير يشاهدان القمر وانعكاسه على صفحة النهر أما آنا فيعجبني كثيراً عند ما احضر لهما القهوة إلى البلكونة التي يتعمدا إطفاء أنوارها ليتمتعان بضوء القمر وكأنهما يستحمان بنوره، كنت أشاهدهما من الخلف وقد وضع كل منهما ذراعه على عاتق الآخر فأتخيلهما مثل زوج من الحَمام في حالة غرام هادئة.

- كم أنتِ رومانسية يا آنستي.. شوَقتيني لزيارة (ملقة).. لا شك أنها جميلة وحسبها جمالاً أن أنجبت إيزابيلا.. أتمنى أن نحظى بجلسة شاعرية مثل هذه في شرفة منزلكم لنشاهد انعكاس القمر على صفحة نهر غواد.. سكت قليلاً، ثم أردف: آنستي.. عندما نصل إلى جبل طارق تكونين قد درتي بالقارة السمراء كاملة.. أما أنا فإنني استطيع الآن الاعتماد على نفسي.. إنني أخجل من نفسي حين استغل لطفك لأُحَمّلك أكثر من ذلك.. لو تغادرين السفينة في جبل طارق سأكون مطمئناً عليك.. هل تريدين أن أرافقك إلى مدينتك لأعود أدراجي إلى ليبيريا في سفينة أخرى؟

- لا أريدك أن تتأخر ساعة واحدة عن أبويك.. ولن أحرم عينيَ من أن

تراك ولو لساعة إضافية..

– كم أنتِ شاعرية ورقيقة..كل ما هناك أن القلق سيستبد بي طوال غيابي عنك إن لم تغادري إلى مدينتك.

لعل إيزابيلا كانت منتشية ولعلها تريد أن يبقى الحديث حول السياحة التي تستهويها كثيراً، أما حديث فراقها من هاني فهو يزعجها، حتى أنها تود أن تطول رحلتها على متن قرطاج إلى ما لا نهاية..لذلك أردفت:

– ألم تزر أي منطقة في أسبانيا؟.. أولى المناطق بالزيارة للعرب لغرض السياحة هي اسبانيا ليرون فيها نتائج بذرتهم..وأولى المناطق للأسبان بالزيارة هي بلاد العرب ليرون مصدر البذرة التي أينعت في أرضهم.

– لقد زرت غرناطة وشاهدت مآثر العرب فيها، قصر الحمراء مقر الحكم لبني الأحمر، كم كانت غرناطة جميلة بمناظرها وموقعها على ضفاف نهر الوادي الكبير.. وكم هو جميل مرجها وغوطتها الشبيهة بغوطة ومرج دمشق. لقد أعجبني جبل الثلج الذي بدا كشيخ وقور تلازمه عمامته و عباءته البيضاء صيفاً وشتاءً.

– على بوابة قصر الحمراء نجمة منحوتة في حجرها..هل يستخدم العرب النجمة شعاراً مثل اليهود؟

– النجمة الداؤدية سداسية أما النجمة التي استخدمها العرب على تلك البوابة هي خماسية ويُقصد بها أركان الإسلام الخمسة. أما قصر الحمراء فتسميته تعود إلى جدتهم الأولى التي كانت جارية جميلة وسمي أيضاً مسجد الحمراء باسمها وسميت كثير من المنشآت الأخرى باسمها.

– ما زال هذا القصر أعظم قصور العالم حتى اليوم وما زال من أكبر الآثار التاريخية حتى يومنا.. سكتت إيزابيلا هُنيهة ثم أردفت.. مازال الحرفيون

والصَاغَة في طُليطلة حتى اليوم يصنعون السيوف العربية وينقشون عليها كلمات عربية لا يعرفون معانيها ويطلقون عليها : علي، و المفروع، والمسلول. ثم أردفت كمن تذكر شيئاً: ألم تزر مقابر بني الأحمر؟

– لم أزها..ماذا فيها؟

– يوجد بينها قبر كُتب على شاهده عبارة:

(هذا قبر آخر بني الأحمر).. من صديقته الوفية بعهده حتى الموت..(فلورندا فيليب).. سكتت قليلاً ثم أردفت:

– كل ما كان يعرفه هذا الشاب عن مُلك أهله هو ما سمعه من الموشحات والأناشيد الأندلسية الرائعة والمراثي المُحزنة –على ذلك الملك الضائع–التي كانوا يرددونها على مسمعه عند ما كان صغيراً، فهو لم يرَ غرناطة ولا قصر الحمراء ولا نهر شَنِل ولا جبل الثلج. إلاّ انه عند ما بلغ العشرين قرر الرحيل لرؤية تراث آباءه الضائع. لذلك ركب البحر من سَبتة إلى شاطئ (ملقة) ثم انحدر إلى غرناطة متنكراً في ملابس طبيب أعشاب عربي.كم كانت الحسرة تعصف به وهو يشاهد تلك المآثر ولم يفق من همه إلا بعد أن وقع في حب فتاة راهبة جميلة هي ابنة رئيس (العصابة المقدسة) – المُطالبة بالحريات الشخصية والدينية إبان تعسف محاكم التفتيش– قام الملك بقتل هذا الناشط الحقوقي.. بعد ذلك هام ابن الملك بفلورندا ابنة الناشط فيليب، غير أنها لم توافق على الزواج من ابن قاتل أبيها، وعند ما اكتشف ابن الملك علاقتها بطبيب الأعشاب العربي قام بكشف سره، في حين خيرته محاكم التفتيش بين اعتناق المسيحية أو الموت، فاختار سعيدٌ الموت. فما كان من الأميرة الجميلة (فلورندا) إلا أن أخذت جثته وقَبَرته بجانب من سبقه من أهله في مقبرة بني الأحمر،

وصنعت له قبراً يحُج إليه العشاق في اسبانيا وتأنس إليه طيور الحَمام التي لا تفارق قبره.

- إنها قصة عجيبة وجميلة لقد تأثرت بها..لم يكُن الوجود العربي في اسبانيا احتلالاً أو غزواً فهو بعيد عن كل ذلك، لم يحمل العرب ما حمله الغزاة من دمار وفساد.. بل حمل العرب إلى هذه البلاد أجمل نفائسهم وبديع ثقافاتهم، ناهيك عما حملوه من بن اليمن وفسائل نخيل البصرة ومراكش وعجوة المدينة ولؤلؤ البحرين ناهيك عن الخيول العربية الأصيلة، خلافاً لما دأبَ المستعمرون و الغزاة على حمله، بل إن العرب صنعوا باندماجهم مع الأسبان جنساً أدبياً وفنياً متميزاً، فمازالت الموشحات الأندلسية تتردد على مسارح الشرق والغرب.وما زالت رقصة (الفلمنغو) التي أنتجها (المورسكيون) مع الغجر تهتز لها المسارح.

****

لم تعُد قصة حب إيزابيلا كما كانت من طرف واحد، رغم أنه يكتنف ذلك الكثير من الغموض.. لاشكَ أن دراستها للتاريخ جعلتها تتعامل مع حبها بأكثر رومانسية، ولم تكن قرطاج السفينة مسرحاً لذلك الحب، بل كانت قرطاج الشرق هي مسرحه، و(هانيبال) القائد القرطاجي هو فارس أحلامها، مُجسَداً في هاني باعلي، كما أن إيزابيلا وجدت نفسها مدِينة لهذا الملاح الذي فتنت به وهو بطل هذه القصة التاريخية، فهي ترى هاني باعلي فارس أحلامها هذا هو نفسه (هانيبال) القائد القرطاجي.أصبح هاني يجاملها حتى انه تذكر موشحة وأنشد:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع   أنت المُعد لكل ما يُتوقعُ
يا من يُرجَّى للشدائد كلها   يا من إليه المُشتكى والمفزعُ

لم يتمكن هاني من أن يمضي في القصيدة أكثر من ذلك، فقد بح

صوته فجأة، بذل جهد الجبابرة للسيطرة على نفسه لكنه فشل في ذلك، نظرت إليه إيزابيلا فهالها ان رأت وجهه ممتقعاً. كانت قد تدحرجت من عينيه دمعتان، فتحت حقيبتها وأخذت منديلها الذي يحوي رائحتها البيولوجية الممزوجة بعطرها (كيلوباترة) لتمسحها غير انه سرعان ما عاد إلى طبيعته ليقول:

- تصوري لقد حاولت قبل سنوات عند ما كنت في ميناء (ملقة) تذكُر هذه الأبيات ولكنني لم أستطع. هذا الموشح لعبد الرحمن السهيلي انه من (ملقة) هل تعرفين عنه شيئا؟.

أطرقت إيزابيلا لحظة ثم قالت:

- أجل..لقد سُميت أحد قرى (ملقة) باسمه.. انه كفيف.. أليس كذلك؟

- لا أعرف عنه إلا هذا الأبيات.. كنا نرددها كثيراً في بلدي عند ما كنت صغيراً عند ما كان أبي يصطحبني معه في الجلسات حتى أنني حفظتها.. وعرفت فيما بعد أن شاعرها من (ملقة) فخطرت على بالي، واستطعت اليوم انتزاعها من ذاكرتي القديمة.

- يُعد السُهيلي من أعلام (ملقة). هناك جملة من التماثيل لعلماء المسلمين.. هناك تمثال للصيدلاني ابن البيطار الملقي وهناك تماثيل أخرى

*****

عندما كانت السفينة على مقربة من جزر الكناري، في محاولة أخيرة لثنيها عن مواصلة الإبحار قال لها هاني بلهجة خلط فيها الجد بالهزل:

- لو تلتحقين بعمك الذي يعمل مستشاراً في الكناري سيكون ذلك مطمئناً لي كثيراً. وكانت قد أخبرته عن عمها الذي كان يعمل في سلاح الجو الإسباني لهذه المستعمرة.

- أَتُراني لئيمة لأتركك.. أم أنك ضقت ذرعاً بي؟

-كلا يا صغيرتي لا يضيق بك إلاّ معتوه.. هل ترينني كـذلك؟.. لكننـي مضطر لأن أترك السفينة ومن عليها في ليبيريا، لا أستطيع أن أصف لـك كم كنت مؤنسة لهذه المرحلة من حياتي الأكثر صعوبة.. كم أنا مدين لكِ بتغيير مجرى حياتي.

- أيعز عليك مفارقة قرطاج؟.. إن هان عليك فراقي.

- بل يعز عليّ فراقك أنت، أما قرطاج فـما أنـا إلاّ أحـد أفـراد طاقمهـا، الذين ينيفون عن الخمسين، وكـذا المسافرون الـذين يعـدون بـالآلاف متنقلين بين مرافئ العالم على متنها؛ ولكن هناك حب أعظم دائماً من كـل هذا، جعلته قرطاج للأسف، الدرس الأخير الذي أتعلمه منها!

كانت إيزابيلا تحملق في وجه هاني، مندهشة وقد راعها التأثير البـالغ الذي بدا على ملامحه، واحمرار أنفه وعينيه.

- أيُّ حب هذا الذي يسلبك مني ومن قرطاج؟

- لا تذكِّريني بحبي لقرطاج فهو كحب السراب الذي ترينـه مترامياً في الصحراء، ولا تصل إليه يدك مطلقاً.

- وهل حبي لكَ سراب أيضاً يا بال؟

- لا بل أنت من وضعني أمام الحقيقة لتقفي حائلة دون ذلك الـسراب، الـذي جريـتُ خلفـه وقتـاً طـويلاً معتقـداً أنـه الحقيقـة، الحقيقـة التـي استضعفها الوهمُ لعقدين من الزمن، إنها ثورة الحقيقة وهـذه انفعالاتهـا التي جعلتني ثقيل الظل وصعب المراس ناتجـة عـن صراع الحقيقـة بهـذا الوهم، الظروف التي أمر بها تمنعني عن التعبير لكِ عن هذا الحب الـذي سأتذكره ما حييت.. فهو الحب الذي جـاء في الوقـت الـضائع، بعـد أن

ضاعت رجلي وضاع ربيع شبابي.. لأصبح كمبحرٍ انكسر مجدافه.. عزيزتي حتى لا أكون عابثاً بمشاعرك الجميلة والرقيقة، كنت واضحاً معك، كنت أُلِّحُ بذلك وأصرح به لكنك ربما لم تأخذيه على محمل الجد.

– أرى أنكَ متعب هل أتركك لترتاح؟ قالت إيزابيلا ذلك، وهي تفتح حقيبتها اليدوية لتخرج منها منديلاً لتجفف به بنات عينيها الآتي تتساقط، وهي تقول:

– كم كنت قاسية عليك يا بال ؟

– كلا يا صغيرتي لا يمكن للرقة أن تكون قاسية!

– إن لم يكن هناك حرج.. هلاّ أخبرتني عن ذلك الحب الذي ينافس حبك لقرطاج؟

– أجل إنه الحب الذي ألهتني و أعمتني عنه قرطاج.

– أخبرني.. صرتُ متلهفة لمعرفته ؟

– لقد أنستني قرطاج أبي وأمي وبلدي، بل هويتي لتصبح هي وطني، لقد أعمتني عن كل هذا، كان يقول ذلك وقد بلغ به التأثير مبلغاً.

– يا إلهي كم أنا قاسية.

– بل اغفري لي قسوتي عليك، ما كنت لأخبرك بذلك حتى لا أفسد عليك متعة السفر، لكنني يجب أن أكون صريحاً معك.

– أخبرني تفاصيل ذلك إن شئت.. علَّني أخفف ما يجيش به صدرك.. ما يحزنك يحزنني، وما يفرحك يفرحني، سأكون سعيدة عندما تخبرني بأحزانك، عَلّني أخففها أو أصنع شيئاً حيالها.

– كم أنا لئيمٌ.. جَحُودٌ.. أناني.. كان يقولها بصوت مرتفع متهدج تخنقه العبرات، ثم أردف: أنصحك بأن تذهبي لحال سبيلك ،،

احتضنته إيزابيلا وضمت رأسه إلى صدرها ليغرق فيه ثم حاولت أن تعيده إلى سريره، إلا أن هاني تشبث بعجلة الكرسي ومنعه عن الدوران، فما كان من إيزابيلا إلاّ الذهاب لإحضار كوبٍ من الماء من البراد الذي كان على مقربة منها، قرَّبت كرسيها منه، كانت تسقيه الماء إلاّ أنه أمسك الكوب ليسقي نفسه، طلب منها الجلوس على الكرسي الذي ألصقته بكرسيه فأخذت تحتضنه بذراعيها، علّها تهدئ من تأثره الذي أقلقها، تنحنح هاني ليصفي حنجرته مما لحق بها ليردف قائلاً:

- هل تعرفين في هذه الدنيا رجلاً يهجر أهله؟.. يهجر أمه التي حملته تسعة أشهر، وضحّت براحتها، وسهرت الليالي من أجله.. تجوع ليشبع، وتعطش ليُروىَ وتخاف ليأمن. يهجر أباه الذي منحه هذه الحياة،يتنكر له، يتركه وحيداً يصارع الشيخوخة وقسوة الحياة.. يهجر بلده التي نشأ وترعرع فيها.. كان يقول ذلك بصوت تخنقه العبرات، بعد أن عصفت به الذكريات بكل حجمها لتفرض نفسها بإيجاد حيز في مخيلته، لعل ذلك أوجد صراعاً بين الذاكرتين القديمة والجديدة مما سبب له قلقاً وضيقاً، ولو لم تكن إيزابيلا تعالج ذلك برقتها وحنانها وصبرها ربما كانت العواقب خطيرة عليه. يبدو أنه يعاني من أزمة انتقالية،لعلها مرحلة تحوله من إنسان مائي إلى إنسان عادي. سكت هاني ملياً ثم أردف:

- كان ذلك ليس لمدة عشرين يوماً! إنه لعشرين عاماً بل أكثر!!

- هوّن عليك يابال.

- ما أتعسني.. لقد اعتقدت بأني في الفردوس، ولكني أصبحت أرى ذلك جحيماً.. لقد ضقت ذرعاً بقرطاج وبالبحر الذي سلب مني شبابي و أهلي

وسلب لُبي.. أي إنسان أنا.. كم أنا ضائع، ضال لمسعاي في هذه الحياة..لا أدري كيف أصنع لو لم تكوني موجودة؟.. ولكن حسبك ذلك.. اذهبي يا صغيرتي إلى حال سبيلك، إن من أشقاه ربي أبداً لن تُسعديه..

– كثير من الأمور نجد أنفسنا مجبولين على فعلها.. وقد ندرك في بادئ الأمر بأنها عيوبا.. غير أننا إن لم نعالجها في حينه ؛وإلا فإن الأيام والسنين تجعلنا نألف عيوبنا،ونألف أخطاءنا،حتى إننا لا نراها عيوباً.

– ليس لي أملٌ في هذه الحياة؛ إلاّ أن أرى أمي وأبي واحتضنهما لأعوضهما عن سني الفراق.. إنني ابنهما الوحيد الذي تنكر لهما وتركهما يصارعان أمواج الشيخوخة العاتية دون مُعين.. تصوري كم هي الحسرة قاسية على أبي؟

كان يقول ذلك وقد عاد إليه تأثره وأردف يردد بصوت متهدج تخنقه العبرات:

– ذلك هو الحب الخالد.. ذلك هو الحب الخالد.. الذي يجب أن يعمر به قلبي.

– حقاً حقاً.. ولكن هل تصلك أخبار عن أبويك؟..

– على الإطلاق.. كنت لا أكترث بذلك.. بَل لعلي أهرب من تلك الأخبار..هذه هي الحقيقة المُرة، هذا هو هاني يجب أن تعرفيه على حقيقته.. الرجل الماثل أمامك عاش حياته في الوهم.. ومن لا خير لأهله فيه فلا خير للناس فيه.. إنني أعصر ما بقي لدي من فضيلة لأصنع لكِ منها نصيحة.. اذهبي... اذهبي إلى أهلك و أتركي التعاسة لأهلها.. فالتعساء أعرف الناس بالتعامل مع تعاستهم وأكثرهم قدرة على التعايش معها..

- ستكتحل بك عيناي حتى الثمالة.. لن أتنازل عن ساعة سعادة تضاف إلى رصيد حياتي.. هل يضيرك ذلك شيئاً؟.. كل ما عليك الآن هو أن تأخذ على جناح السرعة طائرة إلى أهلك.. وإذا ما اعتبرت نفسك في هذه الساعة شقياً فإنني أرها أسعد وأجمل ساعة في حياتي.

- أتمنى أن أكون قذيفة يُقذف بها من قرطاج إلى حيث يكون والديَّ..تنهد تنهيدة قوية ثم أضاف.. سيكون ذلك من ليبيريا فإن بها جماعة من بلدتنا، سأعرف عن أخبارهما وأرتب أمر سفري جواً إلى عدن..كما أنه عليَّ دَين لأحد التجار يلزمني سداده،والاعتذار له عن التأخير.

- هل ستتقدم بطلب إجازة لمدة ستة أشهر.. أظنه مناسباً..

- بل سأكتب طلب إنهاء خدماتي، فأنا لا أريد العودة إلى البحر مطلقاً، لم أعد صالحاً لذلك بعد ما طرأ على رجلي.. لقد بعثكِ اللهُ يا صغيرتي إليَّ لتنقذيني من وهمي الذي أخذ شبابي.

- بل أنتَ الذي أنقذتني.. ازدادت زاويتا فمها انفراجاً وهي تقول: تصور..كانت أمنيتي منذ عقِلت نفسي أن تكون لي علاقةٌ ما بالعرب، وها أنا أجد ما يُجسد كل القيم الحسنة التي عرفتها عنهم.

- وماذا عرفتِ عنهم ؟

- كان جدي مهندساً معمارياً تزوج من (سارة) ابنة الممثل التجاري لأسبانيا في (جدة) وأُتيح له العمل هناك بيدَ أن (سارة) لم تعشْ طويلاً.. ظل جدي يذكرها ويتذكر ما يذكره بها، بما في ذلك مكتبتها التي أهداني بعض كتبها وكان منها كتاب (ألف ليلة وليلة)، لا أخفيك ما كان لهذا الكتاب من تأثير على حياتي، وكم ألهمني ذلك من إبداعات أعزوها

إليه.. وأعزو إليه أيضاً محبتي للعرب إجمالاً.. كان جدي يذكر لي سارة كثيراً حتى أنني وعدته أن أُسَمي ابنتي بسارة تخليداً لحب جدي لها، كان يصف لي بساطة وكرم أهل مدينة (جدة) أمراؤهم وتجَّارهم ومثقفيهم وعامتهم، وهو ما عزز حبي لأهل الشرق عموماً.

كان الهدوء يعود إلى هاني شيئاً فشيئاً بيد أن إيزابيلا أرادت أن يخوض هاني في حديث آخر يثير أحاسيسه ويكون بعيداً عن مواطن أحزانه.

– لعل أمرك هذا يا صغيرتي يذكرني بقصة فتاةٍ هولندية، شغفها حب العرب، وعندما كانت تدرس في باريس تزوجت أحدهم إلاّ أن ظنها قد خاب فيه. عندما وجدتْهُ لا يجاريها في حبها للعرب، ثم تبين لها لاحقاً أنه لم يكن عربياً إلا بالتجنس لذلك احتقرت كراهيته للعرب الذين أكرموه بجنسيتهم بعد أن كانوا أولياء نعمته، ولذلك فأنني أخشى أن يخيب ظنك فيَّ أيضاً، خاصة وأن ثمة قاسماً مشتركاً بيني وبين ذلك المنتحل، ألا وهو لؤمي تجاه أهلي الذين هجرتهم. وهناك قاسم مشترك آخر بينك وبين تلك الفتاة الهولندية، ألا وهو كتاب ألف ليلة وليلة. الذي ألهمكما محبة العرب وأهل الشرق عموماً.

– حاشاكَ أن تكونَ لئيماً، وأنت تُفدي بحياتكَ من أجل فتاة لا تعرفها؟..

كانت فرصةً سانحةً لها أن تنطلق لسان هاني ليسترسل في حديثه لها. لذلك أضافت.. استحلفك بالله أن تحكي لي قصة هذه الهولندية كاملة..

تنحنح هاني لتصفية حنجرته ثم قال:

– في أعقاب الحرب العالمية الأولى آوى الأديب الهولندي (فان در هوفن

ليونارد) في منـزله، فناناً بلجيكياً لمدة طويلة، ولم يملك الفنان ما يرد به جميل الأديب إلاّ أن عَرَضَ عليه أن ينحت تمثالاً لابنته (لينيكه) البالغة عشر سنوات. فرحب الأب بالفكرة قائلاً؛ ولكن هل تستطيع إقناعها بالجلوس طول مدة النحت.. إنها كثيرة الحركة.

كَثُرت محاولات الفنان لإقناع لينكه بأن تقَر أمامه، وكان الأمر غير ممكنٍ، أحضر الأب من مكتبته كتاب (ألف ليلة وليلة) وما إن أمسكت به لينيكه حتى غرقت في عالمه الساحر..لعل هذا الكتاب فجر ينابيع طاقاتها الإبداعية، لقد أثرى خيالها وقريحتها للتفتق مستقبلاً عن إبداعات جمة، في شتى فنون الأدب والفن.

عندما شبَّت لينيكه ذهبت إلى باريس للدراسة فوجدت نفسها هناك أمام من اعتقدت أنه أحد أبطال ألف ليلة وليلة فتزوجته، وانتقلت معه بحراً إلى مصر، وسكنت معه في أحد ضواحي القاهرة المتاخمة للصحراء حيث منزل الزوجية، وحيث يعمل زوجها مديراً لمصنع للإسمنت في منطقة (المعصرة). صُدمت لينكه عندما كان زوجها يحذرها من الاختلاط بالمصريين، مبالغاً في وصف خطرهم عليها، وقد أفجعتها تلك النصيحة التي لا تتفق مع خلفيتها المعرفية عن العرب، لذلك فهي لم تصدق زوجها، مما دفعها إلى مخالفة نصيحته، إذ لا يمكنها تحويل العرب من قائمة مرغوباتها إلى قائمة مكروهاتها فعندما اختلطت بعامة المصريين وجدت نفسها مأخوذة بسماحتهم وبساطتهم، ولما كانت الصحراء تحتل مسرحاً روائياً في حكايات ألف ليلة وليلة، فقد ذهبت تستطلع أسرار جمالها عندما كان زوجها في العمل، تاهتْ لينكه بين أحقاف الصحراء.. لم تدرِ كيف تعود أدراجها و بينما كانت في ضيَاعها،

بلغ بها العطشُ والإعياءُ مبلغاً..لاحت لها حينها خيمة شعر لأحد بدو الصحراء الذين أسعَفوا حالَتها و أكرموا وفادتها، كانت أكثر انبهاراً بكرمهم ولطف معشرهم.. لقد أعادوها إلى منطقة المعادي.

في الوقت الذي يزيد حب (لينكه) للعرب كانت تزداد بعداً عن زوجها الذي لا يروقه ذلك، لقد خاب ظنها في زوجها وأفضى الأمر بهما إلى الطلاق، ثم عودتها إلى وطنها هولندا. سكت هاني قليلاً وتنحنح ثم أردف: من أجل ذلك أحببتُ يا آنستي أن أحذرك من الارتباط بشخص لا يمت إلى بيئتك ووطنك بصلة، حتى لا تكرري تجربة لينيكه المأساوية. فتعضين بنان الندم وتجلبين لنفسك الهم والألم.

- ولكن الأمر مختلف فذاكَ لئيم وأنتَ كريم بل أنتَ الوفاءُ بعينه.. و لو مُثِّلَ الوفاءُ برجل لما وُجِدَ خيرٌ منك.. ولكن اخبرني..ماذا صنعت هذه البَطلة في هولندا؟

- لقد نسيَتْ زوجَها، بيدَ أنها لم تنسَ العرب الذين أحبتهم بكل جوارحها، فهي تحكي الكثير عن طيبتهم وصدقهم وحبهم للخير والفضيلة حتى إذا ما كان ذلك اليوم الذي منحها والدها كتاباً لصديقه (جوستاف لوبون) بعنوان: (حضارة العرب) الذي كان مفتاحاً لأبحاثها عن تاريخ العرب وأمجادهم حتى أنها انغمست بكليتها فيه وعمدت إلى إلقاء المحاضرات للتعريف بالعرب والدفاع عن قضاياهم واستعانت بشاب محام يدعى (كَيس وولنجر) قدَّم لها الكثير من المساعدات، لإنجاز تلك الأبحاث حتى أنها شغفت به حباً، فأحب ما أحبت حتى تولد لديه فضول وشغف بما أحبت زوجته، فشكلا ثنائياً رائعاً في الحب وفي محبة العرب حتى أنه أسمى لينيكه بليلى ليصبحا (قيس وليلى).

- ياالها من قصة جميلة.. جعلتني أكثر توقاً لأن أكون ليلى الإسبانية.. ألم تعشْ ليلى كثيراً بين العرب؟

- بلَى.. لقد عادت مع زوجها الجديد لتزور عدداً من أقطار البلاد العربية وما كان نتيجة ذلك إلا أن تعمق حبها للعرب أكثر وأكثر حتى أنها بعد عام ثمانية وأربعين.. بعد النكسة، تبنت قضيتهم في كثير من المؤتمرات والمحافل السياسية، ولعل صديقها اليهودي (الما برجر) أحد زعماء المجلس اليهودي الأمريكي لمناهضة الصهيونية الذي يقيم في أمريكا كان خير مُعين لها في تحقيق رسالتها التي أفنت قرابة عشرين عاماً من عمرها وعمر زوجها من أجلها حتى إنها قالت كلمتها الشهيرة: (العرب أسوأ محامين في أعدل قضية)

- كم أتمنى أن أكون مثلها لأحمل رسالتها حتى تصير نهجاً غَربياً تجاه القضايا العربية، وأكون أنا ليلى وتكون لي قيسا.

كان الاثنان يضحكان فانبرى ثغر إيزابيلا عن عقدين لؤلؤين كانتا تكتنفهما شفتان أقحوانيتان في غاية العذوبة.

في صبيحة اليوم التالي كان هاني على الكرسي ذي العجلات، تجره إيزابيلا في مكتب مدير قرطاج.

يغلف المكتب خشب الأرز اللامع المصقول، وتغلب عليه الألوان الفاتحة التي تضفي على النفس نوعاً من الانشراح والبهجة، بدت الخرائط البحرية تنتشر على الجدران كان المدير منشغلاً بمراجعة الخطوط الملاحية التي تسلكها السفينة غير أنه حينما أقبل هاني وإيزابيلا نهض لاستقبالهما. قدما له التحية وسلماه طلب الاستقالة، نظر في الورقة أمامه، ثم قال له:

- أمر غريب أن تهجرنا يا بال، لا عليك مما أصاب رجلك.. لقد وجه المدير العام للشركة تلغرافياً بأن تصرف لكَ تعويضات مجزية عن ذلك وصرف مرتبك كاملاً، ولكن ما يهمنا هو أن تكون في السفينة التي أحببتها وأحبتك، تستطيع أن تراجع نفسك بالرجوع عن طلبك هذا.. تستطيع أخذ إجازة وتعود أدراجك إلينا.

- سيدي هو قراري الأخير، لقد درست ذلك ملياً.

- أجل سيد فيلب.. أمر ملح حقاً.. لديه ظرف أسري يستدعي ذلك.

- ومن تكونين يا سيدتي الحسناء؟

- إيزابيلا ثبتيرو.. أحد المسافرات على ظهر سفينتكم..

- أجل.. أنت إذاً الآنسة التي أنقذها السيد هانيبال.. أنت من مالقة؟ أنا أيضاً أسباني.. من قرطاجنة.. اسمي فيليب.

- شكراً سيدي للطفك وكرمك.. إذن فأنت من الساحل الغربي.

- لعلكما وقعتما في حب بعضكما.. وترغبان الزواج.. إن لدينا قسيساً وكنيسة.. تستطيعان أن تعقدا قرانكما يوم الأحد القادم لتمضيا شهر عسل على قرطاج وفي ضيافتها.

كان يقول ذلك وهو متبسمٌ.

- أشكر لكَ لطفك وكرمك سيدي كل ما هناك أنني أرغب في مغادرة السفينة في ليبريا.. فإن بها بعض أقاربي.

كان السيد فيليب يبتسم وقد بسط ذراعيه على مصراعيهما عند ما كان يقول:

- إذاً لدينا متسع من الوقت لنقيم لكَ حفل توديع لم تشهده قرطاج بعد.

- شكراً سيدي.. شكراً جزيلاً سيد (فيلب).

- تأكد أن كل شيء سوف يكون موافقاً لما تريد..سيد بال..فقط أخبرنا بما تريد.

سحبت إيزابيلا كرسي هاني إلى الخلف حتى لا يوليا ظهرهما للمدير.

- كم هم الأسبان أهل شهامة، قالها هاني عندما تجاوز عتبة مدير المكتب.

- لعلهم تعلموا ذلك من العرب عندما أخرجوهم من ظلام القرون الوسطى.

- لا يعرف الفضل إلاّ أهل الفضل، بصرف النظر عن التاريخ والنقاط السوداء التي تؤثر فيه بين حقبة وأخرى.

- على كل حال فالتاريخ تحركه السياسات والمصالح في كثير من الأحيان، والمنتصر دائماً هو الذي يدون التاريخ بالطريقة التي يريدها. بل ربما يكون التاريخ مثل عجينة الطين في يد صانع الفخار، ولكن الأيام كفيلة بإظهار الحقائق ولو بعد حين.

- الحقيقة يا صغيرتي لا تقر لما سواها.. التاريخ مثل البحر يلفظ إلى الأرض الأجسام الميتة الغريبة عنه وكذلك هو التاريخ يلفظ ما ليس له صلة بحقيقته.. التي ترسم مساراته الأحداث.

من عادة "قرطاج" أن تُرسِي في ليبريا على الأقل يوماً واحداً، شأنها في ذلك شأن بقية السفن المسجلة في ليبريا، لإجراءات السلامة وأنظمتها، وكذا التأمين والتموين للسفينة نفسها، لذلك فإنك تجد هذا الميناء وكأنه مدينة كبيرة عائمة على سطح البحر لكثرة السفن والبواخر الراسية فيه.

غير أن "قرطاج" في هذه المرة لم تكن إلاّ عابر سبيل في رحلتها عبر الأطلسي إلى الهندي مروراً بالبحر الأحمر حتى السويس والمتوسط والعودة إلى ليبريا من جهة شمال إفريقيا لتقوم بإجراءات التسجيل كاملة أسوة ببقية السفن.

كان حفل توديع هاني رائعاً ومتميزاً، تمت تغطيته إذاعياً في الإذاعة المحلية للسفينة و تداولته الشركة الأم في أخبارها، وتم تصويره سينمائياً. كان هاني يلبس بدلة رسمية من الصوف الإنجليزي ماركت (هيف سانت لورنس) ذات لون كحلي وهو اللون الذي يفضله دائماً،ويلف رقبته بربطة عنق زرقاء اللون بخطوط حمراء على قميص أبيض ماركة (جرين ليف) وفردة حذاء ايطالي نوع (باتا) بدا أنيقا بشوشاً ينشر في الجو المحيط رائحة عطره الـ(بروت) وكأنه قد ترك جميع همومه في غرفته بعد أن وضعت الآنسة إيزابيلا اللمسات الأخيرة على هندامه، رغم عدم انصياعه لها في حلق ذقنه. ألقى ضيف الشرف هاني كلمة مرتجلة، بهذه المناسبة، شكر فيها قيادة السفينة وملاحيها والحاضرين، قائلاً:

إن لكل واحد منكم في فؤادي ذكريات غالية لا تتصوروا مقدارها، وليس في استطاعتي أن أُعبر عنها، ولكنكم ربما تُصدقوني عندما أخبركم أن محبتكم هذه، أنسَتني أعزَّ شيء، أنستني أبي وأمي وأهلي جميعاً.. عندها لم يستطع مواصلة الحديث، بعد أن بحّ صوته وأثَّرت عليه العبرات، مدت له إيزابيلا بكوب من الماء، جرع منه جرعة.. تنحنح لتصفية حنجرته ثم أنشأ بعدها: إنني ذاهب خلال هذا الأسبوع لرؤيتهم، أرجو دعواتكم وصلواتكم بأن أجد والديَّ على قيد الحياة، متمتعَيْنِ بصحة جيدة، إنهما لا يعرفان عني ولا أعرف عنهما شيئاً ولم

أرهما منذ خمسة وعشرين عاماً. تأثر الجميع بحديث هاني. إلاَّ أنه أراد أن يعيد الحفل إلى جو المرح والبهجة، فأردف: أرجو من الفرقة الموسيقية أن تـزيل مسحة الحزن التي ربما أضفيتها، ولكنها وإنْ خانني التعبير فهي من محب مخلص لكم، يعزُّ عليه بحق فراقكم. أمسية سعيدة للجميع ولا أنسَ الأصدقاء والصديقات من الدلفينان التي تـزاحمت لتلتصق بالسفينة لتتمتع بالأنغام الشجية. عقب كلمته تصفيق حاد ليسود بعدها جواً من المرح والبهجة.

عزفت الفرقة الخاصة، ولعله تحت تأثير هذه الكلمة افتتح الحفل بأغنية مجاملة لهاني هي (أنا بحبك يا مصطفى) كانت الفرقة تستبدل اسم مصطفى باسم هاني أحياناً وسط هتاف وصياح الحضور، تم أيضاً تأدية رقصة (المانبوطية)[1] العدنية الأصل التي أضحت تراثاً بحرياً عالمياً، كنت تؤديها فتيات جميلات يلبسن ملابس البحَّارات ذات الأكمام العارية التي أبدت الرسوم الموشومة على أكتافهن وسواعدهن.

بدت إيزابيلا التي تصطحب هاني وتدفع كرسيه ذا العجلات، أكثر إشراقاً وتألقاً ونشوةً بهذا الحفل، لقد عقدت شعرها الكستنائي خلف رأسها لتربطه على هيئة ذيل الحصان مما جرد عنقها الطويل الذي يضاهي عنق الغزلان البراري طولاً، في حين تعلق بإذنيها قرطين من الألماس الثمين اشتراه هاني لها من السوق الحرة بالسفينة بهذه المناسبة، إضافة إلى القلادة الصغيرة الأنيقة التي تتدلى من رقبتها على صدرها الذي يبتلعها حيناً ويلفظها حيناً آخر، لتبدو –أي– القلادة كطفل يمارس بولع لعبة

---

١) وهي تصحيفاً لكلمة (مان بوت) بتهجئة عدنية نسبة إلى رجال القوارب الذين يبيعون بضائعهم في ميناء التواهي بعدن. نقلاً عن صحيفة الأيام اليمنية الصحفي (نجيب يابلي).

الظهور والاختفاء. كانت تربط على يسراها ساعة (جوفيـال) ذهبيـة ذات أرقام شبابية ربطت حول معصمعا بحزام جلد التمساح الأسـود. ثـوب السهرة الأسود بوروده الخضراء الذي يبرز جزءاً من كتفيها العاجيتين بدا متناسقاً مع لون عينيها الخضراوين زاد من ألقهـا وروعتهـا ؛ حتـى بـدت كنجمة للأوسكار مما جعلها مرمى لسهام نظرات المعجبين التـي تُـصوَّب نحوها من جمهور الحضور، حتى ان عدداً من كباتنة السفينة كانوا يدعونها للرقص بمعيتهم، ولكنها تعتذر عن ذلك بابتسامتها اللطيفة. لعلها كانت تريد الرقص لتختبر مدى حب هاني لها،كانت تنظر إلى هاني بزاوية عينيها الخضراوين لقراءة ردود فعله، إلاَّ أنه عندما طلب منها السيد فيليب ذلك، نظرت إلى هاني، وفهمت من نظرته عدم ممانعة.

عندها ذهبت للرقص مع السيد فيليب وهي توزع وتنثر في طريقهـا الفتنة والدلال المحفوفة بسحر عطرها (كيلوباترا) و بإيقاع طقطقة وقـع قدميها على أرضـية الـسفينة الخـشبية. كانـت الفرقـة الموسـيقية تعـزف موسيقى (الدسكو) الصاخبة، لتُمزق سـكون الليـل البهـيم، لتكـشف سترته وتطرب سكونه تلك الأضواء الساطعة، على ظهر السفينة. كانت إيزابيلا طوال رقصتها لا يفارق محياها هـاني، كانـت تنظـر إليـه كـل مـا سنحت فرجة من الراقصين بذلك، أما هو فعينـاه لا تنقطـع عـن النظـر إليهـا، كانـا يتبـادلان الابتـسامات مـن خـلال الفراغـات التـي يتركهـا الراقصون. أخذت إيزابيلا قسطاً من الرقص على أنغـام موسـيقى الجـاز الصاخبة، ورقصة (الشتشات)، استطاعت أن تستثير غيرة هاني وهوكـل ما كانت تريده، لكنها بنفس الحرص لا تريد أن تغضبه، عند مـا حوَّلـت الفرقة عزفها ليكون على أنغام رقصة (التنجو) الهادئة الكلاسيكية، كـان

الأمر يتطلب من الراقصين تحويل رقصهم بما يتناسب مع هذه الأنغام، عليهم وفق ذلك تغيير هيئتهم وحركاتهم في الرقص بحيث يلتصق الراقص بالراقصة وتتوسد الراقصة أعلى صدر الراقص أو تتوسد كتفه ويتشابكان بأصابع اليدين حيناً، وحيناً يُطوِق الراقص بيمينه خاصرتها. لما كان الراقصون يتهيئون لفعل لذلك، اعتذرت إيزابيلا للسيد فليب.

– يبدو أني لا أجيد هذا اللون من الرقص.. أعذرني.

– أنا أيضاً لا أجيده.. عمتِ مساء آنستي.

كان يقول ذلك بعد أن رسم ابتسامة عرضية على محياه.

عزفت بعد ذلك الفرقة رقصة (الفلمنجو) الإسبانية العريقة رقصة الأنفة والسحر، كانت إحدى الراقصات المحترفات تلبس لباس هذه الرقصة المحتشم ذا الأكمام الطويلة الفضفاضة المخروطية التي تشكل دوائر قياطينه تحيط بالراقصة بما يشبه الأقماع المتراكبة على بعضها،كانت تحمل في يمينها مروحة يدوية صغيرة من القماش نصف دائرية بدت زاهية الألوان وكأنها قمرية صنعانية كانت تحركها بحركات راقصة جميلة جمعت بين الأنوثة والقوة و الأنفة، ترفع أحياناً بيديها ثوبها الطويل المذيل لينحسر عن ساقين مدملجتين جمعت بين القوة والرشاقة، لينتهيان إلى الأرض بجزمتين من الجلد الأسود بكعبين متوسطين تضرب بهما أرضية السفينة الخشبية لتصنع إيقاعاً رائعاً طغت به على أصوات الآلات الموسيقية لتهفو إليه أفئدة الحاضرين، مثَلَ هذا الإيقاع (المايسترو) لهذه الفرقة العازفة.

عادت إيزابيلا إلى موقعها لرفقة هاني، لعلها أدركت من ملامحه إنه يريدها أن تكون أكثر قرباً منه.كل ما ذُكر في الميكرفون اسم هاني ترقرق

من محجريها الدمعات التي بدت كقطرات الندى كانت تحاول جاهدة حبسها من غير فائدة، زادتها هذه المشاهد حباً وهياماً وعشقاً لهاني. كما أن هذه الحفاوة والتقدير قد شملاها، فهي ضيفة الشرف ونجمته الساطعة التي تتجه إليها الأنظار مما أشعرها أنها هي وهاني شيء واحد، كما أن الحضور ينظرون إليها كبطلة لقصة الحب التي كانت السفينة مسرحاً لها.. كان الجو في السفينة يميل إلى البرودة ولعل هاني وجدها فرصة لأن تغطي إيزابيلا كتفيها الفاتنتين لذلك منحها معطفه فارتدته من فورها. ولعلها شعرت بشيء من الارتياح لتمكنها من تحريك بواعث الغيرة لديه.

أخذت إيزابيلا آلة التصوير لتلتقط العديد من الصور لهاني وللحفل، أعطت الآلة لأحد أصدقاء هاني ليلتقط لها ولهاني المزيد من الصور التي تجمع بينهما في هذه الذكرى التي تخالها أحياناً فرح زواجها من هاني..ذلك ما أخبرت به هاني لاحقاً.

قُدمت لهاني العديد من الهدايا من الزملاء التي اشتروها له من السوق الحرة في السفينة. أما قيادة السفينة فقد سلمته ترس السفينة، وهو عبارة عن قالب من الزجاج البلوري بداخله مجسم ذهبي للسفينة، سُلِّم هاني أيضاً شيكاً تعويضاً لما تعرض له بمبلغ مائة ألف دولار، وشيكاً أخر بمبلغ قدره ثمانون ألف دولار مكافأة نهاية الخدمة، ومنح شهادة الملاح النموذجي التي يتبعها استمرار استحقاقات العاملين من الدرجة الثانية على جميع سفن الشركة وفي اليابسة أيضاً.

تشير ساعة السفينة ذات التوقيتين العالمي بحسب توقيت غرنتش والمحلي – ذاتي التحديث بحسب تواجد السفينة – إلى الثانية بعد منتصف

الليل عندما غادر هاني وإيزابيلا الحفل، كانت إيزابيلا تدفع بيسارها عربة هاني أما يمينها فقد ذهبت أناملها الرقيقة تتخلل شعر رأسه ولحيته، بينما كانت كذلك أخذ هاني يدها يقبلها،لعل السهرة قد أثارت ما بداخل قلبيهما من حب وهيام، كانت أناملها المشبوبة لا تقل سخونة عن رأس هاني الذي بدا محتقناً، لعل إيزابيلا كان يخالجها شعور بأنها تعود مع عريسها إلى بيت الزوجية. أفضت بهما الردهة الطويلة إلى باب غرفة هاني الذي وقف من على كرسيه ليفتح الباب وليدخلا معاً، كانت إيزابيلا تحاول حَلَ زِر عنق قميصه الذي كان مشدوداً على رقبته بعد أن وجدت عنقه خفاقة. كانت الأضواء خافتة لذلك قرَّبت رأسها من رقبته لترى الزِرَ، لفحته بأنفاسها الساخنة التي كانت في الأصل تغلي طول ساعات السهرة، لتجده لا يقل عنها سخونة، جذبها إليه بلطف، طبع قبلة على جبينها فخفضت رأسها ليتساوى مع رأسه فأطبق شفتيه على شفتيها الرقيقتين ليعتصرهما فأسدلت أهدابها الطويلة الأشبه بأجنحة فراشات الربيع ليناما على بعضهما فوق البؤبؤين الخضراوين، ذهبا في عناق حار. توقفا عن ذلك بفاصل من الابتسامات الحالمة والزفرات اللاهثة، والنظرات الناعسة، ساد صمت لم تقطعه إلاَّ تنهداتها التي بدت كموج البحر في أيام الخريف، دلفا إلى الغرفة، نزعت إيزابيلا المعطف من على جسدها لتضعه في المشجب، برز من ثوب السهرة الأسود كتفاها العاجيان، جذبها هاني برفق إليه، وأخذ وجهها الجميل براحتيه، تفرَّس فيه ملياً كما يتفرس كابتن قرة القدم للكأس الذهبية بين يديه، غرز أنامله بين شعرها الذي حلتَّ ربطته وهزت رأسها ليتهدل بعشوائية على كتفيها وليذهبا في عناق حار أحال ياقة قميصه هاني البيضاء إلى الاحمرار.

*****

كان العاشقان يرتبان الهدايا والشهادات في غرفة هاني حتى وقت متأخر من الليل، تذكر هاني الشيكين بحث عنهما في جيوب معطفه، وقعت يده عليهما، طلب من إيزابيلا أن تناوله قلماً وهو لا زال ممسكاً بهما في يمينه.

- ماذا تريد أن تفعل؟.. أي كتابة عليهما تفسدهما!.

- أريد أن أُجَيِّر[1] لكِ أحدهما.

- ماذا؟..احذر.. لن يكون ذلك مناسباً!.

- ماذا أفعل بكل ذلك المال؟

- خذه سوف تحتاج إليه.. تذكر دائماً أنك أصبحت رجلاً ذا مسؤوليات تجاه أهلك ونفسك، لذلك فإنني أطلب منك عدم تبديد ذلك..أهلك هم أولى بكرمك..تذكر يا بال إن حياة اليابسة غير حياة البحر.. آه كم أتمنى أن أرافقك في رحلتك هذه علّني أخفف عنك بعض معاناتك..كم أتخيل أنك ستكون مثل الحوت في اليابسة، ألا تسمح لي برد جزء من جميلك عليَّ بمرافقتك؟.

- لا تخافي عليَّ، ربما أكون حوتاً، لكنني برمائيٌ أيضاً، كان يقول ذلك وهو يضحك وقد شاركته إيزابيلا ذلك ثم قالت: يجب أن أذهب إلى غرفتي فإن علينا النوم بعد طول السهر في هذه الحفلة.

خرج هاني معها يشَيِّعها بنظره، وهو يقول:

- استودعك الله.

عندما كانت السفينة مارة بجزر الكناري،كرر هاني لإيزابيلا بإلحاح طلب مغادرة السفينة، لتكون برفقة عمها الذي كان يعمل في سلاح الجو

---

١) أحوّل.

الأسباني في هذه المستعمرة ثم أصبح مستشاراً متعاقداً للجيش بها، ولكنها رفضت ذلك قائلة:

- لن أضيع دقيقة تسمح لي بأن أراك..سوف أعود أدراجي على سفينة أخرى من ليبيريا إلى الكناري.. مازال يحدوني الأمل بأن تسمح لي بمرافقتك إلى غيل بن يمين، فإن خاب أملي ربما أواصل الدوران بالقارة السمراء ثانية عَلَ ذلك يعزيني في غيابك، علني أحمل ذكراك في موانئ الشرق التي سأطوف بها. أبرقت لعمها برقية من السفينة ذكرت له بأن السعادة تغمرها في رحلتها هذه وإنها سوف تواصل الدوران بالقارة السمراء لتعود أدراجها إلى إسبانيا من جهة السويس لاحقاً.لقد طلبت منه أن لا يقلق عليها..وأخبرته بأنها تستشعر الأمان أكثر من أي وقت مضى.

كانت درجة حرارة الجو في السفينة تزداد ارتفاعاً كل ما اتجهت من الشمال إلى خط الاستواء، ويكون العكس من ذلك كلما اتجهت من المنطقة المدارية إلى الجنوب حيث يكون الطقس في هذا الجزء من القارة شتاءً ولكن الجوَ كان حينها في ليبيريا مقبولا، رغم أن الرطوبة وزنخها الذي ينتشر في الجو كانا يفسدان المزاج لقد لفحتهم حرارة الجو وغطتهم كالدثار.



العودة إلى ليبيريا

عندما رست قرطاج في ميناء ليبيريا الضخم، أخذت جانباً في عرضه ولم تكن في المواقع المخصصة للخدمات، إذ لم تكن لها مصلحة بأن ترسي على حافة الميناء لتلقى الخدمات.

تدلى من السفينة سلم هو السُلَّم نفسه الذي صعد به هاني قرطاج مع إيزابيلا عندما قضم القِرش رجله، هناك قارب صغير بانتظاره، تأرجحه أمواج البحر يمنة ويسرة حتى إذا ما نزل هاني وإيزابيلا وآخرون من الأصدقاء إلى ذلك القارب الصغير، كان أحدهما هو صديق هاني -آدم - الذي يدير محل السوق الحرة في السفينة قال لهاني مازحاً:

- كان بمقدورك أن تظفر بالفتاة والمكافأة مثل (فيليَس فُوج) في (حول العالم في ثمانين يوماً) فضحكت إيزابيلا رغم أن دموعها كانت تنهمر، وضحك هاني وتبعه الصديقان.

تشكل على حافة السفينة سياج بشري من ركابها وملاحيها، يودعون هاني وربما بعضهم هيّج إيزابيلا بالبكاء متأثرين بالوداع، بعد فصول قصة الحب التي كانت قرطاج مسرحاً لها، أَبىَ الكثير منهم إلا أن يشاهدوا آخر فصول هذه المسرحية، وإن كانت في بادئ الأمر قد أحزنت بعضهم هذه النهاية التي بدت لهم. عندما كان هاني يعانق زميليه

اللذين كانا يصطحبان إيزابيلا ليودعهما، لمس في وجه إيزابيلا شيئاً من الامتعاض وخيبة الأمل وبعد أن ولى الثلاثة أظهرهم عائدين إلى السفينة قال هاني كمن استدرك شيئاً:

- حبيبتي إيزابيلا.. لحظة لو سمحتي. أقبلت إليه في حين بقي الملاحان المرافقان في انتظار إيزابيلا

تقدم إليها خطوتين ثم أردف:

- آنسَتي الحبيبة إيزابيلا.. أراكِ قريباً إن شاء الله.

- اهتم بنفسك من أجلي.. ومن أجل والديك.. يحق لهم اكتحال أعينهم برؤيتك.. أتمنى أن تجدهما بأحسن حال.

قالت ذلك بصوت متهدج وهي تجاهد جهاد الجبابرة في حبس بنات عينيها.

طبع هاني على جبينها قبلة خفيفة ثم كرر ذلك على شفتها فأردف:

- كم هو صعب فراقك يا عزيزتي، لن تفارقي مخيلتي طول رحلتي.

- صبرني الله على فراقك لقد استوليت على كل مشاعري.. لا أدري كيف ستكون حياتي من غيرك.. بلا شك ستأخذني روحاً وتتركني على السفينة جسداً. ان هذه اللحظات أشد مرارة من صراعي مع الحوت.

- صفي لي مشاعرك عزيزتي عند ما تكونين بين أبويك.. حينما ينعكس ضوء القمر على صفحة النهر المحاذي لشرفة منزلك.. أكتبي لي عن كل ذلك.. دوِّني لي يومياتك وابعثيها لي عن طريق البريد.

- إنني أحوج لأن تصف لي مشاعر اللقاء بأبويك بعد طول سني الغياب عنهما.. صور ذلك بقلمك، التقط تلك اللحظات بالكاميرا وابعثها أريد رؤية صورهما. حاول أن تستعيد صداقتك بالفرشاة لترسم لوحات جميلة.

- وهل لي ما يعزيني عن غيابك إلا الكتابة إليكِ أو قراءة ما ستبعثينه؟

قرَّبت إيزابيلا وجهها من هاني، أخذ رأسها بين يديه مسح بإبهاميه بنات عينيها التي انسابت على خديها، ما كان منه إلا أن طبع على جبينها الناصع قبلة، سمعا من على السفينة هتافاً هو أشبه بهتاف جمهور يشاهد عرض مسرحي أعجبه، سحب هاني إيزابيلا بلطف خلف كبينة المراقبة على الرصيف التي كانت بجانبهما ليتوارى عن الأنظار، لعلهما فزعا إلى ذلك لتخفيف وطأة الفراق الذي ينتظرهما.

بعد أن عادت إيزابيلا على عقبها نادي هاني صديقه آدم، منحه مبلغاً من المال قائلاً:

- بعد أن تغادروا المنطقة المدارية سيكون هناك برد قارس لذلك فإنني أريد أن يكون لدى إيزابيلا معطفاً من الفراء..هل لديكم ذلك في المتجر

- أجل لدينا نوعية رائعة من فراء (فيزون) الفرنسي...ولكنني لن أخذ المبلغ..اعتبره هديتي.

لم يكن لهذا اللقاء و هذه القُبلات أثرٌ حسن على إيزابيلا وهاني فحسب بل تجاوزهما ذلك إلى من كانوا على حافة السفينة الذين قابلوا ذلك بالتصفيق والتصفير وكأنهم يعربون عن رضاهم بهذه الخاتمة الدرامية.

عندما عادت إيزابيلا مع زملاء هاني إلى ظهر السفينة اتخذت لها موقعاً بين المحتشدين على حافتها، جعلت تلوح بيدها للوداع، كان هاني يرد أيضاً بالتلويح بيمينه،كان يمسك أصابعه الثلاث الوسطي ويطلق خنصره وإبهامه وقد بادلته إيزابيلا الحركة ذاتها، وتعني هذه الحركة بلغة الصم البُكم (أحبك).

****

بعد أن ودع هاني إيزابيلا وصديقيه استقل سيارة فندق (الشيرتون) التي كانت بانتظاره في الميناء لتقله إلى المدينة ولعله من حسن الطالع أن يكون الفندق قريباً من (العرب استريت) وهو الشارع الذي يمر بالحي العربي، كانت السيارة تجوب الشوارع الرئيسة والفرعية وكان النسيم يتخللها من النافذة ليعبث بلحية هاني التي غدت كثة لعدم سماحه لإيزابيلا بحلقها رغم إلحاحها عليه بذلك.

هناك تغير كبير طرأ على الحي، لم تعد المباني والمقاهي الشعبية القديمة قائمة، حلت مكانها عمارات وأبراج، غير قهوة شعبية ارتادها هاني متفرساً في وجوه روادها، لم يجد وجهاً مألوفاً، وعندما كان يحتسي الشاي بدا له رجلٌ أسود، يحمل سحنة عربية، كان يحمل على ظهره إبريقاً كبيراً مصنوعاً من النيكل اللامع وفي يده جردل مليئ بالماء وعدد من الفناجين المصنوعة من البورسلين الصيني كانت مغمورة بماء الجردل. أشبه ما يكون ذلك القهوجي ببائع عرق السوس في حي السيدة زينب بالقاهرة القديمة، صاح هاني منادياً بالسواحلية (مازيوى) (قهاوا)، بدا ذلك البائع الجوال للقهوة غريباً، كان يضع طاقية زنجبارية على رأسه الذي كان يحركه بشكل أفقي، يمنة ويسرة بحركات إيقاعية متمتماً ببعض الكلمات المبهمة، كمن يلحن أشعاراً، سأله هاني:

- هل أنت عربي؟

تجاهله البائع قائلاً وبالسواحيلية..

- كوب كامل أم نصف؟

- هل تعطيني اسمك لو سمحت؟

- وما يجديك اسمي.. أنهم يدعونني هنا ببائع القهوة وحسب.. من

أنت؟.. كان يقول ذلك وهو متشاغل بالأكواب يحركهن بيمينه بالحركة الإيقاعية ذاتها التي يحرك بها رأسه فتصدر عنها نغمات متناغمة مع حركة رأسه.

- إنني عربي.

- هل تريدها حلوة أم مرة؟

أدرك هاني بأن البائع لم يكن أصنج كما ظن في بادي الأمر، ولكنه لا يريد الإجابة على أسئلته ولا يرغب الإفصاح عن هويته.. لكن هاني ردد سؤاله.

- هل أنت عربي؟

تغيرت ملامح البائع وقال بالعربية:

- اخفض صوتك، يجدر بنا أن نتحدث في مكان آخر.

- هل تزورني في الفندق؟.. فندق شيراتون قريب من (العرب إستريت).

- لم يعد اسمه كذلك، اسمه (أومو إستريت)، يبدو أنك قد غبت عن هذه البلدة طويلاً.. أين كنت غائباً؟

- فعلاً لقد غبت كثيراً.. إنني أعمل في البحر.

- لقد غيَّرت السياسةُ كلّ شيءٍ هنا، وأصبح العرب ملاحَقِين، حتى إنهم يكشفون عن هوياتنا بتعريتنا ليتبينوا إن كنا مختونين، ليحبسونا ثم يرحلونا.. سوف آتيك غداً بعد صلاة الظهر في الفندق.

كان هاني يحمل جوازَ سفر جنوب إفريقيا، أَنجَزَ معاملته بمساعدة صديق قديم أبيض من (بورت إليزابيت) لذلك أيقن أنه لن يكون هدفاً لهذه الملاحقة.

في صبيحة اليوم التالي انتظر هاني ضيفه المرتقب طويلاً في صالة الاستقبال بالفندق وعندما طال به الانتظار، خرج يتجول بجانب الفندق رغم حرارة الجو ورطوبته في الخارج. عاد إلى صالة الاستقبال وقد ابتلت ملابسه. أدرك هاني أنه لا فائدة من إضاعة الوقت لانتظار ضيفه المتردد، لذلك استقل تاكسي الفندق لإيصاله إلى الحي الهندي.

لم يتغير الحي الهندي إلاّ قليلاً ولم يتغير شارع (آررات) الذي يقع منزل السيد سانجييف على ناصيته لقد زادت أصوات نعيق طيور الغراب التي تتنقل على أشجار المُريمرة والدَمس وقد زادت إفرازاتها لتترك بقعاً بيضاء في الشارع وعلى العربات المتوقفة تحت ظل الأشجار، هناك تشققات وحفر في إسفلت الشارع مما يحدث بعض المطبات للعربات المارة في الحي، أشجار جوز الهند التي شهد هاني يوم غرسها في الماضي - من قبل سهر مداس- أصبحن اليوم كبيرات، تطاولن على السياج الحديدي للفلة لينشرن شعورها اللامعة التي تغسلنهن كل صباح بقطرات الندى؛ فتنتشر هذه الشعور في عنان السماء ليعبث بها النسيم في غزل دائم. وقد بدت ثمارها المتكورة اليانعة كأثداء يتفاخرن بها فيما بينهن. قرميد الفلة بدا من الخارج باهتاً، بعد أن سرقت الشمس ألوانه.

قرع هاني جرس الفلة، فتح البستاني الباب وبرز بوجهه الأسمر وشعره الذي أصبح أبيض ليبدو وكأنه (نجتف) لصورة فوتوغرافية قديمة كان يرتدي بدلة رملية اللون ذات بنطال قصير من قماش (الكَاكي) يصل إلى أسفل ركبتيه كان يستطلع الطارق وهو يفرك بين أنامله لفافة التبغ الأسود، لم يتعرف البستاني على هاني بيدَ أن هاني بادره القول:

- سهرا مداس! كان هاني في الماضي يلفظ هذا الاسم بطريقة خاصة ومميزة، بها شيء من الدعابة يفرح بها البستاني المرح وقد كرر حينها لفظته بالطريقة ذاتها.

- سيد هاني!!.. أهلاً وسهلاً.

- كيف حال سهر مداس..؟

شرع الاثنان في ضحك إلى أن التصقا ليشرعا في عناق حار وبدا كل منهما يربت على كتف الآخر.

- لقد عرفتك بصوتك ولم أعرفك بصورتك.. كم هو كثيف شعر لحيتك.. هل تريدني أشدها لك كما يفعل سيدي؟ بدا هاني ضاحكاً مع البستاني، وهو يقول:

- شكراً.. هل ظننتني (سيخياً) مثل سيدي؟

- هجرتنا طويلاً.. كم نحن مشتاقون إليك؟

السيارة (الفيات) في حديقة المنزل مازالت كما هي جديدة رغم تغير لونها إلى الأزرق، لعله تم استبدالها بأخرى جديدة من نفس نوع السيارة الوطنية الهندية التي لم يطرأ تغير على تصميمها منذ استقلال الهند. وقد بدت لهاني نظيفة ومازالت قطرات الماء عليها من أثر حمامها، لعل سهر مداس لتوه أنهى ذلك.

أُدخل هاني إلى غرفة الضيوف الواسعة وأحضر له كوباً به عصير الليمون البارد.

لم تطرأ تغيرات تذكر على الغرفة، الكنب ذو النقشة الهندية الكلاسيكية التي تحمل الأساطير الهندية القديمة، الآلهة الجميلة البيضاء ما زالت تقف على المصطبة تحمل مزمارها وهي تستحم بدخان أعواد

الند (الأقربتـي) التي ما زالت أيضاً تبعث بدخانها الـذي عبـق بالمكـان، وكذا صحن الصبغة الحمراء المباركة لـدى الهنـدوس التـي ينقطـون بهـا جباههم عند صلاتهم وتنتشر قطـع الـشمع الـصغيرة الملتهبـة وأعقـاب أعواد الثقاب المرمية على الصينية، البيـانو الفـاغر فمـه بأسـنانه الـسفلية الناصعة في الزاوية نفسها وكأنـه لم يمـس مـن سـنوات عديـدة، لم تعـد البردات القديمة موجودة، حلت بدلاً عنها ستائر مخمليـة كثيفـة داكنـة، السجاد الكشميري الأحمر مـازال يحتـل كامـل الأرضـية كـما كـان قبـل عقدين من الزمن وكأنه فرش لتوه، لم يصبه صلعٌ أو ثعلبةٌ ولعل الـستائر الداكنة كانت أمينة على حراسة ألوانه من أن تسرقها الشمس. النجفـات البلورية التي بادر البستاني بإشعالها كـما كانـت عليـه، الـساعة الأرضـية الضخمة القرمزية اللون لا زالت تـستند إلى جـدار الغرفـة وتتـدلى منهـا سلسلتها الذهبية الأشـبه (بربطـة عنـق) برلمـاني أفريقـي ليلـة الاقـتراع، مازالت هذه الساعة تصدر رناتها (البقبنية) بانتظام وأمانة.

عند ما كان هاني يرصد التغيرات التـي طـرأت عـلى الغرفـة سـمعَ صَوتِ السيد سانجيف الجهوَري المشروخ كان يتقـدم مـع زوجتـه وقـد زرع ابتسامة حسّنت من تضاريس وجهه وأبدته أكثر بشاشة.

- سيد هاني.. أهلاً بك في منـزلك.

كان يتقدم مع زوجته ذات الحركة السُلحفائية صوب هاني في حـين كان هاني يفعل الشيء نفسه حتى شرعا في عناق حار.

- كم نحن مشتاقون إليك لقد سألنا عنك كثيراً.. أين كنت يا رجل؟

- وكم أنا مشتاق إليكم أيضاً ولكن الأقدار لم تسمح لنا بلقاء إلاّ اليوم.. نحمد الله على ذلك.

- وماذا صنع برجلك ؟

- إنها قصة يطول شرحها.

مازال السيد سانجيف يحتفظ بلمعان وجهه ووجنتيه المتوردتين المشدودتين، ولعل مرد ذلك إلى لحيته السِيخية التي غسلت السنون لونها الأسود التي مازال يحسن شدها إلى عارضيه بخيوط الغزل، أما شنبه الأشبه بقرني جاموس بنغالي فلا زال كذلك، كل ما تغير في لحيته وشاربه هو ضياع لونيهما الأسود. أما زوجته فقد بدا جسمها أكثر اكتنازاً فهي تلفه بسارٍ وردي اللون مطرز الحواشي بالخرز، وبدا شعرها الضارب إلى الحمرة بتأثير الصبغة التي تفضحه منابتُه البيضاء. عند ما رآها هاني تذكر ابنتها (مير) التي كانت أحد أسباب تحوله إلى رجل مائي.

ما إن أطلقت أم (مير) جملة من عبارات الترحيب حتى ذهبت إلى التلفون الضخم نوع (جنرل الكترك) لتدير قرصه لتهاتف ابنتها، لعل الأمر لم يرق هاني الذي كان محرجاً من أن يلتقي (مير) رغم حرصه على رؤيتها وحرصه على زيارة أبيها وتسليمه أمانته، ولكنه كما بدا أدرك: بأنها قد تغيرت ولم تعد مراهقة لتقوم بتلك الأفعال خاصة وأنها أصبحت أُم و ربة بيت.

أعادت أم (مير) سماعة الهاتف إلى موقعها، وهي تقول:

- (مير) هي أكثر من يتذكرك؟

- كيف أصبحت اليوم.. كم لديها من الأطفال.. أرجو أن تكون سعيدة.

- لديها ثلاثة من البنين.

- ستكون سعيدة برؤيتك.. ستحضر نا بعد قليل.

برغم أن هاني لم تكن له في السابق علاقة تذكر بزوجة السيد سانجيف، إلاّ أنها كانت ودودة معه وتحدثه ببشاشة.

كانت عينا هاني تجولان بين حين وآخر في المكان ليصنع صورة متكاملة عن محتوياته، لذلك كان سانجيف يقول:

- هاه.. كيف وجدت منزلنا هل تغيَّر فيه شيء؟

- البردات أصبحت كثيفة وداكنة.. وصورة زواجكما لم تعد في الجدار، ذلك كل ما تغير في الغرفة، رغم أن صورة مير وأسرتها قد أضافت إلى الغرفة جمالا وشباباً.. كان الزوجان يقهقهان..

- كم هي دقيقة ملاحظتك..أجل لقد أصبت..أخذت الصورة لتجديد إطارها..أما هذه البردات لم ترق (مير) التي تحب المنزل أن يكون أكثر نوراً.

كان جرس الباب يرن..

كانت الإضاءة في الغرفة ضعيفة حتى ان أشعة الشمس التي تتسرب إليها تصنع من دخان الند (الأقربتي) -المنبعث من تحت صنم الآلة الشابة- أعمدة معلقة من النور الضعيف. عند دخول (مير) عمدت إلى إشعال بقية الأنوار وأزاحت الستائر الكثيفة عن النوافذ فتنفست الغرفة الصعداء وأشرقت أنوارها وضحك أثاثها.

- مشكلة أهلي أنهم لا يحبون الإضاءة الكافية.. نريد أن نرى هاني وأن يرى هاني منزلنا. قالت ذلك وهي في حركة سريعة متنقلةً بين النوافذ لتفتح برداتها التي كان الجو المندفع من الخارج قد أحالها إلى ما يشبه الأشرعة.

برغم لهفة (مير) على مقابلة هاني إلا أن الخجل كان مسيطراً عليها لذلك فهي تدور في الغرفة متنقلة بين ستائرها في محاولة للسيطرة على خجلها ولتعُد نفسها إعدادا نفسياً جيداً لمقابلته

كان الجميع يضحك..

- كنا لتونا نتحدث عن ذلك.

- أقبلت (مير) إلى هاني بقامتها الممشوقة وجسمها الممتلئ مرسلة خلفها ضفيرتها السوداء السميكة الطويلة التي تصل إلى عجزها لتبدو ملفوفة بساريها الفاتح الخضرة المطرز حواشيه بالترتر، ليكشف عن أسفل ظهرها وبطنها التي بدت وكأنها لم تحمل أكثر مما أكلت، حتى بدت (مير) أشبه بكوز ذرة شامية طري قُطِفَ للتو، غير أنه قد برزت إلى الأمام من هذه العرنوسة حبتان منعمتان يلف أسفلهما قميص هندي تقليدي قاني الخضرة.

بمجرد وصول (مير) عبقت الغرفة برائحة عطرها الباريسي، عند ما قربت من هاني، نهض لاستقبالها والتصقت به وكأنها تريد معانقته غير أنها اكتفت بمصافحته وبقيت على مقربة منه وعلى وجهها ابتسامة عريضة، كانت تداري خجلها، بدت تعبث بأظافرها ونهاية ضفيرتها وقد أحمرَّت وجنتاها من الخجل مما زادها آلقاً وجمالاً حتى بدت وكأنها نجمة من نجمات (بوليوود). لازالت نقطة الصلاة الحمراء بادية على غرتها تحت مفرقها الناصع وكان ساعداها محطان بعدد من الأساور الزجاجية ذات الألوان الزاهية كانت أمها تقول:

- كنا نسأل هاني عن التغيرات التي طرأت على المنزل والغرفة فقال: (كل ما تغير هو البردات الغليظة وصورة زواجنا التي لم تعد على الحائط). قالت ذلك وهي ترسم بسمة كسولة على شفتيها.

- أجل إنه كذلك.

كانت (مير) تحدث هاني وتسأله عن أخباره وتطأطئ رأسها حيناً،

وتدفع بأناملها الرقيقة خصلتي الشعر اللتان تنسدلان من ناصيتها بما يشبه قرني الغزال المعقوفين لتقوم بتعليقهما خلف أذنيها بحركة مفعمة بالأنوثة والدلال.

- آه كم كنت وَفياً يا هاني. وكم افتقدناك كثيراً.. أرجو أن تكون قد هجرت حياة البحر لتستقر هنا؟

- بل سوف أذهب إلى أهلي في اليمن.

- فكرة صائبة سيد هاني.

تدخل السيد سانجيف في الحديث قائلاً:

- سيكون أهلك أكثر اشتياقاً لك.. كم مرة زرتهم بعد مغادرتنا. وفَّرت (مير) على هاني الرد على سؤال أبيها بأن قالت:

- كنا نتمنى أن تكون في ليبيريا ولكن حسبنا أن نراك بعد طول الغياب.. كم نحن مسرورون بوجودك بيننا في هذه اللحظات السعيدة.. كم هي سعيدة ذكريات الماضي..توقفت قليلا وكأنها تنتظر من هاني موافقتها وبعد أن هز هاني رأسه موافقاً أردفت: كل ما كنت تقوله لي كان صحيحاً

- لو أحضرتِ أولادك سأكون سعيداً برؤيتهم...لاشك بأنهم على درجة من الجمال..توقف قليلاً ليزرع بسمة على محياة ثم أردف: مثل أمهم

- شكراً..لقد أتيت على عجل فما كنت لأتأخر لحظة بعد سماعي خبر وجودك هنا.. إنهم في المدرسة.. أما الصغير فقد عهدت به إلى الخادمة.. ستراهم لاحقاً.

- سيد هاني لقد ربطتَ بينها وبين القراءة عقداً وثيقاً..كانت لا تحب القراءة البتَّة.. أما اليوم فهي لا تأت إلينا إلا وبيدها كتاباً..شاباش شاباش..أي كتاب أحضرتيه اليوم..

- اليوم فقط لست بحاجة إلى الكتاب..

- تمنيت أن يطول بي المقام هنا ولكنني على عجل من أمري..سوف ابذل جهدي لأرَ زوجك وأولادك.

- ألا تقيم هنا... سوف ينجز لك سهرا مداس كل ما تحتاج...أين تسكن؟

- في فندق الشيرتون.

- سوف نزورك مع زوجي انه حريص على معرفتك.

- يسعدني ذلك كثيراً..إنني حريص على التشرف بمعرفته.. وأتمنى رؤية الأولاد.

كان هاني يخرج مظروفاً ويسلمه للسيد سانجيف.

- ما هذا ؟

- إنها الأمانة التي كان عليَّ سدادها قبل اليوم.

- أي أمانة؟

- المبلغ الذي استدنته منك.. ألا تتذكره؟

- أرجو أن لا يكون هو الأمر الذي جاء بك اليوم.

- ليس وحده.. فشوقي لكم كان الدافع الأهم.

- (شباش شباش).. سكت هُنيهة ثم أردف :ولكنني لن أستلمه.

- كم كان هذا الدَين يؤرقني، وكم كنت فرحاً بتمكني من سداده.. فلا تحرمني هذه الفرحة.

كان الحديث طول الجلسة يدور باللغة الإنجليزية غير أن السيد سانجيف تعود دائماً أن يكون شكره المقرون بالإعجاب باللغة الهندية، ليقول: (شاباش.. شاباش) ويغلف ذلك بضحكته المجلجلة المشروخة.

- كيف عمر هل مازال يعمل معك؟

- للأسف لم يعد أحد من جماعتك هنا وكأنهم قد غادروا.. ابلغ عمر تحياتي سوف أرسل له هدية معك..

أتجه هاني بصحبة السائق سهر مداس على السيارة (الفيات) الهندية إلى مكاتب طيران (الخطوط البريطانية) وحجز تذكرة سفر إلى عدن

- تبدو السيارة أفضل حالا من السابقة رغم أنها نفس الماركة.

- أجل إنها من نفس الماركة..سيدي لا يحب إلا هذا النوع من السيارات إنها رابع سيارة يشتريها من هذا النوع..إنها صناعه هندية بامتياز من شركة (فيات) الايطالية.

- أجل تبدو جديدة..غير أن لونها يختلف عن السابقة.

في اليوم التالي مر سهر مداس عليه في الفندق لإيصاله إلى (مطار ليبيريا) ليركب على الخطوط البريطانية إلى عدن.

طوال الطريق كان يفكر.. حاول قراءة بعض المجلات الموضوعة في المقعد بجانبه غير أنه ما كاد يقرءا بعض العناوين في الصحف ويحملق في بعض صور المجلات حتى يضعها جانباً لتأخذه دوامة من الأفكار.. هل يفكر في أبويه؟ أم أن إيزابيلا أخذت حيزا من هذا التفكير. بينما كان كذلك يبدو أن أحدي المضيفات قد أشفقت عليه من سرحانه فأتت إليه قائلة:

- هل من خدمة أسديها إليك سيدي؟

- لو تكرمت بإحضار كوب من الشاي..أكن شاكراً... كم من الوقت بقي للوصول إلى عدن.

- قرابة ساعة وعشر دقائق.
- هل محطتك عدن.. إنها مدينة جميلة..هل هي مدينتك؟
- أجل..إنها عاصمة منطقتي التي تبعد عنها كثيراً.

عند وصوله إلى عدن وجد طائرة صغيرة متحركة إلى مطار (الريان) في مدينة المكلا.

كان ينظر من نافذة الطائرة الصغيرة على امتداد نظره، في الأفـق الـلاَّ مُتناهي ويوازن بين البحر وزرقته التي سحرته ويستعرض ذكرياتـه فيـه، واليابسة وذكرياته بها لقد غاب عن بلده خمسة وعشرين عاماً مرت عليـه في حين غفلة من الزمن وكأنها بضع سنين.

استقل من مطار الريان سيارة أجرة لإيصاله إلى مدينة الشحر.



بدر باعلي

تُعد مدينة الشِّحر الساحلية المطلة على البحر العربي (بندرًا) لمنطقة غيل بن يمين، ففيها حي (المحَط) الذي اختط أهل الغيل لهم مساكناً فيه، وإلى هذا الحي كانت قديماً ترد القوافل ويتم تحميل الجمال لتكون انطلاقتها من هذا الحي، لذلك سمُي بالمحَط، كانت ولا زالت منطقة غيل بن يمين مثل غيرها من مناطق حضرموت منطقة طرد سكاني لتُصدِر أفضل ما تنتجه من الموارد البشرية إلى دول عدة، حتى إنه يصعب أن تجد بلداً لا يوجد به حضرميا ولتُصبح هذه المنطقة (أشبه بمصنع طوب يصدر الصالح ويبقي المعطوب) عبر قرون طويلة،مما أثر سلباً على تنمية هذا البلد، ليظل متخلفاً.

مازالت الشحر الميناء البسيط الذي رحل منه الآلاف عبر السنين إلى بلاد الله الواسعة ومنهم السيد الكاف الذي تمكن في مهجره من صناعة ثروة طائلة قدم بها خدمة كبيرة لاقتصاد الدولة السنغافورية حتى أنهم صنعوا له تمثالاً في عاصمتهم تكريماً وتقديراً لخدماته الوطنية، غير أن الرجل أدرك بأن بلده هي الأولى بخدمته من أجل ذلك قرر إنقاذ وطنه الذي تطحنه الحروب القبلية.

حي المحط - أو كما يقال برَّع السِدّة - هو الحضن الدافئ لاستيعاب الراغبين في الهجرة من أهل الغيل خاصة. لتوسط منطقة غيل بن يمين بين ساحل حضرموت وواديها.

امتهن الغيليون نقل البضائع على الجمال. فمنذ القِدم يحلم كل رجل من الغيليين بأن يكون له جملٌ أو أكثر ليمتهن هذه المهنة التي اشتهر بها أهل هذه المنطقة ولعل ذلك يعود إلى حسن تعاملهم وأمانتهم حتى أصبحت مهمة النقل مهنة وطنية تخصص فيها الغيليون لجسارتهم في مقارعة قُطّاع الطرق – قديماً – الذين كانوا ينتشرون في البراري والفيافي قبل وجود النظام والقانون.

في منتصف القرن الماضي عندما شَقّ أبوبكر الكاف الطريق التجارية -التي عرفت باسمه- والتي ربطت ساحل حضرموت بواديه، وفدت إلى الوادي الآلة والسيارات لتصنع حياةً اقتصاديةً أكثر تطوراً. فوصلت الحياة المعاصرة بهذه الطريق إلى جلاميد وأطيان هذه البقعة النائية عن العالم.

بعد إن شقت الطريق حصلت بعض عمليات التقطع من قبل أرباب وسائل النقل التقليدية دفاعاً عن مهنة أجدادهم التي توارثوها، غير أنه بعد أن حُسم الخلاف بين أرباب وسائل النقل القديمة والحديثة أستتب الأمن للأخيرة لأن تأخذ دورها في التنمية. أصبح الغَيليُ يحلم بأن تكون له سيارة شحن (لوري) لممارسة مهنة نقل البضائع بطريقة حديثة لذلك ما زال الغيليون يسيطرون على وسائل النقل الحديثة.

توافرت لدى الخيرين رغبة في إبدال حالة الثارات القبلية – التي أتت على الأخضر واليابس – إلى حياة تنمية واستقرار، كان أبوبكر الكاف يتوق لأن تكون بلده جزء من هذا العالم، فتمكن بتعاون الخيرين وبهمة الأصدقاء من أمثال (W.H. Ingrames) الذي يعمل مستشاراً لبريطانيا العظمى في المنطقة، وبجهود السلطانين الذين أحبتهما رعيتهما

علي بن منصور الكثيري وعلي بن صلاح القعيطي وغيرهم من مثقفي وزعامات أهل المنطقة عَقد صُلحاً تنتهي به جميع الثارات وليشتري هذا الرجل بحُرِّ ماله ما استُعصي حَله من الثارات، لتُصنع بذلك حياة أخرى يسودها الود والاحترام والتعاطف بين أبناء البلد.

****

خلال الحربين العالميتين، كانت الحياة أكثر شظفاً بسبب توقف الملاحة البحرية المدنية وتوقف الحوالات المالية من مهاجر شرق أسيا مثل اندونيسيا وسنغافورة وماليزيا وكذا الهند وغيرها من المهاجر عموما من جهة، وانعدام المواد الغذائية في هذا البلد الذي يعتمد في غالبية محتاجاته على الخارج، مثّل البحرُ حينها مصدراً معيشياً لأهم عناصر الغذاء -البروتين- يضاف إلى ذلك التمر -من غابة النخيل في غيل باوزير -الذي كان متاحاً للجميع، لذلك فقد شهدت تلك الفترة تدفق أكبر أعداد من المهاجرين من منطقة غيل بن يمين إلى مدينة الشحر في إطار هجرة واسعة من داخل حضرموت إلى ساحلها. ولعل هذه تُمثل بداية أو تحفيزاً لهجرة خارجية، فالكثير من هؤلاء ينتظرون في الشحر ريثما تأتي السفينة المناسبة لتنقلهم إلى البلد التي يرغبون الهجرة إليها.

****

كان هاني يجلس في مقهى (عسكر) الواقع شمال بوابة العيدروس، تلك البوابة الشامخة التي ما زال يربض بأسفلها مدفعان عتيقان من

النحاس يرويان للأجيال كيف كان الدفاع عن هذه المدينة التي استبسلت أمام الغزو البرتغالي، وكيف تم دحر الغزاة إلى بلدهم خائبين.

ذهب هاني يتفرس في وجوه رواد المقهى ومن هم حوله، متوسماً ملاقاة أحد أبناء منطقته، يتعرف عليه، أو يعرف شيئاً عن أبويه، أتى النادلُ، طلب منه هاني كوباً من الشاي، بينما كان يحتسي فنجانه جلس إلى جواره رجل عَرف من النادل أن اسمه عوض، كان يرتدي ملابس متوسطة الحال يتحدث بعبارات طائشة غير مسئولة ولكنها ذات معنى، تحمل دلالات سياسية واجتماعية ساخرة. طلب هاني لضيفه كوباً من الشاي، بداء الضيف بادرة الملعقة في فنجانه لإذابة سكره، كان عنيفاً في ذلك وكأنه يدير قرص رحاء أو كمن يقرع جرسا مدرسياً كان الشاي ينسكب من حافة الفنجان الذي بدا يتمايل وكأنه في حفلة للزار. سأله هاني بعض الأسئلة ليتبين هويته وليعرف منه بعض المعلومات علها تهديه إلى بغيته؛ لكن بدا لهاني أن الرجل فقط مبرمج على وضع الإرسال فهو يهذي كثيراً و لا يتفاعل بحديثه مع من حوله، علاوة على أنه لا يُراعي الآداب العامة، لذلك أحجم هاني عن مواصلة الحديث معه.

بعد أن أتم الرجل احتساء فنجانه أو بالأصح بقايا فنجانه، لملَمَ ما انتشر على المقهى من ملابسه، حمل البرسيم الذي وضعه في مدخل المقهى ثم قطع الشارع المؤدي إلى محطة البنزين في الجهة الشرقية المقابلة، عمد إلى ناصية الشارع يستوقف بيده السيارات المتجهة صوب الشمال قائلاً:

شحير.. شحير وهي مدينة صغيرة على طريق مدينة (المكلا) ويلحق ذلك بوابل من لعناته المحرَّفة لفظاً، التي يطلقها بسخاء على كل من يمر به من أرباب (عربات) الأجرة..

بدا أن سائقي السيارات لا يرغبون في أخـذه عـلى سـياراتهم، انتظـر ساعة كاملة دون أن يستجيب له أحدٌ مـنهم، رغـم أخـذهم لغـيره مـن الركاب، فما كان منه إلاّ أن ذهب إلى عامل محطة البنـزين وشـمر إزاره و أحنى ظهره لتبرز مؤخرته، آمراً حامل خرطوم البنـزين بصوت مرتفع :

- (وَلد.. أسكب هنا جالون)!!

فأجابه عامل المحطة الذي كان ظريفاً

- (المكينة) عندك تعمل بالديزل أم بالبترول ؟

- تعمل ب........(يا ولد المنعولة).

انفجر هاني بالضحك وبقي على ذلك الحال ثم نهض ومدَ يده إلى جيبه ليخرج بعض النقود وسلمها للرجل قائلاً:

- خذ لتستأجر لك سيارة. قبض الرجل ذلك ودسه في جيبه دون أن يراه ودون أن يكترث به قائلاً:

- شكراً..ياولد (المنعولة).

عاد هاني إلى موقعه في المقهى وكانت شفتاه ما برحتـا تنفرجـان عـن ابتسامة لم تفارق ثغره بعد مشاهدة الومضة الكوميديـة الغاليـة الـثمن في محطة البنـزين.

كانت ملفات الذاكرة لدى هاني تعيد نفسها إلى مُخيلته رغم إنه يخـال نفسه أشبه بأحد رجال أهل الكهف وهو يرى هذه المدينة بعد طول غيابه عنها، بينما كان كذلك وفـدت مجموعـة مـن الـشباب إلى المقهـى تـوحي ملابسهم بأنهم من أهل منطقته. ابتدرهم:

- من أين الإخوان؟

فقال أحدهم :

- من الغيل ؟

قفز قلب هاني من صدره:

- غيل بن يمين!!.. أهلاً بشباب الغيل تفضلوا.

طلب لهم الشاي، لم يتحْ لهم فرصة ليسألوه من أين ومن يكون، بل ابتدرهم قائلاً:

- هل تعرفون سعيد مبارك باعلي ؟

- تقصد سعيد أبو الحوت؟

- أبو الحوت؟ قالها هاني باندهاش وأردف.

- لا بل أبو هاني.

- أجل إن ابنه هاني، هذا قد أغوته عروسة البحر فتزوجها وهام في بحور حبها، وأنجب منها أولاداً على شاكلتها يعيشون في البحر.. لهم خياشيم مثل الأسماك يتنفسون بها تحت الماء.. لقد أنسَته هذه الزيجة أهله وبلده.

- آه.. ليتني أكن مثله. قالها أحد الشباب ويدعى سعدان القوطى.

قال له آخر :

- أتريد أن تكونَ حوتاً؟

- أجل لقد عملت في الماضي بصيانة القوارب وكل يوم أذهب إلى البحر قبل الناس عليَّ أسعدُ بمقابلة عروسةَ بحرٍ، أهيم بغرامها ولو حتى في أعماق بحر (فرتك).. كما فعل الرجل الحوت.. كان الجميع يضحكون.

صاح فيهم أحدهم ويدعى بدراً قائلاً:

- دعونا من المزاح حتى نتعرَّف على الضيف الكريم، ثم التفت إلى هاني قائلاً: ومن يكون أخونا العزيز.. هل تعرف سعيد باعلي هذا؟

- نعم إنه أبي!

- وهل أنت هاني باعلي؟.. ابن القاضي سعيد.. إذ لا يوجد لعمي سعيد إلاّ ابناً واحداً.

- أجل إنني هاني سعيد باعلي..ابن القاضي سعيد.

- ومن صنع برجلك هكذا ؟

- إنه الحوت!!

قال سعدان:

- ولماذا تزاحمه في زوجته؟..ثم أردف يكفي أن أكون سائقاً برياً.. لم أعد أريد عروسة البحر.

قهقه الجميع من كلامه، عدا بدرا الذي احتدَّ في لهجته قائلاً :

- دعونا من المزاح وإلاّ سيكون لكم شأن آخر.

بدا هاني متلهفاً إلى سماع خبر أبويه، فقال :

- وهل يعيش أبوا هاني هذا؟

- وماذا يعنيك من أمرهما.. أتكون بحق هاني باعلي ؟ إنك كثير الشبه بالعم سعيد باعلي رحمه الله.

- وهل مات والدي ؟

قالها وقد كادت العبرات تخنقه حتى أشفق عليه بدر. فوضع ذراعه على كتفيه وساعده للنهوض ليتنحيا جانباً تحاشيا للجمهرة والجلبة.

- إذن فأنت ابن عمي وصديق صباي و أخي الذي افتقدته طويلاً، كان يقول ذلك بعد أن التقت عيناهما وبعد أن تفرس كل منهما في الآخر، شرعا في عناق حار دام طويلاً.

- ولكن كيف يكون حال أمي؟ قالها هاني وهو مازال في تأثره.

- هي بخير وتنتظرك كل يوم، ويزعجها أن تسمع حكاية (الرجل الحوت) هذه التي جاء بها (محروق) من ليبيريا، فهي لم تستوعبها ولم تؤمن بها مطلقاً، أما بصرها فقد كُف حزناً عليك وعلى أبيك.

كان هاني يصغي باهتمام بالغ إلى بدر في حديثه طول الطريق المؤدية إلى شمال شرق المدينة حيث توجد هناك سيارة شحن في مزرعة بـ(منطقة دفيقة) قد استكملت حمولتها وتستعد للرحيل.

بدر شاب في الخامسة والثلاثين من عمره يعمل مدرساً في مدرسة غيل بن يمين الابتدائية، معتدل القامة قوي البنية أسمر البشرة أجعد الشعر يفرُقه من وسطه ويرسله على كتفيه، وكأنه أحد أفراد جيش البادية، يميل إلى المزاح والنكتة رغم ميله بعض الشيء إلى القسوة، يتمتع بقدر من الثقافة، متمكن من عمله ويحبه كثيراً، كان يحنو على أم هاني ويواسيها بالخصوص بعد وفاة زوجها وبعد أن أصبحت ضريرة.

****

كانت المواصلات المؤدية إلى منطقة الغيل صعبة، وقد تعذر على هاني وابن عمه الصعود إلى داخل مقصورة سيارة الشحن هذه، لوجود امرأتين وطفلة من أهل المنطقة كنَّ عائدات إلى غيل بن يمين بعد أن وفدنَ إلى المدينة لإجراء عملية (التنقيش) أو (الكتركت) للسيدة الأكبر سناً، كانت هذه السيدة كبيرة السن تضع على عينها قطعة من الشاش الطبي الأبيض، أما الشابة فلها عينان سوداوان واسعتان ذات أهداب

طويلة قلقة أشبه بأجنحة الفراشة، ولها بؤبأن سوداوان متوحشان تطيش بهما وتجول في كل من يمر بها، ولعل هاني وبدر كانا فريستين لهذه النظرات.

لم يجد هاني صعوبة في الصعود إلى المقطورة التي ملئت بالمؤن الغذائية، و(الوزِف) وهو سمك السلمون الصغير المجفف الذي تُطعَم به الإبل، فلا خيار لهما إلاّ أن يكونا على سنام هذه الحمولة.

بدت الرحلة مزعجة كانت السيارة خلال سيرها أشبه بأرجوحة، كانا طول الطريق يمسكان على أعصابهما ويتشبثان بأكياس حمولة الوزِف.

أكياس سمك السلمون المجفف الذي يمثل جُل هذه الحمولة رائحتها غير لطيفة غير أنه عندما تكون السيارة في مشيها فإن الرياح تشتت بها وتبعدها عن مقطورة السيارة الخشبية المفتوحة.

كانت السيارة تنهب الأرض نهباً في طرق مُعَبَّدة تسلكها بمحاذاة الشريط الساحلي، غير أنها عندما اتجهت صوب الشمال لم تكن الطرق كذلك بل كانت مسالكها ترابية وعرة.

بدأت السيارة رحلة الصعود والهبوط بين المنحدرات والمرتفعات الجبلية كانت تترك خلفها ذيلاً من الغبار وكأنها تعمل بقوة نفاثة، يطول ويقصر ذلك الذيل بمقدار سرعتها ليصل طوله إلى عشرات الأقدام.

كان هاني وبدر في المقطورة يتجاذبان أطراف الحديث، يحاولان استعادة واستذكار الذكريات القديمة، كانا يبذلان جهداً في استدرارها و استحضارها وكأنهما يمارسان طقس (جَالَان كُون) البوذي الخاص بتحضير الأرواح، كان بدر يحاول نقر أيقونات ذاكرة هاني القديمة لكن دون فائدة تذكر.

كانت الرياح تـزداد بقدر ارتفاع سرعـة الـسيارة وقـد حالـت هـذه الرياح دون أن يسمع كل من الرفيقين لحديث الآخر، لـذلك عمـد بـدر إلى تغطية رأسيهما لحمايتهما من أزيز هـذه الريـاح التـي تـسرق أصـواتهما وتبعثر بها في تلك القفار، ليتمكنا مـن الاسـتماع إلى بعـضهما. كـان بـدر تتشبث يمينه بأكياس الحمولة حتى لا تقع عليهما في حـين تمـسك يـسراه بالشّال الصوفي لحمايتهما من الرياح حتى أن هاني قال ضاحكاً:

– لو كانت الشمس في رابعة النهار قوية لتراهنت مع هذه الريح العنيدة.

– كيف ذلك؟

– كل ما في الأمر أنني أتذكر أسطورة مراهنة الـشمس مـع الـريح عـلى تجريد رجل من شاله.. فاشتدت الريح بغية نزع الشال عن الرجل، غـير أنها لم تتمكن مـن ذلـك لتـشبث الرجـل بـأطراف شـاله مثلنـا. فـزادت الشّمس من حرارتها.. ليزيح الرجل شـاله مـن تلقـاء نفـسه..فكـسبت الشمس الرهان على الريح.

قال بدر ضاحكاً

– ألا تقوم الآن بذلك الرهان ؟

– ولكنها لن تكسبه.

كل ما اتجهت السيارة إلى الشمال في هذه المرتفعـات كـل مـا ازدادت سرعة الريح الباردة. قُرص الشمس الواهي الذي يزداد حجمه في الأفـق الغربي بدا في البعيد كصفار بيضة أفـسدتها خماسـين الخريـف، فحرارتـه تقل تدريجياً أمام طغيان الرياح و برودتها المزعجة، فما كان مـن الـرفيقين إلاّ أن صنعا لنفسيهما مترساً من أكياس الوزِف.

كانت عينا الـشابة تتـسللان إلى المـرآة الأماميـة العاكـسة في مقدمـة السيارة ليلتقيا هناك خلسةً بعيني السائق، لعلهما كانا يـستمتعان بـذلك،

في البداية ربما استطاع السائق إلى حدٍ ما أن يوزع نظره بين الطريق والمرآة، رغم ان ذلك قد أثّر على حركة السيارة وحركة محركها. غير أنه عندما جَنَّ الليلُ ازدادت المنعطفات والتعرجات في الطريق، أصبح المتراس الذي صنعاه بدر وهاني كثيراً ما يسقط عليهما ليقوم بدر بإعادة إصلاحه ثانيةً، إلاّ أن الأمر الأكثر إزعاجاً من ذلك هو أن وتيرة قيادة السيارة لم تعد كما كانت عليه، كما أن استخدام السائق لكابح السرعة كان سيئاً. كانت السيارة تحيد بين حين وآخر عن الجادة، في حين يصيح بدر بأعلى صوته يطلب من السائق التوقف، حتى إنه يضرب بقبضته على مقصورة السيارة الحديدية، إلاّ أن السائق لم يُجب، ولا يبدو عليه أنه قد سمع كل ذلك، عمد بدر إلى التسلل من مكانه ليتسوَّر جدار المقطورة الخشبي وليقف بجسمه عمودياً على الدِكة الحديدية المعلقة ليصير بمحاذاة السائق من خارج الباب، كان بدر ينظر في داخل المقطورة وينادي على السائق إلاّ أن السائق بدا لبدر -تحت ضوء القمر الخافت- منشغلاً بأمر آخر!.

كانت وضعية الركاب في المقصورة الأمامية على النحو التالي: السيدة العجوز كانت بجانب (باب الراكب) ثم تليها الطفلة الصغيرة وقد كانتا تغطان في سبات عميق، ثم تأتي بعد ذلك المرأة الشابة التي كانت عصا متحكم السرعة (الإسبيد) بين فخذيها وقد كان السائق لا يحرك هذه العصاء بحسب ما تقتضيه عملية السير في هذه القفار بل يحركها بحسب ما تقتضيه رغباته. وجد بدر أن الأمر محرج لذلك انسحب قليلاً إلى الخلف وعمد إلى أخذ مسدّسه، والذي كان مربوطاً في جرابٍ جلدي على خاصرته اليسرى، وأطلق منه طلقة واحدة، عندها فقط أوقف السائق سيارته. بدا يفرك عينيه لعله أراد أن يوهم بدراً بأن النوم كان

يداعب جفنيه. بدت فرائصه ترتعد من الخوف وطفق يردد.

- هل تقود السيارة بدلاً عني؟.. لا أستطيع مواصلة القيادة.

- لا مانع.. بدلاً من أن نتعرض لحادث.. لعل أمراً آخر شغلك عن القيادة.. سيكون حسابك لاحقاً.

كانت أصوات الجنادب والضفادع الفرحة بالمطر الذي نزل بساحتها، أشبه بأصوات مختلطة في سوق الأسماك.

صعد السائق إلى المقطورة ليكون إلى جانب هاني في حين أعاد بدرٌ الشابة لتكون بمحاذاة الباب الآخر للمقطورة وبدأ عملية القيادة للسيارة.

تنَفَس محرك السيارة الصعداء مما لحق به فقد كانت حركة السيارة أكثر اتزاناً. ومحركها أقل أنيناً.

استشعر الركاب بشيء من الرطوبة تتسلل إلى أجسادهم، كان ذلك من حقول الذرة التي تمتد على جانبي الطريق لتنعشهم برائحتها الزكية. بدأت السيارة تنحدر بهم إلى وسط وادي (بظي) الذي كانت بقايا السيل بادية على بعض سواقيه ومرَاهِقَه الندية التي تحفها أشجار الشِثنان والخَنَور ذات الرائحة العطرية عندها لاحت للمجموعة أضواء منطقة (العليب) التي تحتل مرتفعاً بمحاذاة الوادي من الجهة الشمالية.

توقفت السيارة بجانب مركز للشرطة عتيق البنيان، يتكون من دورين أهملت صيانته من سنوات طويلة ونسيت جدرانه الطلاء. ترجل بدر من السيارة لغرض التسجيل. كان حينها أحد شباب آل العمودي - الذي عمل مدرساً وزامل بدراً في هذه المهنة -متواجداً بجانب مركز الشرطة.

تجاذب مع بدر أطراف الحديث وعلم منه أن الرجل الحوت في السيارة.

- لا يمكنكما مواصلة السفر هذه الليلة.. هناك سيول في الطريق أنصحكما بالمبيت في منزلي ومواصلة رحلتكم صباح الغد.

- سأستشير هاني.

عاد بدر يحمل الموافقة بالمبيت.

أصرَ السائق على مواصلة طريقه رغم إلحاح العمودي عليه بالمبيت!..أكرم الشيخ العمودي وفادة ضيفيه.

في صبيحة اليوم التالي قام المضيف بتدبير سيارة جديدة من نوع (لاندروفر)قصيرة (حبة إلاَّ ربع) كانت أكثر راحة من السيارة (اليزيزو). بدت الطريق أمامهم حلزونية أشبه بلُعبة (السُلم والثعبان) لكثرة تعرجاتها. فهي تمر في نقطة وتعود بعد حين إلى ما يقارب تلك النقطة، بسبب عدم توافر الجسور في هذه القفار ذات الأودية المتعددة والمتعرجة.

مرت سيارتهم بوادي (زبون) كان وادياً أخضر تكثر فيه أشجار (الصُّر) و (العِضاَتُ) كثيرة الخضرة.

عندما كانوا في أسفل الوادي مروا بمطعم على يمين الطريق وإلى جانبه غرف للمبيت والراحة، بدت سيارة الأمس اللوري على طريقهم، توقفت سيارتهم بجانبها، ترجلوا منها ودخل بدر النَزل الصغير وأخذ بيد السيدة المسنة بعد أن طلبت مرافقته في الرحلة،كانت متبرمة من السائق، وما أن نهضت حتى لحقت بها الطفلة ثم الشابة التي كانت خجولة ومطأطئة الرأس لم تنبس ببنت شفة طوال الطريق.

عندما كانت سيارتهم تهوي بهم نحو حرة خضراء، لاحت لهم آطَام غيل بن يمين المؤلف غالبيتها من الطين والكشح و الحجارة.



سطوة الذكريات البكرية

ما أن وصلت السيارة النهر حتى توقفت عند ضفته الغربية ولاجتياز النهر دون أن يؤثر ماؤه عليها لا بد من أزلة حزام مروحة تبريد محركها حتى لا تنضح الماء على قطعة (البلاتين) فينطفئ المحرك، ذلك ما قاله السائق. قال له بدر: وقد حمل وجهه تعبير الرجاء:

- لا داعي لكل ذلك... المسافة إلى المنزل قريبة.. نستطيع المشي.

ارتسمت على وجه السائق بسمة خفيفة وهو يقول:

- لا عليك.. أنها عملية في غاية البساطة.. ولابد لي في كل الأحوال اجتياز النهر.

شرعت السيارة في اجتيازها للنهر من مكان انبساطه على الجسر الأرضي، كان الماء يصل إلى أكثر من منتصف إطاراتها وبدت دواليبها وهي تقوم بهذه المهمة أشبه بالنّاعور، كانت نتوآت نقشاتها تحمل الماء معها، لذلك بدت هذه الدواليب لامعة ونظيفة، وعند ما كانت تصعد الربوة بدت ترسم بماء النهر - خلفها- على الأرض خطوطاً متوازية تتلاشى كلما قطعت شوطاً في صعودها.

توقفت السيارة في ضفة النهر الشرقية فترجلا منها هاني وبدر، عندها قال هاني لبدر:

- أذهب إلى أمي وتلطف في إخبارها بقدومي.. حتى لا تحدث لها انفعالات غير حميدة.

جلس هاني على الربوة تحت ظل دوحة عتيقة وارفة الظل، كانت تهب عليه من جهة الجنوب نسمات (العِليا) المنعشة، كان يرنو إلى منزله الذي يبعد عنه بقرابة مائة وخمسين ياردة.

بدا منزل هاني كما تركه، منزلاً صغيراً يقبع على ضفة النهر الشرقية، تحيط به أشجار النخيل من الجاهين شبه هلاليين، تحفُ بالمنزل كما تُحف العينُ بأهدابها. المنزل كغالبية منازل البلد مبني من الطين المعجون بكناسة بيادر القمح ومطلي بالنورة، وعلى رأسه في زواياه حراب تقليدية مثل بقية المنازل العتيقة، بدا المنزل كمبخرة من حجر الجير ناصعة اللون على سجادة مخملية خضراء، كانت العصافير والقماري تُغرِّد على أشجار النخيل المحيطة، وكأنها تعزف معزوفة الفرح.

ترامى إلى هاني منظر النهر رهواً، كان يسمع خرير ماءه وارتطامه في الخلف بـ(غدير الصفاة) في الجهة الشمالية.

كان المارة من أهل المنطقة ركباناً ومشاةً يمرون عليه ويحيونه غير أنه لا يرد على تحيتهم، كانت تمر على تقاطيع وجهه سحبٌ وأطيافٌ من الانفعالات وهو يجلس على حجرة تحت الشجرة ويضع ذقنه على قبضة يده سارح الفكر لا يُبدي حراكاً ولا ينبس ببنت شفة، حتى بد كتمثال (الرجل المفكر)، كل ما كان يتحرك فيه هو مقلتاه اللتان تجولان في المنظر من حوله بين النهر والمنزل والنخلات الباسقات التي تصدح من سعفاتها (فاختة النخيل) بصوتها الذي جمع بين الحزن والبهجة. كان

شَعر يديه ينتصب عند ما يقشعر سائر جلده وكأنه يصلي بخشوع على بشرته، بدت بنات عينيه تنساب بغزارة على خديه حتى ابتلَّت لحيته الكثة. لقد جفت شفتاه وأبيض لونها وكأنه يعاني من غصة وتحشرجت الكلمات في حلقه بعد أن جفَّ ماؤه.

كان بدر يلوح له بشاله الصوفي من الركن الشرقي لمنزله. و يناديه بصوت مرتفع إلا أن هاني بدا لم يسمعه ولم يعره بالاً.

جاء بدر مسرعاً إليه. وقف قبالته يناديه فلم يجبه وكأنه قد أصابته غيبوبة.. أمسك بمعصمه منادياً عليه. حاول مساعدته في النهوض. انتفض هاني وبدا محملقاً في وجه بدر كمن أفاق من غيبوبة. تنحنح ليصفي حنجرته ثم قال بصوت خافت متهدج ومتكسر:

- هل عرفت أمي بمقدمي؟

- إنها تنتظرك..هل أصابك مكروه..قال بدر ذلك وقد ارتسم على ملامح وجهه الاندهاش.

- إنها سطوة الذكريات القديمة يا بدر.. كانت نبرات صوته متقطعة وكأنها صادرة من شيخ طاعن، توقف قليلا ثم أردف بعد أن تحسنت نبرته:

- كل الذكريات التي سقطت من ذاكرتي تتدفق الآن إلى مخيلتي كسيل عرمرم.. لعل رؤيتي للمنزل كانت المحفز لعودة تلك الذكريات البكرية التي تداهمني... بمجرد رؤيتي للمنزل عادت إليَّ تلك الذكريات بكل تفاصيلها المتناهية... فعند ما شممتُ رائحة النهر وما يحمله ماؤهُ من رائحة سمك العنبور التي تمتزج برائحة الطحالب وأشجار العثرب التي تحف بضفتيه.. وعند ما سمعت خرير ماءه وارتطامها بالحَجَرة الكبيرة

التي ما زالت تقف شامخة في غدير الصفاة.. وعند سماعي أصوات العصافير و(فاخِتة النخيل) تُغرد من النخيل. كل تلك المؤثرات من المشاهد والروائح والأصوات والأحاسيس جعلت الذاكرة القديمة التي افتقدتها تتوافد إلى مخيلتي توافد الطوفان إلى المنحدرات... إنني أشعر بشي من الصداع..كان يضع يديه على رأسه وكأنه يريد أن يؤذن للصلاة.

- لعل ذلك ناتجٌ عن الحَيِّز الذي أخذته تلك الذكريات في مخيلتك..سوف نستدعى طبيب المنطقة.

- لقد ارتبطت تلك العروة المفقودة في مسلسل حياتي وعادت بكل تجلياتها، لتستعيد ملفاتها بكل قوة وسطوة وثقة... لا شك بأن منزلنا كان بؤرة لهذه الذكريات..لعله كان بمثابة كلمة سرها التي عبثتُ فيها في الماضي بُغية حذف بعض ذاكرتي التي كرهتها، كان منزلنا هو الضابط لإيقاعات تلك الذكريات... أصبحت ذاكرتي تستدعي كل الصور و الأحداث بشكل (با نو رامي) وكأنني أعيش تلك الأحداث... تصور أنني أتذكر والدي.. كأني بِهِ أمام عيني وهو يصنع لي الصواريخ الورقية ويقذف بها في ذلك المكان في ظل المنزل..أتذكر يا بدر عند ما سقطت أسنانك اللَّبنية..كنت تقول لي بأنك سترميها في الشمس لتستبدلك بها سن غزال..فقلت لكَ بأن أبي زجرني عند ما قلت ذلك قائلاً: بأن هذا من أساطير الديانات القيمة... هل تتذكر ذلك؟

- كيف لي أن أتذكر ذلك؟

- أتذكر يا بدر عند ما كنت صغيراً وقد ذهبت بك شقاوتك إلى خلايا النحل بعد أن تضمخت بعطر أمك ليغطي النحل كل جسدك.. لم ينقذك من ورطتك تلك إلا أُمك..لقد ضحَّت من أجلك لتتحمل كل

لسعات النحل عوضاً عنـك، لقـد اقتطعـت جريـدة جافـة مـن النخلـة وأشعلت فيها وأبعدت النحل بدخانها..هل تتذكر ذلك؟

- لا أتذكره ولكن أمي أخبرتني تفاصيل ذلك!

- أتذكر يا بدر عند ما كنا نغطس في النهر وبينما كنتُ أقـوم بـالقفز منـه سحب الماءُ سروالي من وسطي لأنه لم يكن مربوطاً بـما يكفـي فعمـدت أنت حينها إلى وضع حِفنَـك[1] عـلى فيـكَ لتخفـي ضـحكتك الـساخرة، وكان الأطفال من حولي يصيحون واستمروا لأيام في تعييري بذلك.

- كل ذلك لا أتذكره.

- أتذكر يا بدر ونحن في السنة الثانية عند ما عاقبنا المـدرس بكتابـة تُمليء الكراس فذهبنا معاً إلى مريم لتُمليء كراريسنا بكتابها فعرف ذلك المدرس وغضب علينا..وطفق يحكي لنا قصة عجيبة معـبرة..قـصة رجـل وجـد فراشة صغيرة تحاول الخروج من شرنقتها وقد حفرت فيها حفرة صـغيرة إلا أنها تعبت وتوقفت عن ذلك لتستريح لمواصلة عملها، غير أن الرجـل فتح الشرنقة فخرجت الفراشة إلا أنهـا لم تـتمكن مـن الطـيران. فـدفعت الفراشة الصغيرة ثمن ذلك ان جفَّت وماتت من حرارة الشمس.

- ما زالت مريم تذكرني بذلك وتعيرني بـه...هـل هـذه ذاكـرة، أم أنهـا شيء آخر؟

- بل هي الذاكرة العتيقة التي عادت بسطوتها بـأثرٍ رجعـي...لا أظننـي كنت أتذكر كل ذلك قبل اليوم.

- إنني أتذكر تلك الأوقات التي كانت فيها أصـطاد سـمك (العنبـور) اللذيذ من هذا النهر، كانـت أمـي تمتـدحني لأجلـب إليهـا المزيـد منـه،

---

١) كفَّيك

وأتذكر إنني أمسكت بسمكة كبيرة وجعلت ترقص بين يديَّ إلى أن تفلتت من قبضتي الصغيرة في الماء، لتظفر بحريتها.. أتذكر عندما رسمتُ -على الورق- الغدير والنخيل الذي يحف بمنزلنا، وأتذكر حين قام والدي حينها زهواً بصناعة أطار لها ثم قام من فوره بتعليقها على الجدار في غرفة الاستقبال.

- ظلت تلك الصورة معلقة إلى عهد قريب.

بدت على وجه هاني الحسرة والمرارة عند ما ذكر والده فتحدرت على خديه دمعتان ساختنان مسحهما بكم قميصه.. لذلك أردف بدر كمن استدرك شيئاً:

- هناك آية قرآنية على باب منزلكم من الخلف كتبتها يوم مغادرتك...كانت والدتك تقرأها حتى كف بصرها..ألا تتذكرها؟

- أجل تذكرتها..(إن الذي فرضَ عليكَ القرآن لرادُّك إلى معاد)

***

في المنزل كان عناقاً حاراً بين الأم وابنها اللذين افترقا قرابة ربع قرن انقطعت خلاله الأخبار، لم يكن لدى الأم أدنى شك في حقيقة أن ابنها لا يزال يُرزق، رغم عدم رؤيتها له من أمدٍ بعيد، ورغم ما أشاعه محروق عند عودته من ليبيريا من أن هاني ارتبط بعروسة البحر وهام معها بل أن محروقاً ترك لخياله العنان في صناعة الأكاذيب في محاولة لإقناع أهل البلدة وأهل هاني خصوصاً بعدم مسؤوليته عن ضياع ابنهم الذي يُنسِب إليه صفات وسلوكيات غير حميدة، ولعله كان يعتقد في قرارة نفسه أن هاني قد مات من أمد بعيد.

للسيدة رحمة حواس أخرى فهي تلمس وتسمع وتشم، لذلك تركت العنان لكل هذه الحواس أن ترتع في هذا المشهد، أما عيناها فقد

كانتا نافذتين مفتوحتين تنتظر على الدوام ابنها الغائب رغم طول البَين حتى جفَّ ماؤهما ولكن حواسها الأخرى تدرك ما لم تدركه عيناها لذلك كانت تقول وهي تعانق ابنها:

- إنها رائحة هاني عندما كان صغيراً..

فأجابها بدر ضاحكاً:

- تأكدي يا خالة بأن لا يكون شخص آخر ينتحل شخصية ابنك.

تركت أم هاني العنان ليديها المعروقتين تتحسسه بمتعة فائقة، علها تعوض ما فاتها في سنيٍّ النوى الخوالي، أو لعلها تتشبث بحقيقة تخاف عليها من الضياع، حتى إذا ما كادت تقع يداها على رجله الخشبية، أبعدها هاني بلطف، فرفعتها لتقع على لحيته الكثة فقالت:

- إنها أشبه بلحية أبيك عليه الرحمة، كما أن صوتك هو نفس صوت أبيك، الحمد لله الذي جمع لي هاني وأبيه هذا اليوم، كانت تقول ذلك وقد انهمرت الدموع من عينيها، لتجرف على خديها الكحل الذي وضعته على عجل على جفنيها لاستقبال ابنها.

- ليتني أستطيع أن أراك..لقد أصبحت رجلاً!

- لا تحزني يا أمي سوف تنظرين..لديَّ المال الوفير.. سوف أعالجك مهما كلف ذلك.. وسوف ترينني وترين أولادي إنشاء الله..

- إذاً فأين أولادك؟

- ليس بعد يا أمي.. عندما تبصرين الدنيا ستنظرين لي أجمل فتياتها لتكون زوجة لي.. وتكون شبها بكِ.. سوف أصطحبك إلى عدن لأعالجك هناك وبعد ذلك نتفرغ لأمر الخَطبة والزواج.



مريم با علي

مريم أرملة ماتَ زوجها بعد أن قضى معها ست سنوات في سعادة وحبور رغم أنها لم تنجب منه أحداً، لقد بقيت سنوات دون زواج، تبدو مريم معتدلة القامة ممتلئة الجسم صافية البشرة ما زالت تتمتع بنضارة الشباب رغم بلوغها الثانية والأربعين، فهي تبدو أصغر من سنها، لذلك مازال يتقدم لخطبتها الكثير، وقد اشتهرت بقصيدة ترددها البلدة كانت ترد فيها على شاعر تقدم لخطبتها بقصيدة خلال (الشرح)، تخبره في مساجلتها الشعرية عدم رغبتها في الزواج بشكل مطلق أيّاً كان ذلك العريس، تنم أبيات القصيدة عن الإباء والعفة والرضا، فهي تعزو سعادتها وصحتها وشبابها الذي لم يدركه مشيبها، المحسودة عليه من قريناتها، إلى أنها بلا زوج وبلا أطفال. وقد سألها أيضاً ذات يوم أحد أعيان البلدة الزواج فردَّت عليه بخفة روحها المعتادة وبصوتها العذب وبكلمات جميلة على نسق أغنية عامية معبرة كانت شائعة حينها تقول فيها:

قالت الأرملة ياخير راحة معية

يومَني سَاليه ما حد ينِك عليَّه

من عِيال الهوىَ غسّلت قلبي بصَابون

حطني في عدن و إلاّ في الشيخ عثمان

الن

كانت السيدة مريم هي الشخص الوحيد الذي يعتني برحمة (أم هاني) على الدوام فهي تنظف منزلها وتأخذ بيدها وتواسيها وتنشد لها الأناشيد التي تبعث فيها الأمل والصبر وقوة الإيمان، وتؤمها في الصلاة.

ولعل من أهم أسباب إحجامها عن الزواج كما يبدو هو عدم رغبتها في التخلي عن خالتها التي ليس لها مُعين سواها.

تعيش مريم وخالتها على تربية الأغنام التي تضعها في حَوشٍ مبني من الطين والتبن، أُلحِق بمنزل خالتها لهذا الغرض، وتعيل نفسها مع خالتها من هذه الشويهات، إضافة إلى ما تنسجانه من سعف النخيل من الحصير و(المحامل) علاوة على راتب تقاعدي ضئيل للقاضي سعيد زوج رحمة-هو حصيلة خدمة في الجهاز القضائي لم تدم طويلاً -تتحصل عليه شهرياً بعد أن تركها زوجها إلى الرفيق الأعلى و بعد أن تركها ابنها ليقترن بعروسة البحر التي أنسَته أهله ووطنه كما أشاع ذلك قريبه محروق الذي عاد من ليبيريا إلى البلدة من ثمانية عشرة عاماً، لعله بتلك الشائعة يريد أن يُبرئ ساحته من سلوكياته المشينة تجاه قريبه هاني، ما جعل هاني حينها يضيق ذرعاً بليبيريا حتى هجرها إلى البحر، ليُغرق فيه أحزانه و أسراره

تعرَّف طبيب البلدة على مريم عندما قدمت أول مرة إلى عيادته، في باديْ الأمر اعتقد أنها من خارج البلدة. بسبب أنها لم تكن حينها متحَزِمة بـ(الحنيشة) -وهي حزام فضي تلف به نساء المنطقة خواصرهن -كانت تستعيض عن الحنيشة بربط حبل على خاصرتها اقتطعته من جريد النخيل، وهو ما لم يكن معهوداً في المنطقة. سألها الطبيب:

- أين كراسة العلاج؟.

- لا أنشُد علاجاً.
- إذاً لماذا أتيتِ إلى العيادة؟.

كانت العبرات تخنقها وهي تقول ببراءة الأطفال.

- أتيت لتُحضِر لي مصاغي الذي سُرق من منـزلنا.
- وما علاقتي بمصاغك ؟

لعل الطبيب أدرك أن رده كان قاسياً بعد أن لحظ البراءة مرسومة على محياها، وأدرك المقصد من قدومها. ولما كان الأمر محرجاً، أراد تعزيتها بكلمات. بحث في قاموس مجاملاته عن العبارة الأفضل، ووجد أن أنسبها: (ستجدينه إن شاء الله قُدامك) لعله كان يقصد بذلك أن الله سيعوضها في الآخرة.

خرجت المسكينة مهرولة من عيادته وهي تمطره بعبارات الشكر والثناء والدعوات الصّالحة، وكأنه أعاد إليها مصاغها.

بعد ظهر نفس اليوم زارته هذه السيدة في سكنه،كانت محملة بالهدايا من سمن الغنم وسمك (العنبور) المقلي والبيض والخبز البلدي المصبوغ الذي امتازت به هذه المنطقة وكذا القهوة ذات الرائحة الزكية النفاذة وعندما سألها لماذا كل ذلك؟ أخبرته بأنها ما إن وصلت إلى منـزلها حتى وجدت أن مصاغها قد أُعيد إلى موقعه في البيت. حينها كان لدى الطبيب حامد ضيوف من موظفي وزارة الزراعة الذين يأتون من مدينته (سيئون) ليُشرفوا على إنتاج التقاوي و هي عملية الانتخاب لتحسين البذور والإنتاج للحاصلات الزراعية العقدية مثل البطاطس فهم يُجرون هذه التجارب في منطقة الغيل. لم يكن لديه حينها ما يطعمهم به بيدَ أن السيدة مريم وفرت عليه هذه المشقة.

لا يُمكن الجزم بتفسير ذلك الاعتقاد، ولكن موقع سكن الطبيب المنزوي عن البلدة، كثيراً ما يُشاع بأنه مسكون بالجن والأرواح التي تأتيه ليلاً، لذلك فإن الكثير من القرويين يستغربون أن يقيم الطبيب وحده في هذا المكان البعيد والمقفر حتى أن بعضهم عَرضَ عليه مغادرته إلى غرفة ملحقة بمساكنهم الصغيرة.

لعل سارق مصاغ مريم عَرَف بأن هذه السيدة قد ذهبت إلى الطبيب، لذلك أعاد المصاغ إلى موقعه.

في البلدة تتحول الإشاعات والحقائق إلى ثقافة عامة يرددها الجميع، بل ويورثونها للأجيال المتعاقبة، لاشك أن هذه الحادثة التي شاع أمرها في البلدة، قَوَّتْ الاعتقاد بأن للطبيب حامد علاقة بعالم الجن والأشباح.

لم يتحول الطبيب إلى عرَّاف أو منجم، ولكنه بلا شك استفاد كثيراً من هذه القوة الروحية! -الموهومة عند القرويين- لعلاج الكثير من الحالات النفسية الحادة والمزمنة، والحالات العضوية ذات المنشأ النفسي، التي استُعصيَ علاجُها بالعقاقير الطبية مما يتطلب تعزيزاً روحياً.

السيدة مريم شديدة التعلق بخالتها وتعدها كل ما بقي لها في هذه البسيطة، لذلك فهي تجد متعة في خدمتها وهي تحنو عليها كثيراً وتعوضها ما أمكن عن الحنان الذي فقدته، وتؤنسها في وحدتها التي تعصف بها أحياناً خاصة أن الوحدة هي القاسم المشترك الذي يجمع بين السيدتين في هذا المنزل الذي.

كان بيت هاني شبه خالٍ من الأثاث غرفة الاستقبال التي دلف إليها التي كانت نظيفة رغم شبه خلوها من الأثاث غير سجادتين صغيرتين من الغزل الهندي المقلم ذي الألوان الزاهية والمصنوعة من نفايات القطن لعلها

تشبه كثيراً بالرداء المكسيكي، وعلى هذه السجادتين أختام مصنعها المتعددة ذات اللون الأزرق لتبديها أشبه بخطاب بريدي تائه عاد لمصدره، هناك حصيرة مصنوعة من خوص النخيل حُظيت أطرافها بقماش مخملي، وضعت عند مدخل الغرفة، وهناك سجادتان صغيرتان من الشَّعَر للصلاة (رومية) قد أصابهما الصلع في مواطن السجود لكثرة الاستخدام والِقدم، وهناك أواني القهوة. ثمة جِفنة من خشب الإثل ضامرة البطن من أثر السنين، فيها عروة تعلق بها في جدار الغرفة. وصندوق خشبي عتيق مرصعة زواياه بالنحاس ومصفحة جوانبه بقع الحديد أشبه ما يكون بصندوق علاء الدين في الميثوجيا العربية، تُصِدر مفصلاته صريراً خاصاً عند فتحه وكأنه قد زُود بجهاز إنذار ضد السرقة، كانت بداخله بعض الكتب العتيقة. هناك ثلاثة أرفف محفورة في الجدارين السميكين في الواجهتين الشرقية والغربية والثالث وهو الأصغر بجانب المدفأة أو (المصباة) كما يُطلَق عليها، ملئت هذه الأرفف بالكتب بهذه الكتب ذات الأغلفة الجلدية السميكة غالبيتها عبارة عن مخطوطات في فقه الشريعة على المذهب الشافعي والبعض منها مطبوع بالطباعة الحجرية التي تستطيع تلمسها بالأنامل ومنها كتاب تاريخ الأمم والملوك للطبري وكتاب تاج العروس وكتاب المستطرف للأبشيهي ومخطوطة العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي –غير مكتملة– ولعلها كان من مقتنيات الفقيه ابن عبد البر من عهد عبدالرحمن الناصر في غرناطة من خلال ما كتب على ورقته الأولى بتاريخ ٥ القعدة لعام ٣٥ للهجرة الذي يحمله المخطوط، وبعض أجزاء من مخطوط كتاب الإحياء للإمام الغزالي يعود تاريخها إلى العام الثامن والثمانين بعد الأربع مائة من الهجرة وهو تاريخ زيارة الغزالي للحجاز

لتأدية فريضة الحج كما بدا على بعض أوراقها الأولى المتآكلة الأطراف والتي اسودَّت حواشيها من الكربون، لعل ذلك من أثر تكرار القراءة بجانب شعلة المصباح الزيتي. هناك بعض كتب التراجم لعدد من العلماء والفقهاء وقد بدا أن كل تلك الكتب لم يعد أحد يقرأها بعد وفاة أبي هاني حتى أن الأرضة قد صنعت لها شبكة من الجسور والأنفاق والطرق المخفية والظاهرة والمعلقة، هناك كتاب واحد يبدو أنه قيد الاستخدام والقراءة وهو جواهر الأدب للهاشمي الذي وضِعَ على المدفأة، لعل مريم كانت تقرأه وهي ترتشف قهوتها الصباحية، ثمة خنجر أكل الدهرُ نصلته ونقش عليه سنينه حتى أضحى نحيفاً، تذكَره هاني جيداً عندما نظر إليه.

- أماه.. أليس هذا الخنجر لأبي إنني أتذكره؟

- نعم بُني.. إنه لأبيك..لقد أهدي له من أحد السلاطين (القعيطيين) عند ما كان شاباً، كان يهتم به كثيراً.. فهلاّ أحضرْتَه وتفحصتَه، عندها وثب بدر ليتناوله ويسلمه إلى هاني، عمد هاني إلى تفحصه بعد أن جرده من غمده قائلاً:

- لم يعد كبيراً كما كنت أراه.. لقد إحدودب وصغر حجمه.

- إن السنين تحني وتذيب الحديد يا بني.. فكيف يكون ذلك على الإنسان الأكثر ضَعْفاً؟

عمد هاني على تفحص الخنجر ثم جال بنظره في أرفف الكتب، ثم أردف: عندما نكون صغاراً فإننا نرى الأشياء من حولنا كبيرة ولكننا عندما نغِيب عنها ونعود إليها كباراً لا نراها إلاّ صغيرة..أظن ذلك ينطبق حتى على المساحات والمنازل والبشر.. أليسَ كذلك يا بدر؟..كان هاني يقول ذلك وقد تفلت الخنجر من بين يديه على الأرض.

- إنه حقاً كذلك.. الأشياء التي كنت أراها وأنا طفل صغير في الماضي كبيرة.. أصبحت عيناي تراها أقل حجماً مما كانت عليه.. أما الأشجار فهي تكبر بمرور الأيام ولا ينطبق ذلك عليها..لأن كبرها يعوّض ما نقص في نظرة الإنسان الذي تجاوز سن المراهقة.. كان النخيل الذي يحف بالمنزل صغيراً..أما اليوم فلم يعد كذلك.. على العكس من ذلك المنزل فإني أراه صغيراً.

- نظرة الشاب المراهق لأحجام الأشياء تكون مضطربة لعدم مقدرتها على مواكبة نمواه السريع. وينتج عن ذلك خلل بين نظرة المراهق للشيء وبين حجم ذلك الشيء لذلك فأنه يصاحب هذه المرحلة تفلت الأشياء من بين يدي المراهق، مما يؤدي إلى تكسر الأواني الزجاجية والخزفية.. لهذا السبب تفلت الخنجر من يدي لأن صورته القديمة ما زالت متواجدة في عقلي الباطن في حين جسمي اليوم لم يعد يواكب هذه الصورة..لو كان خنجراً غير هذا لما تفلّت من يدي.

- اخترع القرويون علاجاً لهذه الحالة التي يُكسِّر المراهقون فيها الأواني.

- ما هو ذلك العلاج؟

- إحمرَّ وجه بدر ولم يجب هاني، غير انه وجده منتظراً جوابه فأسره قائلاً:

- يُرغَم ذلك المراهق الذي يُكثر من تكسير الأواني على الإمساك بكلتا يديه بشيء مستقذر...

- ضحك هاني وكأنه شعر بأن جواب بدر كان مبتوراً غير انه قال:

- وكيف تكون نتائج ذلك ؟

- ممتازة.

****

سرعان ما انتشر خبر عودة الرجل الحوت في البلدة كانتشار النار في الهشيم، جاء الخبر ليضيف حلقة درامية مهمة إلى مسلسل الرجل الحوت الذي اهتم بمتابعته الكثير من ثمانية عشرة عاماً والذي يراه البعض وهماً لا حقيقة ولكن وجود هاني عمل على انبعاث هذا المسلسل.

دخلت مريم والعبرات تخنقها من كثرة فرحها، لم تدرِ إلاّ وهي ترمي بنفسها لتحتضن ابن خالتها، وعندما وقع نظرها على رجله الخشبية أشار إليها هاني بألاّ تذكر ذلك.بوضع سبّاباته على فمه. غير أن أمه سرعان عرفت ذلك من إيقاع وقع قدمه على الأرض.

- آه يا هاني لا أستطيع مطلقاً مجازاة مريم فهي التي تخدمني وتخطمني إلى حيث أريد وتقضي حوائجي، فهي كل ما بقي لي، خاصة بعد وفاة والدك.. ولا يفوتني ذكر (البدر) ابني الذي يطل علينا بين حين وآخر ليضيء ظلمتنا.

ثمة ركن في غرفة الاستقبال، تحتله (المصباة) وهي أشبه بالمدفأة يتم بناؤها وزخرفتها بالطين المجصَّص بالنورة، تستخدم هذه لأغراض متعددة، فتُصنع فيها القهوة، لتحمص وتنضج بوساطة الحطب، وتتم بوساطة المصباة أيضاً تدفئة الغرفة ويذهب الدخان من خلال فتحة تمرق في الجدار إلى الأعلى، بحيث لا يؤذي دخانها الجالسين، كما أنها مأمونة لا تحرق الأكسجين الذي تحتويه الغرفة عند ما تستخدم للتدفئة في ليالي الشتاء الباردة، و بمجرد وجودها حتى في أيام الصيف الساخنة فهي تعمل بشكل ذاتي على تصفية جو الغرفة وتبريده وتجديده باستمرار عن طريق الخاصية الفيزيائية القائلة بأن الجو الساخن يصعد إلى الأعلى فهي تقوم بتجديد الهواء الراكد من خلال تخلُّصها من ساخنه كما أنها وبهذه

الخاصية تشفط الروائح غير المستحبة من الغرفة. أما القهوة التي تُحضَر فيها فتحمل مذاقاً رائعاً، وفي المصباة عددٌ من الأرفف يوضع فيها إبريق القهوة المصنوع من النحاس المُبيَّض بالرصاص الأبيض، وإلى جوارها توجد صُرَتان من القماش يوضع فيهما البُنُ و الهَيل ولوازم القهوة، إضافة إلى طبق آخر توضع فيه فناجين القهوة المصنوعة من الفخار. وهناك مقلاة من الفخار الأحمر السميك تسمى بـ(المحماس) يُحمص فيه البُن. و(مَلعقة) هي عبارة عن شطر ثمرة جوز الهند صغيرة زودت بمقبض من جريد النخل تغرف بها القهوة من إنائها النحاسي.

جلست مريم بجانب هذا المصباة تحادث ابن خالتها الضيف الذي يحل اليوم عضواً ثالثاً في هذه الأسرة الصغيرة، كانت تصنع القهوة بحركة آلية محترفة وهي لا تنظر إلى ما تصنع وكأنها نساج ماهر منهمك في معمله، وحتى لا يحدث سحقها للبن صوتاً يزعج الحاضرين أو يحفر في أرضية الغرفة فهي تضع المدق على أسفل فخذها لامتصاص الصدمات ولتخفيف الاهتزاز الناجم عن المدق.

كان للقهوة رائحة زكية نفَّاذة، عبقت بجو الغرفة حتى أصبح الجميع تواقاً لاحتسائها وكما أنه عند ما توزع القهوة وقبل شُربها تقوم مريم بقراءة الفاتحة على روح الشيخ أبو الحسن الشاذلي عرفاناً بفضله في إدخال هذا المشروب إلى البلد وهو ما يُقره الجميع حتى أنهم يسمون القهوة بالشاذلية وهو ما يرد في أشعار أهل المنطقة عموماً.

- إن رائحة القهوة هذه زكية كيف تُعدونها؟

- ألا تحتسي القهوة في غربتك؟

- بلى.. ولكن ليس كهذه القهوة الجميلة..قال ذلك هاني وهو يرتشف

قهوته على الطريقة التركية التي يسمع شفطها كل من كان في المجلس وكأنه يريد بذلك التحرر من (الإتكيت) الذي ظل مقيداً به طول مدة غربته، ولعله يريد بذلك أن يشعر نفسه بأنه في بيته حقاً.. رد عليه بدر قائلاً:

- لعل مرد ذلك أن مريم تسحق البن عند تحضير القهوة فيحتفظ البنُ بمواده الطيّارة التي تحمل رائحة القهوة الزكية النفَّاذة، أما في الأماكن الأخرى فإنهم يسحقون البُن ويضعونه في علب ليأخذوا منه وقت حاجتهم.. أليس كذلك يا مريم؟. اكتفت مريم بأن هزت رأسها مؤيدة لما يقال. عاد هاني للحديث قائلاً:

- إنه سر المهنة أو سر الخلطة.. بالفعل.. البنُ وبعض البهارات مثل الفلفل الأسود والكمون يجب أن لا يُسحق إلاّ عند تناوله.. لذلك فهناك مكنات يدوية صغيرة لسحق البُن وأخرى للفلفل الأسود.

****

أصبح هاني حديث أهل البلدة حتى يقول قائلهم: (عاد الرجل الحوت..ذهب الرجل الحوت..) صار بيته مزاراً لأهل البلدة والقرى المجاورة من الرجال والنساء والأطفال والصبايا اللواتي تأثرن بقصته، ليعرفن كيف يكون ذلك الرجل الحوت الذي تابعن بشغف مسلسله.

كان هاني يقيم الولائم اليومية ويذبح كل يوم خروفاً بل ربما يقوم بذبح أكثر من ذلك، كان كريماً سخياً مع الجميع وبخاصة الذين كانوا يواسون أمه في غيبته، فكثيراً ما يذهب إلى منازلهم وبالخصوص الطبيب حامد الذي نشأت بينه وبين هاني علاقة حميمة، وكان ينفق على المحتاجين من قريته والقرى المجاورة، وكان لا يحبذ منح النقود بشكل

مباشر فهو يتخذ أساليب غير مباشرة، كإن يمنح للمزارعين علب البذور أو الأسمدة أو إهداء الحقائب المدرسية. أصبحت البلدة بأسرها مبتهجة به، فالأطفال عندما يرونه ينادونه (بالحوت).. فيمازحهم ويحملهم على كتفه.

سألت رحمة ابنها هاني يوماً أن ينظر في الفتيات أيهنّ تروقه كي يتزوجها، فهي كثيراً ما تسأله:

- هل وجدت من تروقك، لتكون زوجة لكَ فإن العمر يمضي بنا جميعاً؟

- لم أجد بعد ما يناسبني، وحتى لو وجدت ذلك فهل يكون أعرج قارب الأربعين مناسباً؟

- ولكنك رجل ذو مروءة وفضيلة..سعُدت من كانت زوجة لكَ.. لقد تأثرن بقصتك فتيات البلدة فكم من واحدة تحلم بأن تكون زوجةً لكَ..

خاصة بعد أن علمن بتضحيتك من أجل إنقاذ فتاة..المرأة في مرابعنا تُفضل الزوج الحنون الرؤوم على الغني.

- عليكِ بالدعاء لي بأن أوفَق بالزوجة الصالحة الجميلة يا أماه



حوريّة بنت عباس

تعوَّد طبيبُ البلدة على نكد ذلك الشاب السَمين، الذي يحلو له إيقاظه من نومه ليهب لمعاودة أخته (حورية) في بيت أبيها، لا يستطيع الطبيب التأخر أو التلكؤ، رغم أن ذلك الشاب ينتزعه من نومه كما تنزع التمرةُ من أختها، رغم أن الطبيب على عدم وفاق مع النوم أصلاً.

رغم يقين الطبيب بأنه في زياراته المتكررة لا يمنح حورية علاجاً نوعياً، لكنه في الوقت ذاته يدرك أن مجرد قدومه إليها، يزول عنها ألم رأسها الذي يشتد بها، حتى أنها تجعل من خمارها عصابة تشُد بها على رأسها، وهذه الإشارة كافية لجعل أخيها يتدحرج كجلمود صخرٍ حطه السيلُ من عَلٍ إلى منزل الطبيب. ليتسلى بإزعاجه.. لعل طبيب البلدة هذا يصل به ما يمكن تسميته بالسذاجة في تلبيته لطلبات القرويين بعيادتهم في منازلهم، حتى في أوقات متأخرة من الليل، في زمهرير الصقيع أو في قيظ القائلة، عندما تكون الشمس فوق الرأس أو عندما تكون تحت الأقدام. ربما بلغ الأمر بحورية أن أصبح قدوم الطبيب عندها مثل لفافة التبغ التي يصحو المدخن من نومه ليتعاطاها ويعود لمواصلة النوم. فتجده يطرق منزلها والعصافير تتهادى تحية الصباح ويطرقه عندما تتنادى بالهجوع، وعندما تنقنق الضفادع وعندما تخيم الجنادب على الجو بأصواتها وحينما تصرخ الدِيَّكة.

الحق أن حورية ابنة التسعة عشر ربيعاً تمتلك جمالاً أخّاذاً، لا يمكن لقصة أيّاً كان حجمها أن تحوي وصفاً لما بدا من جمالها، ولكن يكفي القول بأن لها عينان لو وضعت صورة إحداهن في إطار وعلقت في حائط، لصار ذلك حائط مبكىً لعشاق الجمال، ولها قامة ممشوقة تنافس بها ظباء البراري رشاقةً.

اعتاد القرويون تزويج أجمل بناتهم بمهور خيالية. يقابل ذلك أنه من دواعي الافتخار أن يتزوج الشباب بأجمل الفتيات اللاتي ذاع صيت جمالهن ورجاحة عقولهن في المضارب.

*** ***

(رعد) شاب في السابعة والعشرين من عمره، طويل القامة، قمحي اللون، ذو ملامح قاسية، بيدَ أنه جياش العواطف ويُشهد له بالوفاء والمثابرة، وسيم ذو شعر طويل فاحم يفرقه من وسطه ليسدله على أذنيه، يستعرضه في حلبات (الشرح) مما جعله راقصاً تتوق النسوة إلى (الشرح)[1] معه ويشكل مع حورية ثنائياً رائعاً في هذا الفن، أفنى رعد خمس سنوات من عمره مغترباً في الكويت حتى جمع خلالها مالاً يكفيه لأن يعيش حياة كفاف بقية عمره، غير أنه أخذته العزةُ بالجمال فتقدم لخطبة حورية ووافق على مضض على شروط أبيها الطماع، ولكن إذا ما احتسبنا جمال حورية بذلك الميزان لقلنا لم يكن أبوها طماعاً، بل كان فيها من الزاهدين.

---

١) الشرح كلمة عامية تطلق على فعالية الرقص الشعبي ولعلها مشتقة من الانشراح الذي تحدثه هذه الرقصات -بتنوعها- في نفوس القرويين.

وافق (رعدٌ) بأن يدفع كل ما لديه مهراً لحورية كقسط أول لثلاثة أقساط مُرحلة، تدفع بعد الزواج.

عاشت حورية مترفة بالسعادة في منزل زوجها الذي أحبته كثيراً، كانا يتبادلان الحب حتى أن رعداً لم يفارق منزله ونسي العالم بأسره بما في ذلك التزاماته تجاه والد زوجته. لم يخرجه من سكرة حبه هذه إلاّ زيارة عمه عباس الذي طلب من ابنته أن تصحبه إلى منزله. وبحسب العقد والأعراف السائدة فإنه يحق للأب حجب ابنته عن زوجها لحين سداد بقية أقساط المهر المتأخر المتفق عليه. وبذلك لا يحق لـ(رعد) الجلوس مع حورية إلاّ بحضور شخص آخر أو في المناسبات العامة أو في حلبات (الشرح) التي يعد رعد احد فرسانها، كما هي عليه حورية التي تزهو بها حلبات (الشرح). ويبلغ الأمر أن تُعد خلوته بزوجته في هذه المناسبات عقوقاً من البنت لأبيها.

عاد رعد إلى مهجره في الكويت إلاّ أنه لم يجد عمله السابق بقدر ما وجد حظاً مكشراً عن أنيابه.

أصبح يتسكع بين مدن الكويت، والشجايا، والسَالمي، بحثاً عن عمل آخر فكل ماعضه الزمانُ عاد إلى ما تزود به من ذكريات حُبه لحورية الذي يفزع إليه كثيراً في غربته، فيرى طيفها في السُحب الركامية التي تتشكل في السماء، في خطوط القمر الذي يسامره حتى يغيب من على جدار سطح مسكنه العتيق، فعندما يخلد للنوم يذهب به طيف حورية إلى عالم آخر مليء بالنشوة والأحلام والغرام رغم أن كل ذلك من طرف واحد، كان له طيف حورية خير نديم في غربته الموحشة والقاسية.

****

بعد أن تم فحص حورية الفحص (الروتيني) تم أخذ مقياس ضغط دمها وحرارتها. أخذ الطبيب البطارية الكاشفة الصغيرة من جيب سترته وسلط ضوءها على عينيها ليرى توسع حدقتيها وتفاعلهما مع الضوء.

ما إن وضعت حورية كوب الماء الذي جرعت به حبة (البندول) التي أعطاها الطبيب حتى زفرت زفرة قوية وكأنها تدفع بالألم إلى خارجها.

- كيف تشعرين الآن؟

- راح الصداع.. الحمد لله.

تهللت أساريرها وبدت كأنه لم يمسها نصب من قبل. حتى أردفت بشيء من التردد:

- أريدك أن تكتب خطاباً إلى رعد..

- وماذا تريدنني أن أكتب له؟

- أن تبث إليه شوقي ولوعتي واعتلال صحتي وتحثه على استعجال قدومه.

- وماذا بعد؟

تدارك الطبيب حدة تساؤله، ودلالة الاستنكار التي صنعها بشبك يديه على خاصرته وأدرك أن عمله يُلزمه بتحمل ذلك كجزء من العلاج، خاصة أنّه لمح امتعاضاً في ملامحها، كما أنه أدرك أن حل مشكلتها هو حل لمشكلته أيضاً، لذلك أردف:

- هناك مسافر سيغادر غداً إلى الكويت سأكتب لرعد خطاباً بذلك، كل ما هو مطلوب منك أن تهدئي وتتصبري.

- إلى متى يكون تصبري؟

- إلى أن يجمع رعد مؤخر المهر.
- لا حاجة لي بذلك!!
- ولكن أباك لن يتنازل عنه.. لا تقلقي.. فقط حافظي على صحتكِ حتى يأتي رعد وأنتِ بكامل صحتك وشبابك وجمالك.
- أظنه سيجمع ذلك بعد أن يبيَض شعري ويذبل جمالي.
- لا تقولي ذلك.. فرعد يحترق شوقاً إليكِ؛ ولكنه لا يريد القدوم إلاّ كما يجب عليه أن يعود.. ليأخذك إلى منـزله، وتنجبان أطفالاً.. هل تريدين أن يعود رعدٌ ناقصاً أمام الناس؟

بدت عينا حورية العسليتان دامعتين. لذلك قام الطبيب بوضع يده على جبينها حتى بدأت حالتها النفسية في الهدوء. كانت تنظر إلى أصابعه حتى قالت:

- تنصحون الناس بعدم إطالة أظافرهم وأنتم تطيلونها!!.. ألا تقلم زوجتك أظافرك؟
- إنها غير موجودة.
- هل تسمح لي بتقليمهن؟
- إن كان ذلك لا يزعجك.
- هل أتردد في القيام بذلك ؟..وأنت تعودني دائماً لتطبيبي؟

يدرك الطبيب أن قيامها بذلك يمثل جزءاً من العلاج للحالة الهستيرية وأن ممانعته لن تخدم حالتها المرضية ولا يريد الطبيب أن يكون جلفاً معها.

بينما كانت حورية تقلم أظافره جرحت سبابته فخرجت قطرات صغيرة من الدم فبادرت بجذب يده ووضعت إصبعه في فمها! سحب الطبيب إصبعه قائلاً:

- هذه عادة غير حسنة.. في حين أخذ قطعة من القماش المبللة بـالكحول ومسح بها على طرف أصبعه، وهو يقول: ربما يكون هناك مرض في دمـي وعندما يصل إليك سيُعدِيك.

ردت باندهاش بالغ..

- وهل يمرض الأطباء؟

- أجل.. بل هم أكثر عرضة للمرض بسبب كثرة اختلاطهم بـالمرضى.. غير الطبيب من لهجته وبدا مبتسماً، وهو يقول :

- أظنك الآن بأحسن حال.. سوف أذهب.

- ألا تجلس للشاي.. سـأقوم بإعـداده.. أمـي لم تـأتِ بعـد مـن المزرعـة معذرة على ذلك.

- عليك أن ترتاحي.. لديَ مرضىَ ينتظرونني في المستوصف.. سأذهب إليهم..أستودعك الله.



طبيب البلدة

في ليلةٍ (بعوضيةٍ)، لم تَجُد الريحُ بنسمة تزيح أسراب البعوض الجاثمة على فراش الطبيب،كان الوقت صيفاً، وكانت الأمطار الموسمية موسماً ليبني البعوض فيها مستوطناته المؤقتة ليحل ضيفاً ثقيلَ الوطأةِ على المنطقة. السبيل الوحيد الذي يقي القرويين أنفسهم من لسعات البعوض هو أن يدهنوا أجسامهم بزيت النارجيل أو السمسم.

تدفع الطبيب حامد حرارة الجو ليلاً لأن يهجر غرفته الصغيرة ذات الواجهة الغربية - بأسفل المركز الصحي - إلى سطحه الأقرع الذي لا تحويه جدرانٌ على جوانبه الخارجية، وقد تعوَّد أن يتخذ له موقعاً محدداً في ركنه الذي يكون على مقربة من الدرج وهو الطريق الوحيد المؤدي إليه، كان يهتدي إلى الدرج للخروج في حالات الطوارئ التي تستدعي خروجه ليلاً مهما بلغ النوم تمكناً منه، كان البعوض ليلتها من الكثرة بحيث يشكل سحابة تبرك على جسم الطبيب، فهو يحاول النوم بتغطية جسمه المنهك بالملاءة، غير أن البعوض كما بدا قد قَسَّمَ نفسه إلى ميمنة تقوم برفع الملاءة لتتمكن الميسرة من التسلل و الولوج إلى داخلها، كانت هذه الجيوش تصدر أصواتاً صاخبة، مزقت سكون الليل، لعلها أغاني الحرب عند البعوض. خرج حامد إلى غرفته الصغيرة وأحضر حلزوناً

دُخانياً، أخضر اللون لطرد الحشرات، شكل ذلك الحلزون أشبه بمحيط قطرة وقعت على ماءٍ آسنٍ، كان حامد يدّخره لمواسم البعوض فإذا ما أشعل في طرف الحلزون الخارجي سرت هذه الجذيوة الصغيرة إلى مركزه في رحلة تدوم ست ساعات، يتمتع خلالها حامد بنوم هانئ، بيدَ أنه في تلك الليلة لم ينم إلاّ ساعتين، كاد أن يموت من الاختناق لاحتراق وسادته الأسفنجية، لعل الريح هبت ودفعت بالحلزون إلى الوسادة، أو لعلها من عمل البعوض في إطار حملته التَصعيدية ضده، كانت رائحة احتراق الإسفنج كريهة وكأنها قنبلة دخانية كتلك التي توصلت إليها مؤخراً قوات مكافحة الشغَب بدلاً عن خراطيم المياه لتفريق المتظاهرين. التي سبقهم إليها البعوض في هذه الغزوة.

غيَّر حامد موقع نومه إلى مكان آخر في هذا السطح الفسيح الأقرع مبتعداً عن أشجار (الدَمس) الباسقة التي يتمترس خلف أوراقها البعوض، ملتمساً نسمات من الريح علَها تساعده في طرد سحابة البعوض. قام بتثبيت حامل الحلزون المصنوع من الصفيح بحَجرة صغيرة، أبعد الوسادة التي مازالت كريهة الرائحة، توسد نعليه ورجَح ارتفاعهما براحتي يديه، متصيداً للنوم، التي تحَول دونه هذه السحابة.

في الساعة الرابعة أيقظ الطبيبَ شبحٌ بدا له عندما أفاق في غاية الضخامة، ساقان عظيمان كصواري ساعية هندية ذات دقلين، تقف على هذين الساقين كتلة بشرية هائلة، اعتقد الطبيب بأنه كان راقداً حينها تحت تمثال الحرية، كان النوم متمكناً منه، قام وهو لم يتملك حواسه بعد، حمل فراشه وأخذ مذياعه الصغير (النشونل) ذا الحقيبة الجلدية، ويمم صوب طريق آخر غير طريق الدرج.

كان سقوطاً مدوياً مروعاً أفقده وعيه للحظات. كان ذلك من على ارتفاع ثمانية ياردات، هناك رظوض متعددة في جبهته وركبتيه وصدره، الذي كاد يوقف تنفسه، غير أن المذياع كان أتعس حظاً منه، وكأن صاعقة قد أحاطت به. حتى الفراش تنكرَ لعِشرَة الليالي، لينتحي جانباً آخر في هذه المحنة، أما ذلك الشبح الذي زاده الله بسطة في الجسم كانت على حساب عقله الذي بُخس فيه، قد اختفى، لعل الظلام ابتلعه رغم انه أكبر من أن يبتلع، حتى إن الطبيب اعتقد أن البعوض لم يجد أغبى من (هادم اللذات) هذا ليسخره لهذه المؤامرة العدوانية.

كانت هذه الحادثة درساً مهماً للطبيب، عَرَفته أكثر بمروءة القرويين وتضحيتهم، كان خلالها محط اهتمامهم البالغ، لعلهم بذلك يردون دين اهتمامه بهم، لم يكن أحد منهم رجلاً كان أم امرأةً كبيراً كان أم صغيراً إلاّ وزاره، حتى أضحت زيارته مناسبةً عامة حرص على حضورها الجميع من غير استثناء أو تمييز، فهم يحضرون له ما لَذَ وطابَ من الأطعمة. كان لا يسمح مطلقاً بالتجمهر داخل المركز الصحي، ولكنه اليوم أصبح موضوع هذه الجمهرة. لا يقوى على تفريقهم. كما أن حضورهم وصَخَبهم عوضه عن مذياعه الذي كان مع الكتاب خير رفيق له في حِله و ترحالِه.

بات عيد الأضحى على الأبواب فبمجرد ما تماثل حامد للشفاء، جهز أهل المنطقة له سيارة نوع (أيزيزو) ذات مقطورة خشبية، لتقله إلى أهله في مدينته (سيئون) كانت السيارة محملة بالمنتجات المحلية من الأغذية والمشغولات المصنوعة من سعف النخيل والأغنام لتكون عيداً لأسرته وليدخلوا بها السرور إلى نفسه. هناك شيء أزعجه كثيراً وهو أن

حورية تُعد الوحيدة التي لم تزره في محنته هذه!! لعل ذلك كان فيه خير له، لأنها لو حضرت ستكون برفقة أخيها (هادم اللذات) الذي كثيراً ما يكون ملازما لها ملازمة الأشواك للوردة. فحامد لم يعد يطيق رؤيته.

كان العيد فرصة لأن يرى حامد الأهل والأحباب الذين يأتون من بلدان مختلفة في أيام العيد، فهو يشعر في بلدته بمنتهى السعادة بين أهله وأحبابه، غير أن ذلك لم يدم طويلاً. بعد عشرة أيام أحضر القرويون ذات السيارة السابقة لتعيده إلى منطقة (غيل بن يمين). وودَّع حامد أسرته وقد كان الوقت ضحىً، استبدت به حينها لوعة الفراق، كان ابنه الوحيد يتشبث به كثيراً ويبكي محاولاً منعه من ركوب السيارة التي ستقله، كانت الدموع تترقرق من عيني الابن وتنحدر على خديه الطريين الغضين، ليقوم حامد بمسحها عن طريق إبهاميه حتى أنه استحضر بيتين لابن زُرَيق البغدادي.

وكم تشبثَ بي يَومَ الرحَيلِ ضُحَىً
وأدمُعِي مُستهلّاتٍ وأدمُعُهُ
وَدَّعته وبودي لو يودِّعُني
صَفو الحياةُ، وأني لا أودِّعَّهُ

بعد أن تحركت السيارة وغادر الأب ذهب الولدُ يجمع النمل الأسود من الأرض وهو حزين نادب، قالت له أمه:

- ماذا تريد بالنمل ؟ فقال بصوت مُتهدج تخنقه العبرات والزفرات وتسبقها الدمعات:

- أريده أن يلسعني!.

بقيت صورة الزوجة والابن معلقة في مخيلة حامد، لم تُسقطها حركة السيارة العنيفة وهي تجتاز العديد من القفار والبراري والوهاد والسهول والتلال و الجبال ذات الصخور البيضاء التي خلت مما تنبت الأرض، إلا من ثمام عنيد، أو طلح لم يعد كما كان نضيد في هذه الطُرق المتعرجة غير المُعبَدةً التي ينيف طولها عن ثلاثمائة وخمسين ميلاً.

عند ما جن الليل كان النوم يراود حامد في السيارة وهي تهوي بركابها، كانت حركتها وتأرجحها يُهدهد رأسه كما يُهدهَد الطفل في مهده، لذلك كان النوم يحاول الوصول إلى عينيه بالتسلل من سور أهدابها، غير أنه لم يستسلم له، ظل يقاومه حتى لا يحتسب ذلك نصيبه من النوم، طامعاً في أن يحظى بنصيب أوفر على سريره، ليصحو باكراً بكامل لياقته.

وصل الطبيب البلدة ليلاً، كان يعتقد بأنه لا أحد يعرف بوصوله في هذا الوقت المتأخر من الليل لذلك فلن يكون هناك طارق يعكر نومه، وضع جسمه الذي أنهكته المسافات على السرير، ما كانت إلاّ لحظات حتى غط في نوم عميق.. قام بعدها على إيقاع طَرق يعرفه، إيقاع يكرهه، إنه إيقاع طرق هادم اللذات، فتح الباب أجل أنه هو،وقد بدا له بهيأته (البرميلية)، أجل إنه أشبه بالبرميل فإذا ما نظرت إليه لا تعرف أهو مقبل أم مدبر. رغم أن صفة الإدبار لا تفارقه، عندها تذكر حامد حادثة سقوطه التي كانت بسببه.

****

عندما يقوم طبيب البلدة بعيادة مريض ما في منزله يجده محاطاً بمن سبقه إليه من الجيران والأهل والفضوليين الزائرين، ويقوم بالمعاينة للمريض بحضورهم، إلاّ في ما ندر من أمراض النساء والولادة، هذه العادة السيئة تزعج الطبيب كثيراً وتزعج من سبقه من الأطباء الذين تعاقبوا على هذه المنطقة، فالزائرون هنا لا يحتاجون إلى إذن بالدخول في جميع منازل البلدة، لا يحتاجون إلى حاجب يمنعهم، ولعله من العار الذي لا يقترفه أحدٌ من أهل المنطقة أن يوصَدَ باب منزل، فكل ما يوصِدونه هو باب من الشبك بارتفاع ياردة الغرض منه فقط منع دخول السَوائم.

عند ما يقدِم الطبيب لزيارة حورية في منزلها يجد أعدادا من الزوار في (قعيدتها) أو ديوانها الذي تستقبل فيه ضيوفها،ومن عادة البدو عند زيارتهم للمريض أن يتحذلقوا في إسداء الوصفات والنصائح العلاجية، والبعض منهم يهرف بما لا يعرف، معتقداً بذلك أنه يسجل حضوراً بنصائحه العلاجية هذه، حتى أن المريض وذويه يتوهون في لُجج ومتاهات تلك الوصفات التي ربما أحدثت مضاعفات جانبية.

هناك واحدة من هذه الوصفات تعوَّد الطبيب على سماعها في مجالس حورية، مفادها أن ابنة أحد التجار (آل بازرعة) في مدينة الشحر، كانت تعاني من الصداع المزمن الذي أعيا الأطباء علاجه في الداخل والخارج (وهو ما ينطبق على مرض حورية) بحسب هذه الوصفة.

في يوم من الأيام أُشِير إلى والد هذه الفتاة بأن هناك طبيباً شعبياً مهرياً[1] ماهراً يعالج حالات الصداع، حضر الطبيب ثم قام بتسخين

---

١) نسبة إلى محافظة المهرة المطلة على البحر العربي، المحادة لمحافظة حضرموت من الشرق.وسكانها ينتسبون إلى مهرة بن حيدان من(قضاعة)

(محماس) البُن على النار حتى إذا ما زاد احمراره، قام بوضعه على مقربة من رأس البنت المريضة بما يشبه وضع الكوفية على الرأس غير أنه لا يلامسه، وما كانت إلاّ لحظات حتى عطست البنت، لتخرج من أنفها دودة متوسطة الحجم، ولم يعقب ذلك إلاّ عافية دائمة من ذلك الصداع.

خورية كثيراً ما تستمع إلى تلك القصة، حتى أنها آمنت بأن هناك دودة في دماغها تسبب لها ذلك الصداع المُزمن.

****

من الأمور التي تؤرق حامد على الدوام هو شِحَّة التموين الدوائي الوارد إلى المركز الصحي شأنه في ذلك شأن غيرِه من المؤسسات الصحية التطبيبية في البلد عموماً التي تعاني من ذلك، غير أن ما فاقَم المشكلة هنا هو عدم وجود صيدليات خاصة لبيع الأدوية لاعتقاد الناس هنا بأن التطبيب إجمالاً يكون مجانياً ومن مسئوليات الدولة. لذلك دعا الأمر حامدا لأن يفكر في تركيب عدد من الأدوية والمحاليل الطبية محلياً، فقد كان خلال الدراسة متفوقاً في مادة علم تركيب الأدوية ويستطيع القيام بذلك ولكن المشكلة تكمن في عدم وجود المواد الأولية،كما أن الطبيب يفضل أخذ دورة جديدة في هذا الفن، وهو بحاجة أيضاً إلى موازين ومقاييس دقيقة لوزن المركبات الدوائية، ناهيك عن ضرورة توافر المواد الحافظة، من أجل ذلك أعد الطبيب قائمة بهذه الأدوية التي تصل إلى أربعين صنفاً منها ما هو للاستعمالات الخارجية مثل المطهرات والمراهم والدهانات، وأخرى للاستعمال الداخلي مثل الأشربة مضادة السعال وطاردة البلغم ومضادات الحموضة ومضادات الإسهالات والمرطبات

وكذا قُطر العين والأنف والأذن، وغيرها من المواد الحافظة لهذه المركبات وكذا الأواني اللازمة لسحق وخلط هذه المركبات الدوائية. وعندما كان يناقش ذلك مع هاني كان يقول:.

- سوف أعرض هذه القائمة على المسئولين لمنح توصياتهم.

- لا تنسَ أن تضيف إلى ذلك مكينَتي رش لمكافحة البعوض.. سوف نشتري ذلك من عدن عند زيارتنا لها.

- أيضاً سأجمع توصيات من السلطات المحلية في الشحر و المكلا إلى المستودعات المركزية في عدن بشأن الدورة والمواد الأولية لهذه المركبات الدوائية.



جائزة

اتخذ الطبيب أسلوباً حكيماً في جعل نسوة البلدة يقْبِلْنَ على تنظيف منازلهن وأفنيتهن، مستغلاً بذلك رغبتهن في التفاخر والتباهي فيما بينهن وإظهار مدَنيَتهُن، لعل الطبيب يهدف إلى تحفيز التنافس فيما بينهن فعمد إلى تخصيص جائزة لأنظف منزل، وجائزة أخرى لأنظف شارع.

فهو يقوم بجولات تفتيشية عشوائية على المنازل، فإذا ما رأينه النسوة مقبلاً، بقيت الأم أمام عتبة المنزل للترحيب به في حين تهرع الفتيات إلى ترتيب ما لم يرتب في الداخل ليقمن بوضع اللمسات الأخيرة علي ذلك، كما أنه حين يُدعى الطبيب لعيادة مريضٍ ما ويجد منزله غير نظيف يعتذر عن الدخول إلاّ بعد تنظيفه.

جائزة أنظف منزل هي عبارة عن شهادة مُبروَزَة في إطار جميل مخطوطة، يُكتب فيها اسم ربة البيت ويحدد التاريخ الذي فازتْ فيه هذه السيدة ويقوم الطبيب بتعليق هذه الشهادة على الحائط في غرفة الاستقبال، وهي من أكبر ما تتفاخر به الأسر الناجحة بالفوز.

من مراسم تسلم هذه الشهادة أن يتناول الطبيب طعام الغداء في هذا المنزل، كان يتعمَّد أن يأتي على حين غرة، حتى تكون النظافة سلوكاً وحتى لا تُغرِق هذه الأسرة نفسها في تكاليف لا تسعها لكون الأسر في هذه المناطق إجمالاً، تجمع بين الفقر والكرم. أما جائزة أنظف شارع

فتمـنح في شـهر رمـضان، لـذلك تجـد الـسيدات يبـالغن في النظافـة لشوارعهن وأفنيتهن بشكل جماعي ليقمن بطـلاء تلـك الـشوارع بطـين الزبر ليبدو خلال شهر رمضان والعيدين في غايـة النظافـة حتـى إنـك لا تجد عقب سِجارة، أو بعرة سائمة أو عود ثقاب.

أصبحت هذه المنافسات على مستوى الأحياء في المنطقة. عند ما علم هاني بهذه الفكرة راقته كثيراً، حتى إنه تبرع بمبلغ من المال لشراء جـوائز عينية مغرية تتبع شهادة النظافة وتكون هذه مما تحتاجه ربـات البيـوت في مطابخهن ومما يساعدهن على النظافـة ولتكـون هـذه سـلوكاً وطبعـاً لا تطبعاً، وقد ساعد ذلك لأن تكون المنافسات أكبر والنظافة أبهر والأحياء أنضر.

كانت حورية ممن حصدن شـهادات متكـررة، كانـت أول زيـارات هاني لحورية بمعية الطبيب بمناسبة تسلمها أحد تلك الجوائز.

في تلك الأيام كان تدهور صحة حورية بادياً للعيان، كانـت ضـامرة الجسم سـارحة الفكـر ذابلـة الابتـسامة، لم تعـد كـما كانـت تجيـد فـن (الإتكيت) في تعاملها مع الآخرين، حتى بلغ بها الأمـر لأن تـضع أثوابـاً متكررة على جسمها لتخفي نحافته.

لم يكن غريباً أن يناقش حامد أمـر عودتهـا إلى زوجهـا في (القعيـدة)[1] بحضور هـاني وحوريـة ووالـدها، خاصـة أن هـاني قـد تـأثر لاعـتلال صحتها بعد أن أخبره الطبيب بقصتها.

شكَّلَ الطبيب وهاني (لوبيا) للضغط على عباس والد حورية ليتنازل بعض الشيء لإيجاد حل لمشكلة العاشقين، اللـذين أضـناهما البـينُ. ولـما

---

١) القعيدة كلمة عامية تعني الديوان أو مجموعة من الناس يجتمعون على الأرض

كان تدهور صحة حورية يعني مزيداً من تكرار زيارات هادم اللذات للطبيب. كانت الخطى حثيثة لإيجاد حل لذلك. ولعل (اللوبي) يقوم بمهمة المراسلة بين طرفي المشكلة.

وصل الطبيب حامد ذات يوم خطابٌ من رعد، كان خطابا غريباً وشديد اللهجة قاسياً، مفاده أنه وصلته رسالة من قريب هاني (محروق) يخبره بأن هاني يتردد يومياً إلى منزل حورية وأنه يرغب في تشنيفها من والدها!. (والتشنيف عادة قديمة منقرضة وهو خطبة المتزوجة من قِبل شخص غير زوجها الأول مقابل دفع مهر باهظ يضاهي مهرها من زوجها الأول وتتم هذه عندما يتلكأ الزوج عن دفع الاستحقاقات المتأخرة من المهر، ليتم إعادة كامل ما دفعه الزوج الأول من ذلك المهر.

لم يكتف محروق بذلك بل ذهب به الأمر إلى أن يُشيع في البلدة كلها بأن هاني على علاقة غرامية بحورية وأنه كثيراً ما كان يختلي بها ويزورها في أوقات متأخرة من الليل ليبيت في منزلها، كما أنه قد نشر إشاعة مفادها أن هاني سيتزوجها ليضيف محروق بذلك حلقة درامية إلى مسلسل الرجل الحوت، ساعده ذلك لأن ينتشر الخبر إلى مناطق أخرى ليهتم بذلك المتابعون لهذا المسلسل وقد أشاع أيضاً بأن حورية كتبت خطاباً إلى رعد تطالبه فيه بالطلاق وأن هاني سيقيم لها فرحاً لم تشهده المنطقة بأسرها حتى أن النسوة بدأن يخطن لأنفسهن ملابس تليق بهذه المناسبة. بل إن أحد تجار الملابس أطلق اسم الحوت على احد أقمشته الجديدة مما جعل النسوة يتهافتن على شرائها.

قالت أم هاني لابنها معاتبة:

– كيف تريد الزواج بامرأة متزوجة.. هل خلت البلدة من الفتيات؟

- أماه آلا يكفينا تلك الفرقة الطويلة التي صنعها محروق؟.. إنها إشاعة من أعمال محروق!!
- هل يُعقل أن كل ما يقال مجرد إشاعة؟
- أجل إنها إشاعة محروق التي فرقت بيني وبين بلدي سنوات طويلة..قال ذلك وقد خنقته العبرات وهو يتذكر حرمانه من رؤية أبيه وما ارتكبه من هجران بحقه بسبب هذا الرجل.
- لا عليك يا بُني..أعتذر لكَ عن تصديقي هذه الإشاعة القوية.
- لا عليك يا أماه..لو عزمت على أي شيء من ذلك ستعرفينه مني لا من غيري..فليس لدي أي هم إلا معالجتك لتعودين بصيرة.

تربط الطبيب بالسيدة (رحمة) أم هاني مودة، فهو يزورها دائماً وتزيد هذه الزيارات عندما تعتل صحتها وهي تكثر له من الدعوات الصالحة التي يتفاءل حامد بها خيراً، كما أن منزلها يحتل موقعاً (كلاسيكياً) يعجب حامد ارتياده، والارتشاف من قهوة السيدة مريم، كان يتنادم معها الأدب والشعر وكانت تعرض عليه قصائدها بحضور السيدة رحمة، وكثيراً ما تحلب له من لبن الغنم ويتناول الطعام كعضو غير دائم في هذه الأسرة. ذلك ما أخبرت أم هاني به ابنها، كما أن الطبيب قد أعجب بهاني كثيراً، ووجده المنهل الحي الوحيد المُحَدِث لثقافته، خاصة انه استطاع أن يتجاذب أطراف الحديث معه باللغة الإنجليزية التي أوشك الطبيب على نسيان بعض مفرداتها بعد أن كان متفوقاً فيها قبل قدومه إلى هذه البلدة، لذلك نشأت بينه وبين هاني صداقة حميمة، كانا لا يطيقان يوماً لا يكون فيه لقاء بينهما، الصديق الآخر لهذا الثلاثي هو الأستاذ بدر الذي يكون مُرسالاً لهذه اللقاءات وشريكاً فيها.

يتمتع هاني بمقدرة عجيبة على وصف مشاهداته بطريقة جميلة وسلسة. فهو يصف للطبيب وبدر نماذج بشرية مختلفة من قارات مختلفة، ويصف مشاهدته للمدن التاريخية، والمعالم الأثرية مثل قرطاج ولقصُر ومتحف أبو سنبل وقلعة محمد علي ومتحفه في القاهرة ومتحف اللوفر في باريس وقناة بنما العجيبة والأبراج العالمية، وغيرها من الأماكن التي كان بلا شك يُمتع جليسيه بالحديث عنها ربما أكثر من متعة المشاهدة لهذه المعالم. ممن كانوا يترددون على هاني بعض من أعيان آل(جابر) من أسفل الوادي (صيقة آل عامر) و الخَامرِة ومن أعلاه في وادي رِسب وعِدِم وسِكدَان،كانوا يتبادلون معه الكرم والحكمة، حتى لقد بلغ الكرمُ بأحدهم أن يقوم بذبح سبع ذبائح ليولم كل واحد من أصهاره الذين وفدوا إليه بقلب ذبيحة. توطدت صداقة هاني بهم أثناء إقامته حتى إنه دُعي من قبلهم لحضور أحد أعراسهم فكانت فرصة لكثير من الحضور لأن يَروا الرجل الحوت الذي سمعوا عن قصته كثيراً كانت أعناق الصغار والكبار من الفتيان والفتيات تشرئب لرويته.

****

اعتاد الأصدقاء الثلاثة الجلوس في فناء المنزل الذي تحيط به أشجار النخيل الباسقة، وتأتيهم منها تغاريد طيور القماري، هذه الأشجار تحيط بمنزل هاني من اتجاهين، متقابلين للغدير فإذا ما وجد الجُلاس متسعاً من الوقت هرعوا إلى النهر يصطادوا منه السمك. كانت المجموعة تتداول في جلساتها الحديث والسير وأشعار شوقي وحافظ ورامي

وإقبال ونـزار ويستمعون إلى أغاني أم كلثوم وعبدالوهاب ومحمـد جمعـه وعوض الدوخي وغريد الشاطئ وعلي الآنسي وسعدون جـابر وطـلال مداح. وعبد الوهـاب الـدوكالي ومحمـد وردي.وبعـض الـسيمفونيات لشوبان وبتهوفن وباخ.

كان الطبيب حامد حريصاً عـلى تـوفير الأنـس والاسـتقرار لهـاني، حتى لا يضيق ذرعاً بالمنطقة شحيحة الإمكانيات، التي لا تحمل صـخب المدن التي زارها هاني، إنه أفضل جليس يقـضي معـه الـساعات، لـذلك كان حامد يبحث معه مكامن الجمال والبساطة في البلدة وفي نفوس أهلها الذين أحبهم الطبيب وأحبوه رغم أنه كان غريباً عنها، الجلسات اليوميـة التي تجمعه بهاني لا يستطيع حامد الاستغناء عنهـا فهـو يحـاول مـع بـدر جعل البلدة المقفرة من مظاهر المدنية مستساغة لهاني، كي لا يفكر بتركهـا حتى أن بدراً قال:

– إن منطقتنا تتمتع بالهدوء والسكينة والفنون الشعبية المتنوعة لقد أعجب الشاعر حسين المحـضار بهـا ومكـث هنـا طـويلاً وتـزوج مـن إحـدى فتياتها،كانت هذه البلدة مصدر إلهام وإبداع له لينظم ويلحن العديـد مـن القصائد الفنية الرائعة التي تغنَى بها كبار فناني الجزيرة العربية.

كان هاني شغوفاً بتدوين رحلاته، حريـصاً عـلى تـدوين مـا يـسرده حامد من قصصه ومصادفاته في البلدة، حتى أنه نـصح حامـداً بمحاولـة الكتابة ليكون قاصاً أو روائياً. كما أن هاني يسهم كثيراً في انتشال الوضـع الصحي ويُسهم في تبني نقل الحالات المرضـية إلى المستـشفيات المركزيـة البعيدة، وبالخـصوص حـالات الـولادة التـي أحيانـاً تفُـك الطريـق – الطويلة و الخشنة – عسرتها قبل الوصول إلى المستشفى.

بدا هاني ضاحكاً وهو يقول لحامد أنظر خلفك صديقك الذي أسميته (هادم اللذات) مقبل، لاشك بأنه سينهي جلستنا اللطيفة هذه.. كم كنت موفقاً في اختيار الاسم.. بالمناسبة ما رأيك لو ساعدنا الأخ رعد في تسديد التزاماته لعباس والد (حورية) لحل هذه المشكلة، لقد رقَّ قلبي كثيراً لهذه العاشقة المجنونة.إنها أشبه بشمعة تحتضر..ألا ندركها قبل أن تنطفئ.

- أجل إنها تستحق ذلك لحبها ووفائها لزوجها الرجل الطيب الشهم.

أدركت المجموعة أن هاني يعاني من النوى والصبابة لحبيبته إيزابيلا، الأمر الذي لم يترك له مجرد التفكير بأن يختار له زوجة، رغم إلحاح أمه عليه التي لا يرفض لها طلباً. وكان كثيراً ما يحدث المجموعة عن جمالها ورقتها ولباقتها وثقافتها وحبها له، وحبه لها وصبرها عليه رغم قسوته عليها، بغية إبعادها عنه. لذلك قال له بدر:

- هل تفكر بالزواج منها؟

- أتمنى ذلك.. نصحتها في بادئ الأمر بأن تتزوج شاباً قريباً إلى بيئتها.. كان ذلك قبل أن يطرق الحب قلبي.. ولكننا تبادلنا بعد ذلك عبارات في لغة الحب؛ بل إننا تواعدنا على اللقاء رغم أننا لم نحدد زماناً ولا مكاناً لذلك..حتى أننا تساقينا وتنادمنا الحب من أعلى كؤوسه.

- و هل تراها عملت بنصيحتك الأولى؟

- لا اعتقد ذلك.. فهي بلا شك أكثر وفاءً.. وإن كان هناك نصيبٌ لبعضنا سيكون ذلك إن شاء الله. سكت برهة ثم أردف: إن دمها يجري في عروقي!.

- ألم تفكر بالزواج من أحد بنات المنطقة؟

- بالتأكيد لا.. رغم إلحاح أمي، فقلبي يهفو إلى إيزابيلا كثيراً. الأهم من كل ذلك أن أعالج أمي حتى تبصرني وهذه من أهم مهامي.. يتملكني شعور بأنني لو فشلت في ذلك سأعيش بقية حياتي تعيساً.. يطاردني شعورٌ بالعقوق والسلبية.

في بادئ الأمر كان حامد يستخدم درَاجة البخارية وهي نوع (سوزوكي) بحجم ١٢٥ سي سي ذات لون أسود، كان يتنقل بها في الأرياف المجاورة للقيام بعملية التطبيب للذين لا يجدون وسيلة مواصلات للانتقال إلى المركز الصحي، لذلك فهو كثيراً ما يعد دراجته لهذا الغرض خصوصاً في أيام العطل الأسبوعية للذهاب إلى هذه الأرياف مثل منطقة (رسب) ومنطقة (حِرو) ووادي (جِرب) وغيرها، أما في العطل الرسمية و الأعياد فهو يذهب إلى بلدته (سيئون) رغم أن الرحلة إليها بالدراجة تستغرق ثماني ساعات إن لم تعترض الدراجة مشكلة، وإعداد الدراجة لهذا الغرض ليس بالأمر الهين، سيما وأن سيرها في جبال وسهول ترابية طويلة كثيراً ما يسبب الغرق والانزلاق لدواليبها، بل كثيراً ما يتعرض حامد للضياع في هذه الطرق و السهوب التي تأتي الرياحُ على معالمها لتمسحها، فرحلة من هذا القبيل تكون محفوفة بالمخاطر إلا أن حامداً يستعد بمشرب ومأكل خفيفٍ تحسباً لمثل ذلك يضعه في جرابي دراجته.

عند ما قربت عيد الأضحى أعد حامد دراجته في المساء إعداداً كاملاً للسفر إلى مدينته وفي فجر اليوم التالي انطلق بعد أن أعَدَ نفسه ولباسه الذي يستخدمه في مثل هذه الرحلات والذي يتألف من حذائه المصنوع من الجلد الأبيض السميك كالذي يستخدمه الزعيم البوليفي

(تشي جيفارا) والذي يساعد في تحمل السقطات والانزلاق ويحمي القدم من لدغ الحيات والعقارب والأشواك التي تنتشر في المزارع، ونظارته الشمسية الداكنة الأشبه بنظارة عامل اللحام الكهربائي، وقبعته التي تجعله أشبه بشبحٍ فضائي، ثم (معطفه) الجلدي متعدد الجيوب والأكياس التي تحملُ كل ماً يحتاجه في هذه الرحلة بها في ذلك الماء ووجباته الخفيفة التي يتناولها خلال الرحلة. كانت الطُرق وقتها ترابية غير ممهدة، بدت الرحلة مزعجة لقد تعطلت دراجته خلالها و انثقبت دواليبها عدة مرات وهو يقوم بإصلاح ذلك.

عندما كان يمر على الناس في منطقة (ساه) يكتفي بالسلام عليهم أو مصافحتهم برغم إلحاحهم عليه باستضافته، فهو يعرف أن ذلك سيكلفه الكثير من الوقت عملاً بالمثل الشعبي القائل (الضَيف في حكم المُضيِّف) الذي كثيراً ما يستخدمه أهل المنطقة، كما أن شوقه لأسرته يدفعه للتعجيل بالمشي بيدَ إنه عندما كان بمحاذاة منطقة (الردود) استوقفه شخص طويل القامة في عقده الخامس أسمر اللون تكسو السماحة والبساطة محياه، يرتدي بدلة بقميص سفاري من القطن الداكن الأقرب لوناً إلى بشرته، عليها حزام في وسطها من ذات القماش وعلى رأسه كوفية زنجبارية، كان يمتلك بقالة صغيرة وبجانبها منزله الصغير، يبدو عليه أنه من العائدين من السواحل الإفريقية مع أسرته التي تسكن في ذلك المنزل المنزوي في طرف منطقة (الردود) كتب على البقالة بخط عريض من النورة البيضاء (أهلاً وسهلاً).

كان الجوع والإعياء وقتها قد بلغا بحامد مبلغاً كبيراً، قام الرجل على الفور بإغلاق دكانه وأخذ حامداً من يده وهو يقول:

- أريدك في أمر ما.
- ما هو ذلك الأمر؟
- لا تسأل عن سوق وأنت وارد إليه!

لم تفارق الرجل ابتسامته الوقورة، وهو يقرع الباب الخارجي للغرفة التي لها بابان داخلي وخارجي كانت مفاجأة لحامد أن يجد سفرة طعام جاهزة متعددة الأطباق الشهية والساخنة.

- تفضل بالجلوس.

خرج الرجل من باب الغرفة الداخلي وعاد بمنشفة وإبريق فيه ماء وقَرّبه من حامد لغسل يديه. لعلها عادة دأب عليها الرجل في تَصيد ضيوفه،كانت هذه المائدة النظيفة والشهية من ألذ الموائد التي حُفرت في ذاكرة حامد.

- ما هذه المفاجأة؟
- لو دعوتُك للطعام لاعتذرتَ عن ذلك..لعلك اعتذرت للكثير من قبلي في طريقك.
- كم أنا ممنون لك بكرمك ولطفك.. لا أخفيك أنني لم أتناول طعاماً من عشاء يوم أمس كل ما أكلته هو بعض أقراص بسكويت (أبو ولد) في الطريق على الدراجة.
- لو طرقت أي منزل في الطريق سيفرحون باستضافتك لديهم..
- أعرف ذلك ولكنهم سوف يؤخرونني عن رحلتي.
- من حسن حظنا أنك كنت في منزلنا الصغير المتواضع.
- السعةُ هي سعة القلوب.
- لقد أخبرتني زوجتي بأنك عالجت ابني قبل ثلاثة أشهر..لقد شُفي

تماماً من مرض(الخياء)[1] الذي كان يؤرقنا..كانت رائحة أذنيه نتنة..نحن ممنونون لك بعافيته.

- إنه واجبي.

كانت الغرفة رغم صغرها أنيقة ومليئة (بالسوفونيرات) والتحف الأفريقية من أنياب الفيلة ووحيد القرن وبيض النعام المتدلي من سقفها كالنجفات وكذا التماثيل الأفريقية الأبنوسية اللون والطويلة، وريش الطاؤوس.

كان الرجل يسأل حامداً عن شخص من غيل بن يمين هاجر إلى ليبيريا ثم اختفت أخباره، كان يقول :

لقد كان لطيفاً معي وقد أكرمني عندما كنت في حاجة ملحة لبعض المال..وأريد أن أرد إليه ذلك المبلغ.. قيل بأنه يعمل في البحر.

- من اسمه ؟

- هو من أسرة باعلي..لا أتذكر اسمه.. منحني المبلغ رغم أنه لم يكن يعرفني بما فيه الكفاية..

- هل هو برِجلٍ خشبية ؟

- لا..كان شاباً سليم البنية قوي الجسم كثير الوسامة، كان حينها في مقتبل شبابه.

- متى كان ذلك ؟

- من مدة طويلة تقارب العشرين عاماً

- هل هو هاني باعلي؟

- أجل أن اسمه هو هاني باعلي..أجل..هل تعرفه؟

---

١) التهاب الأذن الوسطى (Otits Media)

- إنه أعَز صديق لي!

- أين هو ؟.. هل أعطيك أمانته لتوصلها إليه.

- لا أستطيع أخذها.. ربما يُغضبه ذلك..ولكنك تستطيع الذهاب إليه لزيارته.. سيكون سعيدا برؤيتك..انه كريم وودود.

- أجل أنه كريم وودود..سوف أزوره.. يستحق أكثر من زيارة..انه رجل ذو مروءة..كم أتشوق لزيارته.

كانت ساعة (بق بن) وقتها تشير إلى الخامسة مساءً في راديو هيئة الإذاعة البريطانية، الثامنة بالتوقيت المحلي.استمع حامد مع مُضيفه إلى موجز النشرة من (الترانزستور) الموضوع على المصطبة الصغيرة، ثم ركب دراجته لمواصلة سيره وبينما كان كذلك أقبل طفل صغير في السابعة من عمره هو الطفل نفسه الذي عالجه قبل أشهرٍ مضت من مرض التهاب الأذن الوسطي الذي كان يعاني منه كان الطفل ينادي:عمي الطبيب.. عمي الطبيب.أوقف حامد محرك الدراجة، ناوله الطفل لعبة صغيرة مستعملة.

- امنحها لابنك..أو ابنتك.

- شكراً. كثيراً..أقول لها من من؟..ما اسمك؟

- برك..قال ذلك وقد ارتسمت على وجهه بسمة طفولية بريئة ورائعة.

- ابنتي اسمها أفراح ستزيدها دميتك فرحاً إلى أفراحها..انتظر منها هدية على عودتي.

أخذ حامد مفتاح الدراجة وأخرجه من الميدالية المعلق بها والمصنوعة من الخرز الفسيفسائي الزجاجي، وهي من مشغولات غيل بن يمين وناولها للطفل بعد أن زرع قبلة على جبينه وهو يقول شكراً جزيلاً يا برك.

كان أصوات الجنادب هو السائد في هذا الليل البهيم غير أن محرك الدراجة يطغى عليها كان النسيمُ اللطيف يصنعه سير الدراجة التي تخترق الهواء، أصبحت بطن حامد ممتلئة بعد أن كانت خماصاً،الأشواق إلى أسرته تتضاعف، خياله يسبقه إلى حيث تكون زوجته وأسرته. لم يتبقَ سوى عشرين كيلو متراً من مدينته عندما بلغ به النعاس مبلغاً وهو يدفعه عن عينيه باستمرار عن طريق دعكهما - دون فائدة - حتى انه يهز رأسه بين حين وآخر في محاولة لنفض النوم عنه،كاد النومُ يسيطر عليه، حتى استحال أمر استمراره لقيادة الدراجة،كان جسمه متراخيا. لذلك قرر افتراش الأرض لغرض النوم ولو لعشر دقائق، الساعة حينها تقارب التاسعة والنصف مساءً بعد أن قضى أربع عشرة ساعة في هذه الرحلة التي تخللتها الكثير من الأعطال الفنية في دراجته.

عندما كان بالقرب من منطقة (تاربة) انتحى جانباً من الطريق، أخرج من جراب الدراجة سجادة تركية صغيرة قانية اللون كان يستخدمها للصلاة والجلوس في البراري، ضغط جسمه واتخذ وضعاً جنينياً ليتناسب حجمه مع السجادة الصغيرة التي وضع جنبه عليها ملتحفاً السماء ومتوسداً يديه بعد أن شبكهما معاً وكأنه يؤدي تحية هندوسية مقدسة، حينما أطبق جفنيه للاستسلام للنوم سبقت النومَ إليه عقربٌ لتلدغه في خاصرته وعندما كان يتحسس في الظلمة موقع الألم، منحته العقرب لدغة أخرى في يده، كان الألم شديداً مبرحاً لذلك عاد أدراجه مسرعاً إلى دراجته ليواصل طريقه إلى بلدته بأقصى سرعة، لتخفيف ألم يده قام برفعها إلى الأعلىَ وكأنه (الفُوهرر هتلر) يتفقد حرسه النازي، أما ألم خاصرته فلم يفارقه إلاَّ عندما وضعت زوجته

الحنونة أصابعها الرقيقة ذات اللمسة (الرفلكسلوجية)[1] على موضع الألم.

****

في يوم من أيام الربيع قرر هاني وحامد وبدر الذهاب في رحلة صيد، جهز بدر سيارة لهذا الغرض، كان الجميع ينتظرون السائق سعدان القوطى لقيادة سيارتهم إلا أنه قد تأخر، ذهب بدر إليه في منزله فلم يجده مما دفعه إلى قيادة السيارة بنفسه حتى لا يأتي أمر آخر يعيق رحلتهم التي سبق تأجيلها عدة مرات، عندما بعدوا عن المنطقة بسيارتهم لحقت بهم سيارة أخرى كانت مسرعة خلفهم، ويضرب سائقها بشكل متواصل على بوقها ويلوح بيده.توقفوا عن السير.

- هل ثمة خطب؟
- نعم هناك حالة خطيرة في المركز الصحي لقد أصيب سعدان القوطى.
- سعدان القوطى !!..سوف نلحق بك الآن.

برغم أن سعدان لا يملك سيارة فهو يعمل سائقا تحت الطلب ويثق أرباب السيارات فيه كثيراً ويمنحونه سياراتهم لتشغيلها في المشاوير البعيدة، فهو لا يقول لا أعرف لأي عمل يعرض عليه،لذلك فإن الأعمال تبحث عنه ولا يبحث عنها، فعلاوة على عمله كسائق مرح حسن الرفقة له فلسفته الخاصة عن (السياقة). فهو يقوم بتشغيل وصيانة المولد الكهربائي العتيق الخاص بالمنطقة ويعمل أيضاً مسئولاً إنتاجياً في مزرعة (الرمظة) التابعة للدولة وقد اشتهر بإتقانه لأي مهمة يقوم بها، ناهيك عن قدرته الفائقة في فن الحوار والردود السريعة البديهية إضافة

---

١) Reflexology العلاج باللمس.

إلى استخدامه عبارات مكونة من أكثر من لغة تحوي اشتقاقات فعلية وتناصّات متعددة، ولديه لسان يعرف كيف يستخدمها في السلم وفي الحرب، لذلك فأن أهل المنطقة وغيرهم يحسبون للسانه حساباً ولعله أشبه بالشخصية الفرنسية الشهيرة (باسبرتوت) التي اصطنعها الروائي الفرنسي جول فارن (Jules Verne). والتي تعني مفتاحاً لكل مغلق فأهل المنطقة يصفونه برجل المهام الصعبة.ويدعونه أيضاً (أبو مذياع)

كان السائق سعدان ذلك المساء على عجل من أمره للحاق بهاني وحامد وبدر، وأراد أن يصلح ثقب دولاب السيارة (اللوري) ليأخذه احتياطا في رحلة الصيد مع المجموعة،وعندما كان يقوم بتعبئته بهواء (الكمبريسر) الملحق بالسيارة،كانت هناك عجلة حديدية تزن قرابة خمسة عشرة كيلوجراماً مهمتها تثبيت الإطار في محور العجلة وبينما كان سعدان يقوم بذلك قذف الإطار بهذه العجلة إلى الأعلى لتصل إلى ارتفاع أكثر من مترين لعل الهواء كان زائداً في الإطار أو لعل هذه الحلقة لم تكن مثبتة كما ينبغي، شطرت هذه العجلة شفاة سعدان السُفلى وأخذت بعضاً من أسنانه الأمامية وقطعت فمه إلى أن وصلت إلى الأذنين،كان النزيف كثيراً والجِرَاح مُشرَمة ومُعقدة. شاهد هاني حالة سعدان وتأثر بها كثيراً حتى أنه قال للطبيب:

- أظن أن هذه الحالة تفوق إمكانيات المركز الصحي خاصة أنه لا توجد كهرباء.

- أجل يلزم إحالة سعدان إلى أقرب مستشفى مركزي ليقوم مختص الجراحة بدوره، غير أنه لو تمت الإحالة مباشرة فإنه لن يتمكن الجراح من القيام بواجبه لمُضي أكثر من تسع ساعات من وقت الإصابة، وهو

الوقت الذي تستغرقه الرحلة، عندها لن يكون ذلك مجدياً، بل سيترتب على ذلك تشوهات دائمة في وجهه، ولا يكفي الأمر بخياطة الجلد من الخارج بخيوط (السلك).. كما أن تلوث إصابات الوجه تعرض الإنسان للتسمم الدموي القاتل.

- إنني اعتزم السفر اليوم إلى الشحر للنظر فيما إذا كانت هناك خطابات من إيزابيلا..استطيع اصطحاب سعدان معي إن ارتأيت ذلك.

- إنه بحاجة إلى نقل..سوف أقوم بتسوية الحَنك وخياطته مع خياطة الشدقين من الداخل.

قام الطبيب بتسوية الحنك وخياطة الشدقين من الداخل بوساطة خيوط (الكت جت) القابلة للامتصاص ثم قام بخياطة الجلد الخارجي بخيوط السلك الأسود الرفيعة.

****

وصل هاني بسعدان في صبيحة اليوم التالي إلى مستشفى الشِحر، عاينه الجراح المختص وتم تصوير فكيه بالأشعة السينية وأمر بمواصلة العلاج دون إجراء تغيير على الجراحة بل ودون فتحها والاكتفاء بوصف المضادات الحيوية، الجميل في الأمر أن هذه العملية لم تترك ندبات على وجه سعدان ولم تنل من وسامته شيئاً.

ذهب هاني إلى إدارة بريد الشحر، وجد هناك ثلاثة خطابات من إيزابيلا تكدست في صندوق البريد وتكدس عليها الغبار، فتحها وقد سبقت إلى أنفه رائحة عطرها (كيلوباترة) الذي كانت تستخدمه في السفينة، لعلها وضعت قطرات منه في خطاباتها التي كانت ترد فيها على خطابات هاني التي بعث بها إليها، وقد عبرت فيها عن فرحها بصحة والدته وكانت تبث فيها لوعتها وشوقها إليه.

كتب هاني من فوره خطاباً إليها وصف لها الحياة في غيل بن يمين وهو ما طلبته منه على أن يكون بالتفصيل الدقيق.

****

سالم المولود في قرية (الحصون) أحدا ضواحي غيل بن يمين أصيب بشلل الأطفال عندما كان رضيعاً، كبر سالم وكبرت معه المرض، أخذه والده إلى الهند وإلى الكويت للعلاج إلا أنه لم يُشف،بل إن الأمر يزداد تفاقماً حينما ظهرت عليه علامات الإعاقة،كان والد سالم مُغترباً، وعندما يكون في غربته يكون قلبه معلقاً بسالم أصغر أبنائه و أحظاهم محبة.

في يوم من الأيام جاءت أم سالم وهي تحمل ابنها على خاصرتها إلى العيادة تحكي للطبيب كيف كان العلاج في الخارج مكلفاً وكيف أتى ذلك على كل مدخراتهم رغم أنه لم يطرأ أي تحسن على سالم، في الوقت الذي تجاوز فيه سنته السادسة دون أن يستطيع الوقوف، وليصبح معاقاً رسمياً ولتبدو رجله ضامرة.كانت عيناها تنهمر وهي تصف معاناتها وحزنها على ابنها.

- لدي أملٌ كبير في أن يتحسن ابنك.. سوف نستخدم معه علاجاً طويل الأمد.. يحتاج إلى قدر وأفر من الصبر.. لن تكون النتائج سريعة.

- لن يكون ذلك أكثر مما صبرنا عليه خارج البلد.

- سيكون العلاج يومياً..باستخدام الأشعة تحت الحمراء وجلسات العلاج الطبيعي بمساعدة مكينة (المساج) الكهربائية..

- كيف يكون ذلك ؟

- يتطلب أن يكون العلاج في المساء لعدم توافر الكهرباء في النهار إلا

إذا تمكنتم من توفير (مولد) كهربائي صغير..سنبدأ أولاً بجلسات الأشعة تحت الحمراء. أما جهاز المساج سنعمل على إحضاره من خارج المنطقة

- متى يتطلب حضورنا؟

- بعد المغرب مباشرة.

أخذ الطبيب قلمه ليصف لسالم بعض الفيتامينات لتساعده في تنشيط خلاياه الضامرة.

****

ساعات ما بعد الغروب هي من أهم ساعات لدى حامد متعةً، فهو غالباً ما يجلس مع هاني ليحتسيا القهوة و يتجاذبا أطراف الحديث إن لم تكن هناك مهام صحية..

في عطلة نهاية الأسبوع كان الطبيب يحدث هاني عن الطفل سالم قائلاً:

- لدي أمل كبير في تحسن حالة سالم وجعله بإذن الله قادراً على المشي. ولكن الأمر يتطلب مدة طويلة من العلاج.

- مشكلة الأهالي أنهم يملون العلاج طويل الأمد.

- هناك مشكلة أخرى وهي أن مكينة المساج غير موجودة لدينا.

- هذه ليست مشكلة..سنرسل من يشتريها..من لديه قدم واحدة يدرك أهمية أن يكون للمرء قدمين. سكت هاني قليلاً ثم أردف سنعمل على شراء مولد كهربائي خاص بالمركز الصحي.. لقد فكرت في ذلك عندما رأيتك تقوم بتخييط سعدان على ضوء المصباح الغازي.

بعد أربعة أيام كان جهاز المساج والمولد الكهربائي بقوة عشرة ألف (كيلوواط) موجودين في المركز الصحي.

ما إن مضت الثلاثة الأسابيع الأولى حتى بدت علامات التحسن على أطراف سالم حتى صارت الساعات التي يقضيها الطبيب حامد في علاج سالم ممتعة، خاصة أن النتائج تظهر بوضوح، أصبح سالم يقوى شيئا فشيئاً على الوقوف معتمداً على نفسه وما أن مضت أربعة أشهر حتى كان يقوى على المشي لأمتار.

سالم الذي كان يتململ ويتبرم من العلاج أصبح سعيداً بقدومه إلى المستوصف، وانعكس ذلك حتى على هندامه وشعر رأسه الذي لا يعجبه إلا أن يكون مصففاً وغارقا في الزيت كحقول الأرز عند غمرها.

الحق إن الله لا يأخذ من أحد شيئاً إلا ويعوضه عنه، لذلك كان سالم ذكياً ولطيفاً، حتى إنه قال لحامد ذات يوم وهو يقوم بمعالجته:

- أسرع يا عم حامد أريد أن أذهب إلى المدرسة..!!

- ذلك أهم ما نريده لكَ يا بني..هل تعدني بذلك؟

نشأت بين سالم وهاني علاقة قوية كان هاني معجباً بجرأته وخفة روحه، حتى أن سالم يدعى هاني بالأعرج وكثيراً ما يساوم هاني في بيع أحدا رجليه وأحياناً يقول له: سوف أعيرك رجلي لتخطب بها زوجه لك وتعيدها إليّ بعد ذلك وبعد أن يتفقان على سعرها يقوم سالم بأخذ مسطرة وهو يقوم بتمثيل بترها وعندما يقول له هاني بأنها رجل معوجه يرد عليه سالم يكفيني بأنها رجل أصلية وليست خشبية.ويقوم بالضرب عليها موحيا بقوتها وأصالتها.أصبح سالم كثيراً ما يكون في قائمة المعازيم لدى هاني ويشتري له أجمل الملابس وإذا ما تأخر أو تغيب فإن هاني يذهب إليه وهو يدعي بأنه مدير أعمال هاني وانه موظفٌ مهمٌ لا غنى عنه، حتى أن سالم يقول لهاني بخفة روحه المعتادة ما رأيك لو فتحنا

نادياً للمعاقين وتتولى مهمة رئاسته، ويقوم سالم بترديد أسماء المعاقين في المنطقة ويقوم بتوزيع المهام عليهم.

*****

كان الطبيب ماراً بدراجته فاستوقفه في الطريق محروق كان يشكو له من ألآم مبرحة تتنقل في قدميه فكتب له الطبيب بعض الفحوصات الطبية، منها فحص روتيني لسكر البول والآستون وآخر لحامض اليوريك للتأكد من وجود مرضي السكر و النقرس وقد ذهب محروق لعمل الفحص في الشحر ولم يحضر هذه الفحوصات بنفسه بل اكتفى بإرسال نتائج الفحص إلى المركز الصحي ولم يحاول حتى استعادتها فبقيت في أرشيف المركز.



الفَرَح الحزين

من عادة أهل البادية في أطراف غيل بن يمين عندما يحتفلون بأفراح الزواج ويربطون عروستهم ليلاً - إشهاراً لقرانها - أن يقوم الرجال من علىَ بعد أمتار حيث يكون صف من يرددون (الزوامل) بإطلاق أعيرة نارية صوب رأس العروسة، ولكن بارتفاع زاوية لا تزيد عن ثلاثين درجة بحيث تنطلق الرصاصة في مسار متقوس، حتى لا تلحق أذاً بالموجودين أو السابلة عند سقوطها بشكل عمودي، ولكن خط مرور الرصاصة هذه لا يرتفع كثيراً عن رأس العروس والمحتشدين حولها من الرجال والنساء. وبهذا فلا غرَو أن يستغل أحدهم هذه الفرصة ليصوب بندقيته نحو شخص بعينه من المحتشدين بهدف قتله أو إصابته.

كانت المجموعة هاني وحامد وبدر ومريم قد حضروا حفلاً من هذا القبيل في منطقة (حِرو) التي تبعد خمسة عشرة كيلو متراً غرب منطقة الغيل، بجانب كريف[1] (باعمَر) فقد كان حينها مليئاً بالماء الوارد إليه في الأسبوع الماضي، تحف جوانب الكريف أشجار الصِّر العتيقة وارفة الظل مما يؤهله لأن يكون موقعا متميزاً لإقامة هذه المناسبة، حضر هذا الفرح

---

١) الكريف هو حفرة واسعة أو نقبة في الأرض يُحجز فيها ماء السَيل ليكون أشبه بالبحيرة الصغيرة (مصيَد مائي)

الكثير من الوافدين من المناطق الساحلية ومن الوديان المحيطة وقد نصبت الخيام لهذا الغرض. النساءُ يتخطَرن بملابسهن الزاهية ويجُـرَرن أذيالهن وقد طوقت سيقانهن بالخلاخيل الفضية وتقلدت أعناقهن بأوزان من الحلي الفضية التي تصدر رنيناً، لعل صوت رنات الخلاخيل مع نسمات الربيع –على الأرض الندية بزخَّات المطر التي طفقت تتساقط بشكل سلس وهادئ– يهيئ الشباب للشرح بعد المغيب، فعندما يبدأ الظلامُ يخيم على المكان، تكون هناك امرأة تستل من خيمتها لتنتزع خلخالها للتستر خلف شجرة من أشجار السمر أو القتاد أو خلف سنابل الذرة الشابة التي انتشرت في السهل الممتد إلى الشمال.

هناك رجلان يمُسك بأيديهما رجلٌ ثالث ليوَّفق بينهما ليشتري أحدهما من الآخر سيارة أو جمل أو أحزمة من العلف وربما قام هذا الدلال بقرص أذني المُتبايعين حتى يُنجز مهمته في أقل مدة، ثمة (قعيدة) افترش فيها الرجال حصيرة ،كانوا يحتسون القهوة ويتجاذبون أطراف الحديث، يتحدثون عن الأماكن والبلدات التي أصابها المطر الذي كان جواداً في هذا الموسم،يتحدثون عن ذرة الصيف التي زرعت في السهول المترامية وعن حجمها الذي فاق قبضة اليد وعن كيفية حصادها واستيداعها، وعن تسويقها في ضل إغراق السوق بها.

يقوم بين حين وآخر رجل يعتم بعمامة بيضاء ويتزر بالبياض ويطوق عنقه شالٌ صوفي أخضر، ليُلقي على الحاضرين مواعظه، اتخذ هاني موقعه في هذه الجلسة،لاشك بأن كثيراً ممن وفدوا إلى هذا المكان كان في برنامجهم أن يروا الرجل الحوت من أجل ذلك كان الحاضرون لهذه المناسبة أكثر عدداً. انتحى الشُعراء في هذه القعيدة رُكناً يطابقوا

أشعارهم على الألحان الجديدة التي يرد فيها ذكر الرجل الحوت غير أن هاني لم يلقِ لهذه البروفات بالاً، لذلك واصل الاستماع إلى الموعظة. هناك عدد من الباعة انتشرت خيامهم التي ينبعث منها رائحة الشواء من لحم الغنم والبقر والجمال، وللوافدين أن يتنقلوا ليختاروا هذه الروائح أو روائح أخرى جميلة تنبعث هناك من الزهور المتحركة بأثوابهن الزاهية وهنَ يتهيأن للشرح، يُطلقن ضحكاتهن التي تكون أشبه بصوت طيران الحَمامة حينما يداهمها قِطُ الجيران،كانت البهجة شائعة في الطبيعة وفي الناس، بدت الفرحة مرسومة على كل شيء وكأن الجميع قد تركوا همومهم وأحزانهم في منازلهم ليمارسوا البهجة والفرح في هذه الطبيعة المترفة بالسعادة، وكأن الطبيعة والإنسان هنا قد اتفقا دون علم الحزن على أن يسعد بعضهما بعضا.كل شيء كان جميلاً حتى إنك تجد الفرحة مرسومة على أوجه الجميع ذكوراً وإناثاً كباراً وصغاراً.

عند ما قاربت الشمس مخدعها أو كادت تلامسه، طغت على المكان أصوات الأعيرة النارية الحية والبنادق التركية القديمة التي تشحن بالبارود وتُكبس بوساطة قضيب من الحديد دون استخدام ذخيرة ليتم بعد ذلك توصيل فتيلها بالبارود لتحدث فرقعة قوية لغرض إشهار عملية ربط العروسة بعروسها.

كانت هناك حادثة مزعجة أربكت الفرح، جعلت البعض من الضيوف يغادرون إلى مساكنهم، وهي أن صبياً في الثانية عشرة من عمره، كان يلعب مع إخوته بأعقاب الأعيرة النارية (الخرطوشات) الفارغة المرمية على الأرض التي تخلفها الطلقات النارية، يقوم الصبية بجمعها - كان الصبي حينها يقوم بتعبئة هذه الخراطيش بـ(البارود) المصنع محلياً ثم

يقوم بإقفالها عن طريق طرق فوهتها بحجر (المَرو) وبينما كان كذلك انطلقت شرارة من الحجر لتُشعل الخرطوشة التي انطلقت في سرعة نفَّاثة من يده لتخترق عظمة القَص لديه ولتستقر في رئته. من أجل ذلك وفِدَ وفدٌ بحثيٌ من مدينة الشحر للنظر في الحالة التي صعب عليهم تصديقها، فهم لم يستوعبوا أن تخترق الخرطوشة من قعرها صَدر إنسان، حاول الطبيب أن يشرح للفريق من الناحية الفيزيائية هذه العملية مشبهاً ذلك بالطائرة النفاثة ولكن الفريق امتنع عن منح تصريح لدفن الجثة إلا بعد رؤيتهم للخرطوشة، فما كان من حامد إلا أن رجع إلى المركز الصحي ليقوم بعملية تشريحية لرئة الصبي الغضة المليئة بالمواد المخاطية اللزجة الناتجة عن دخول الجسم الغريب إليها، لم يتم الإمساك بهذه الخرطوشة إلا بعد أن فُتح صدر الجثة ،كل ذلك تم بمراقبة الفريق البحثي.

ما كاد الطبيب ينهي مهمته التشريحية حتى عاد إلى منطقة (حرو) ليجد أن الشخص الذي يقوم بحشو البنادق التركية العتيقة بالبارود قد انفجرت فيه، علبة البارود الكبيرة التي تزن كيلوجراما ونصف الكيلو لتحرق يده مع أجزاء من جسمه وذلك بسبب أن احد أصابع يده التي يحشو بها البندقية كان مضمدا برباط من الشاش الطبي ولعله عند ما كان يوصل الفتيل بغرفة احتراق البندقية لتفجير الحشوة علقت شرارة صغيرة في هذا الشاش وعند ما عادت يده ثانية لتلامس البارود الذي يحمل علبته بيده الأخرى عملت على تفجيره بالكامل.

في اليوم التالي للفرح وبعد إن حل الليل وقاربت الساعة الثامنة والنصف انطلقت حناجر الرجال بالزوامل التي تتخللها أصوات الطلقات النارية.

كان هاني في غاية السعادة لسبب أكثر أهمية له من هذا الفرح وهو أن قريبه محروق أصبح اليوم وعلى حين غرة ودوداً ليقطع القطيعة التي امتدت طويلاً،التي كان يتخذها من طرف واحد تجاه هاني وأسرته، حتى أنه كان لا يحضر أي من الولائم التي يقيمها هاني بشكل دائم ويتجاهل دعواته التي يقدمها له، وبرغم أن هاني يزوره في منزله إلا أنه حتى هذه الزيارات لا يلبيها بل أنه كثيراً ما يُرد عليه عند ما يطرق باب منزله بأنه في الخارج، في هذا المساء بدا أن محروقاً قد نسي كل ما كان يضمره لهاني، كان معه ودوداً أكثر مما يتوقع حتى أنه كان لصيقاً به في معظم حركاته. لقد طفق يعرف هاني على العادات القديمة في مراسيم الزواج،ويعرفه على الرجال الوافدين من المناطق الساحلية ومن المناطق الأخرى. أراد هاني أن يدفن الماضي في مقبرة جماعية دون فتح ملفاته وتفاصيله فكان أكثر سعادة من أهل الفرح أنفسهم لذلك ترك كل ارتباطاته وألغى قائمة الأشخاص الذين يعتزم مقابلتهم ولزم مرافقة محروق الذي أصبح يدور به حتى دخل به في زفة العروسة عند ما كان يتم رباطها وإرضاء لمحروق بقي لصيقاً به.

كان هناك شخص طويل أسمر اللون وأنيق في عقده الخامس تتمترس عيناه الواسعتان بنظارة (بيرسل) ذات إطار أسود سميك بزاويتين من الكروم اللامع، يلبس قميصاً (سفاري) بأكمام قصيرة، ويضع على وسطه حزاما من القماش ذاته، تعلوا رأسه كوفية زنجبارية. كان يسأل حامداً عن هاني، فأرشده إلى وجوده مشيراً بيده إلى حيث يكون، ذهب الرجل إلى حيث أشار له حامد. عند ما التقت عينا الرجل بعيني هاني اندفعا إلى بعضهما كما تندفعا قطعتي المغناطيس إلى بعضهما

عند تقاربهما،تذكره وتذكر اسمه،تذكر أخر لقاء جمع بينهما في الجامع في ليبيريا من قرابة عشرين عاماً وهي أخر جمعة صلاها هاني في ليبيريا قبل أن يعمل في البحر تذكر هاني أنه أقرضه مبلغاً من المال.

عندما بدأ في العناق الذي دام طويلاً أحاطه هاني بيديه ليحتضنه مُربتاً بهما على ظهره، وبعد أقل من دقيقة سمع هاني شهقة تصدر من حسين وشعُر بأن هناك لزوجة ساخنة في يده رفعها ليراها وجدها حمراء مضرجة بالدم القاني و في لحظة خر حسين من بين يديه كما تخر السلسلة المنفرطة، ليكون غارقا في بركة من الدم. انقطعت الزوامل وعمت الجلبة والتف حولهم الرجال والنسوة، ساد الهرج والمرج، جاء الطبيب وقد اعتقد في بادي الأمر أن هاني قد أصابه مكروه، انفرجت الزحمة للسماح للطبيب بمعاينة الحالة، جس نبض حسين ثم أخرج سماعته الطبية من حقيبته وفتح في قميصه زرين من أزرارها الكبيرة لتجد سماعته طريقها إلى صدره، سقطت من جيب قميص حسين رزمة من الأوراق النقدية ذات الفئة الكبيرة، لعله أراد أن يسدد بها دينه لهاني الذي استلفه من قرابة عشرين عاماً، طلب الطبيب إبعاد الجمهرة من حوله في حين حل هاني ساعته (الأوميغا) الفضية ووضعها على فتحتي أنف الرجل وطفق يراقب إن كان هناك بُخاراً قد تجمع على ظهرها المصنوع من (الإستيل) اللامع، كانت ملامح الطبيب توحي بأن الرجل قد فارق الحياة برغم عدم رده على الأسئلة التي كانت توجه إليه بهذا الشأن. أخذ محروقٌ هاني بعيدا عن مسرح الحادثة. كانت الرصاصة قادمة من بعيد ولم يعرف مصدرها ولم يعرف القاتل، ولم يعرف فيما لو كانت هذه الرصاصة طائشة أم أنها مسددة.

هل كانت الرصاصة على موعد مع حسين ؟ ليقطع كل تلك المسافة من بلدته ليلقى حتفه في هذا الفرح الذي صار حزيناً!!

حضر رجال البحث الذين كانوا متواجدين في مسرح الحدث، وجهوا لهاني بعض الاستفسارات، الحالة النفسية لهاني كانت سيئة،كان حزيناً على حسين الذي لم يأت إلا من أجله ومن أجل سداد دينه وجده حامد مازال برفقة محروق وبدا سارح الفكر وقد غادرته ابتسامته المعهودة،في حين كان محروق يخاطب الطبيب قائلاً:

– هل اطلعت على فحوصاتي التي أرسلتها إليك؟

– أجل اطلعت عليها.. لديك مرض النقرس ولديك ارتفاع في سكر الدم..لذلك عليك أن تخفف من أكل اللحوم والسكريات والنشويات وأن تستعيض عنها بالسمك والقمح.. أوراق الفحص لدينا في العيادة تستطيع أخذها أو إرسال من يأخذها..

– أجل لقد نصحوني بقائمة من الممنوعات عند ما كنت في الشحر ومنحوني بعض العلاجات..أجد نفسي الآن أفضل حالاً من ذي قبل.

ما زال هاني سارح الفكر لذلك ابتدره حامد قائلا:

– هل تريد أن نعود إلى المنزل؟

– أجل يجب أن نعود لننام.كان ذلك محروق يرد بالنيابة عن هاني.

– سننتظر قليلاً إن هناك حاجة لنا..لعل رجال البحث يحتاجون إلينا..لقد سهرت وتعبت كثيراً هذه الليلة..كم أتوق إلى كوب من الشاي.

– سأحضر لك كوباً من الشاي.كان ذلك محروق الذي نهض استعداداً لذلك.

- سأكون ممتناً لك.

كان حامد يتلفت فلما أيقن بأن محروقاً قد غادر بالفعل قال لهاني:

- يجب أن لا تكون وحيداً بصحبة محروق..

- ماذا تقصد،،هل تعتقد أن..؟

- يراودني شك في ذلك رغم إنه كان بجانبك حينها..لم تكن لحسين عداوات هنا..فهو لم يأت إلاَ ليسدد دينه لك..كيف يكون وقَعُ الخبر على ابنه المسكين؟

- ولكن الرصاصة قادمة من بعيد.

- هو مجرد شك..ألم تصف محروقاً بأن لديه ذكاء إجرامي..من أجل ذلك لن نأخذه معنا بأي حال من الأحوال يجب أن تكون على حذر منه..لا تجعل قرابتك به تؤثر عليك ألا يكفيك ما سببه لك من المشاكل؟

قام رجال البحث بإجراء تحرياتهم في الحادثة في مسرح الجريمة، طلبوا من حامد إخراج الرصاصة التي تبين لاحقاً أنها قد استقرت على مقربة من الأضلاع الأمامية بعد أن اخترقت عضلة قلب الضحية فكان أمر إخراجها صعباً لعدم توافر الأشعة السينية.

في صبيحة اليوم الثاني اجتمع هاني وحامد بأعيان المنطقة على وجبة غداء أعدها هاني بهذه المناسبة.

حضر رجال البحث في وقت مبكر إلى منزل هاني كانوا أول الوافدين، ناقشوا مع الطبيب بحضور هاني نتائج تحرياتهم على مسرح الجريمة وما تم جمعه في محضر الاستدلالات.

بعد إخراج الرصاصة تبينت أمورٌ كثيرة للاستدلال على بعض خيوط الجريمة، تبين حجم عيار الطلقة ونوع البندقية،وتبين من خلال

فتحة دخول واستقرار الرصاصة من الظهر إلى الصدر الذي يمثل فارقاً بمقدار واحد ونصف السنتمتر تبين أيضاً أن الطلقة قد صدرت من بندقية قنَّاص (بريتن) قام الجاني بمهمته هذه من على نخلة عالية نسبياً تبعد عن مسرح الجريمة بمائة وسبعين قدماً، وتبين أن هناك بصمات تركها القاتل تتمثل في حذائه الذي تركه قبل أن يلوذ بالفرار. كما اتضح أن القاتل شاب ذو شعر كستنائي فاحم طويل من خلال خصلة الشعر التي عَلقت بالنخلة خلال وقوعه من عليها. كما بينت وقعته على الأرض الندية أنه نحيف البنية خفيف الوزن من خلال آثار وقعته التي لم تغرس في الأرض السبخة آثراً عميقاً، قام رجال البحث بحفظ بصمات قدميه في الحذاء الذي تركه.

عمد حامد وهاني على إعداد مسودة وثيقة التزام بها جزاءات لكل من يقوم بإطلاق طلقة نارية صوب العروسة أو المرافقين لها وقت ربوطها (إعلان قرانها) في الأعراس المقبلة وقد تم التوقيع على هذه الوثيقة من قبل الجميع وتم الالتزام بها في هذه المناسبات. فرح رجال البحث الجنائي -الذين حضروا- بهذه المبادرة وأخذوا لهم نسخة من الوثيقة التي اعتبروها مهمة، ولكن الأهم من ذلك أنه لم يعد أحدٌ من القوم يطلق بندقيته في هذه المناسبات بعد ذلك.

بعد الوليمة أخذ هاني من الفريق البحثي تصريحاً بدفن حسين لغرض نقل الجثة إلى أسرة القتيل.

قال الطبيب : إنني أجد صعوبة في نقل خبر الوفاة إلى الطفل برك فصورته لا تفارق خيالي. من أجل ذلك اصطحبوا معهم الطفل سالم واستقلوا من فورهم مع هاني سيارة لنقلهم مع الجثة إلى منطقة الردود.

عندما كانوا في منطقة الردود على مقربة من منـــزل المرحـوم حـسين توقفت السيارة في ظل الجبل الغربي، وبقـي هـاني فيهـا ليقـوم بتحريـك الهواء بمروحة يدوية ليبقي الجثة باردة حتـى لا تـتعفن، في حـين ترجـل حامد وسالم من السيارة إلى منزل حـسين، كـان سـالم يحمـل جُمْلـة مـن الألعاب يريد أن يهديها إلى برك، قرعا باب المنزل الصغير، فـتح الطفـل برك الباب فرح كثيراً برؤية الطبيـب حامـد، ادخلهـما غرفـة الاسـتقبال الصغيرة ذات البابين الداخلي والخارجي.

- كيف حالك يا ابني ؟

- بخير.. أهلاً بعمي الطبيب

هذا هو صديقي سالم..نريد زيارتكم..سيكون سالم صديقك أيضاً.. هل يروقك ذلك؟

- بالتأكيد.. أهلاً بكما..ولكن أبي ذهب إلى غيل بن يمين لزيـارة صـديق قديم له.. توقف الطفل عن الحديث، نهض إلى باب الغرفة الداخلي وهو ينادي على أمه:

- أماه لدينا ضيوف..أنه عمي الطبيب وصديقه سالم.

أتت أم برك ترحب بضيفيها من خلف الباب الداخلي للغرفة. كانت تقول:

- لو كان حسين هنا سيفرح بكما كثيراً ولكنه ذهـب إلى غيـل بـن يمـين ليسدد ديناً عليه هناك..وليرى شخصاً يعزه كثيراً.

- سوف أترك سالم لديكم وأعود إليه بعد قليل.

كان الطفل سالم ذكياً، اسـتطاع بلباقتـه أن يخلـق - خـلال لحظـات وجيزة- علاقة وألفة حميمة مع هذه الأسرة، أعطى الهـدايا التـي يحملهـا

إلى صديقه الجديد برك، وجمع ما يكفي من المعلومات عن هذه الأسرة وقد تبين انه ليس لهم في هذه المنطقة قريب مباشر.

عاد هاني وحامد إلى الغرفة الصغيرة وقد التقيا بسالم.

كان سالم ينادي على أم برك، وعند ما أتت إلى جانب باب الغرفة الداخلي كان حامد يقول:

- إنني أصطحب معي صديق حسين القديم الشخص الذي ذهب إليه ليسدد له دينه.. إنه هاني باعلي.. تستطيعين أن تعتبريننا أسرة واحدة. لقد انتاب السيدة أم برك نوع من الارتباك والحيرة والقلق وهو ما أراده حامد وهاني لإيصالها بشكل متدرج إلى مرحلة نفسية تتقبل فيه الخبر الذي سيسوقانه إليها.

- ألم تأتوا من غيل بن يمين ؟

- بلىَ..ولكننا نريد أن نخبرك بأنك تستطيعين الاعتماد علينا في كل ما يلزم قبل أن ننقل لك خبراً سيئاً.

- هل حصل لحسين مكروه !!

- لا ندري ماذا نقول لكِ ؟!

- أين هو ؟

- تجلدي..وتذكري بأن حسين صديقي عند ما كان في أفريقيا وأحمل في قلبي له كل معزة وتقدير..لذلك ستكونين مع برك في رعايتي.كان ذلك هاني الذي بدا مطأطأ رأسه مسنداً ما بين حاجبيه على إبهامه..وأردف كلنا ننتظر هذا اليوم.

- هل مات حسين ؟

- كلنا سنموت عاجلاً أم أجلاً..كذلك هي حال الدنيا.. تصبري يا أم برك وعظمَ أجرك في صديقي حسين.

أجهشت أم برك بالبكاء. في حين التصق بها سالم وتبعه برك.

نُقلت الجثة مباشرة إلى جامع منطقة (الردود) وتمت الصلاة على حسين عقب صلاة العصر بحضور جمع من أهل المنطقة الذين بدا الحزنُ على وجوههم،كانوا يتحدثون عن حُسن تعامل الفقيد وصدقه معهم، يتحدثون عن الابتسامة التي لا تفارق محياه بشي من الحسرة،كانوا يتحدثون عن سماحته المتناهية في البيع والشراء.



مشاعر

في أحد أماسي الربيع كان هاني يجلس كعادته في فِناء المنـزل بالجهـة الغربية المطلـة عـلى الغـدير مرتـدياً طاقيـة زنجباريـة بيـضاء ضـاربة إلى الصفرة مطرزة يدوياً بعناية، بدت كأنهـا قـرص عـسل دَوعَنـي[1]، كـان يرتدي قميصاً من القطن وإزاراً بُني اللَون. وقد بـدا إلى جانبـه مظـروف متوسط الحجم قمحي اللون من ورق (الكَاكي) كُتبَ عليه بخـط والـده (خطابات الولد هاني) كانت ملامـح وجهـه يرتـسم عليهـا الكثـير مـن الحزن والمرارة والاندهاش وهو يقرأ تلك الخطابات التـي أخرجهـا مـن المظروف بلغ به ذلك إلى أن ذرفت عيناه دمعتين،كان يزم شفتيه ويقطب عن حاجبيه. بدا ممتقع اللون شاحِبُ وكأنها تمر بوجهـه أطيـافٌ مـن الألم والنكد. الخط الذي كُتبت به هذه الخطابات يشبه خطـه، التوقيـع عليهـا يشبه توقيعه.

أثارت لديه هذه الرسائل جملة من الهموم والأحزان وأثارت جِراحـاً كادت تندمل، بلغ به الهم مبلغاً كبـيراً ليبـدوا متـوتر الأعـصاب، طفـق يُساءل نفسه بصوت مسموع. حتى أن مريم اعتقدت بأنه يناديها، لـذلك حضرت إليه من داخل المنزل.

---

١) نسبة لوادي دوعن الذي اشتهر بإنتاج العسل عالي الجودة

- هل أصنع لك شيئاً؟

- شكراً يا مريم..سكت برهة ثم أضاف: ولكنني أريد، أن أسألك..هل تعرفين شيئا عن هذه الخطابات ؟

- أي خطابات؟

- خطاباتي لأبي هذه..

- لا أعرف عنها شيئاً.

- انها خطابات في منتهى الغرابة... تصوري انها تصورني جحوداً وماجناً وعربيداً وعاقاً وسيئ خلق... سوف اذهب بها إلى الشحر للتأكد من كاتبها جنائياً

- حسبك أننا لا نصدق ذلك.. هون عليك يا هاني.

- . كيف صدقها أبي عليه الرحمة. ما أن ورد ذكر اسم أبيه على لسانه حتى تغيرت نبرات صوته و خنقته العبرات حتى أن مريم أشفقت عليه.

- وهل يجديك ذلك...هوِّن على نفسِك وأعتن بها وبأمك يا هاني...لو كنت أعرف ما فيها لحرقتها كي لا تنغص علينا صفونا.

- إنني أسائل نفسي هل عشتُ فترة انفصام؟ هل فقدت يوماً ذاكرتي؟..هل كنت في يوم ما سيئاً إلى الحد الذي كنت أتخاطب مع أبي بهذه اللغة وهذا الأسلوب، أم أن محروقاً قد استعان بزوجته الليبيرية التي سجنت بسبب تقليدها للعملات؟...لا شك بأن محروقاً قد استفاد من خبراتها في التزوير.. ولكن تاريخ بعض هذه الخطابات يعود إلى ما بعد طلاقه منها!

آه..كان يلفظ زفرة قوية وكأنه قد استجمعها من أعماقه، ليردف قائلاً:

كم يحمل محروق هذا من قدرات وطاقات ولكنها شريرة..

- لعله صنع ذلك من أجل الوقيعة بينك وبين أبيك!..أتذكر انه لم يحضر حتى لتعزيتنا بوفاة والدك رغم أنه والدك كان يحبه كثيراً!

- لا أشك في أنه صنع ذلك من أجل الوقيعة بيني وبين أبي...تصوري لقد تبين لي بالصدفة في ليبيريا انه كان يحجب عني خطابات أبي..سكت برهة ثم أردف كمن أستذكر شيئا: لعله كان في المقابل يخاطب أبي نيابة عني منتحلاً خطي وتوقيعي..

كان هاني يبذل جهود الجبابرة ليسيطر على غضبة وترويض أعصابه التي بدت كالخيل الجامح.

- هل تبلغ براعة التقليد عند محروق إلى محاكاة خطك وتوقيعك؟

- ذلك ما يحيرني.. سوف اذهب بهذه الخطابات إلى الشحر للتأكد من مصدر هذه الخطابات.

- دعك من الماضي واحمد الله ان نجَّاك من محروق وحبائله الشريرة.. سوف أصنع لك كوباً من القهوة..لا تفكر في هذه الخطابات السخيفة لن تجني منها إلا النكد.

- ولكن كيف صدَّق أبي ما فيها؟

- كان أبوك عليه الرحمة في سنواته الأخيرة ضعيف النظر لعل القراءة استهلكت نظره حتى أنني أقرءا له كل يوم بعد صلاة العصر في بعض كتب الفقه والسيرة أما القرآن فهو يحفظه.

خشي هاني من أن تعيده سحابة الهم هذه التي جثمت فجأة على صدره إلى أيام الهَّم والحزن التي هرب منها إلى البحر. من أجل ذلك أعاد تلك الرسائل إلى المظروف الكاكي وأخذها إلى داخل المنزل وعاد

بخطابات أخرى هي تلك التي تسلمها مؤخراً من إيزابيلا عبر بريد مدينة الشحر، قام بفك مظروفها، ما زالت رائحة عطرها الباريسي المميز باقية فيها.شرع في قراءة خطابها الأول الذي كانت تقول فيه:

حبيبي الغالي هاني:

عندما أكتب إليكَ كلماتي وعباراتي، يجب أن أمر قبل كل ذلك بطقسٍ أو عشق من نوعٍ ما، سمه ما شئت...يجب أن تتولد قبل ذلك علاقة حميمة بين أناملي والقلم..ليذوبا بعد ذلك في بعضهما وتتماها العلاقة فيما بينهما، ليستمرا على ذلك طويلاً..إلى أن تتوقف (شهرزاد) عن الكلام.

ينتج عن كل ذلك سيلان القلم على الأوراق فتتولد تلك الكلمات التي تأخذ مني ومن القلم معاً خصائصها، ومعانيها، ومداركها، وبصماتها، ولغتها.

لذلك تجدني في أحيانٍ كثيرة لا أستطيع فهم تلك الكلمات، لعدم ارتقاء مناسيب فهمي إليها. بيد أنني بعد ذلك لا أرسل إليك إلا ما تستوعبه مداركي وعقلي الباطن ووعيي الذي يغيب عنِّي عند ما أمارس شهوة الكتابة إليكَ.

عزيزي هاني:

في أول أيام الربيع كنتُ نائمة كعادتي في غرفتي.. كان الوقت قبيل الفجر حينما هبت من بلكونة غرفة نومي نسمة من جهة الشرق تحمل رائحة فيافيه وجباله ووديانه وسهوله وهضابه وحصونه وأطامه وحضارته الرائعة المعجونة برائحة عطرك الشذي، حتى أن زهور البنفسج التي وضعتها أمي في المزهرية الرخامية -على الشرفة- قد

تمايلت، أما ستارة نافذتي فقد استحالت إلى ما يشبه شراع سفينة مبحرة، فأطللت من البلكونة لأجد إن القمر يتراقص على ضفة نهر غولدا الشرقية فينعكس ضوءه على صفحة النهر... كانت هذه هي أول نسمات الربيع، استشعرت بأنها مرسلة إليَّ بشكل مخصوص...فقلت في نفسي: لا شكَ بأن هاني قد أرسلها..لذلك أحببت أن أفيدك باستلامها لترسل لي المزيد !

يخالُ لي حينها أن تلك المشاعر التي انتابتني هي مشاعر (الملكة بلقيس) عند ما استيقظت لتذهب إلى شرفتها لتتسلم الخطاب الكريم.

حبيبي هاني :

لقد وقفتُ في الشرفة حينها أسامر القمر، أبثه شوقي ولوعتي لينقلها إليك وكلي أمل بأن تكون لهُ مسامراً..لتتسلم قبلاتي التي أودعته إياها وهي طازجة محملة بحرارة شوقي إليك...جلستُ كذلك ملياً... بعدها عدتُ إلى فراشي بعد أن لففت ملاءة السرير على جسدي وأغرقت وجهي في الوسادة كما تنام قطتنا المدللة (نوسة) على فراشها الناعم. لأنعم بأحلام وردية جميلة لم يوقظني منها إلا أمي وهي تناديني بصوتها الحنون لأصنع قهوة الصباح.

ما ان ختم هاني قراءة هذه الرسائل حتى طلب من مريم إحضار قلم وشرع في كتابة خطاب إلى إيزابيلا:

عزيزتي إيزابيلا:

بدايةً دعيني أصف لكِ الطبيعة من حولي في منزلنا على ضفة النهر فهي تُشذينا بأزهارها، وتُسمعنا أطيارها التي تتنادى بالرحيل إلى مهاجعها..

تقف أمامي على سعفة النخلة الآن(فاختة النخيل) تغـرد باسـتمرار بإيقـاع سـلس حـزين.. يبعـث تغريـدها في الـنفس نوعـا مـن الرهبـة والخشوع، يرغم سامعه على أن يصيخ السمع إليها.. لعلها تتلو أورادهـا المسائية. وهنا طيور القنابر التي انتشرت واختلطت تغاريدها وتسابيحها المسائية ببقية ترانيم الطيـور..في اعتقـادي أن هـذه الـساعة تـسموا فيهـا الـروح لتكـون قريبـة مـن خالقهـا.. يتملكنـي هنـا شـعورٌ أن صـلاتنا ودعواتنا نحن بني البشر في غالبية الأحيان تكون مردودة وغير مقبولة لما نرتكبه من الآثام ولما أفسدنا به الفطرة التي فطرنا خالقنا عليها في حـين لم تقترف هذه الطيور والهوام و الحيتان آثامنا ولم تقم بإفساد الطبيعة في الـبر والبحر والجو كما أفسدناها نحن بن البشر، لـذلك فـان البحـار والقفـار والسماء -التي لم يلوثها الإنسان بآثامه مواطنُ يستجاب فيهـا الـدعاء لمـا تتمتـع بـه مـن عذريـة... إنهـا سـيمفونية جميلـة أستـشعر في حـضرتها بالطمأنينة والأمان والتحرر من الأوزار وبذلك ويتملكني شعور بقبـول الدعاء وأستشعر القرب من الله.. بعيـدا عـن عالمنـا الـذي طغـت عليـه المادة..فتجدينني ادعوا الله أن يجمع شملنا وأن يشفي أمـي ويعيـد إليهـا بصرها وأن يعوضها الله في عن سنوات الماضية.

لا أخفيك عزيـزتي إننـي اليـوم وتحديـداً قبيـل أن أكتـب لـكِ هـذه الأسطر كنت قد فُجعتُ بفاجعة كادت تنكي جراحي كادت تعيـدني إلى المربع الصفر.. إلى الأزمة النفسية التي جعلتني أهرب من اليابسة وأنسى كل شيء فيها...

صغيرتي :لقد انتابتني اليوم مشاعرٌ لم أشعر بهـا البتّـة إلا ذلـك اليـوم الذي صممتُ فيه على مغادرة اليابسة بكليتها إلى البحر ولتصبح طبـاعي

بعد ذلك طباعاً بحرية، ولكنني اليوم سرعان ما عرفت ترياقي فهرعتُ إلى خطاباتك لأقرأها حرفاً حرفا ولكن قبل أن افتحها سبق إلى خياشيمي رائحة عطرك (كيلوباترة)..ما زالت خطاباتك تحتفظ بها كهوية رائحية، أدركتُ الآن بأن سلطانك عليَّ هو أقوى من سلطان كيلوباترة على مملكتها، فسرعان ما تبدد تشاؤمي، وتهللت أساريري، وأُنير واتسع نفق ظلامي، وانزاحت غشاوة لُبي، واستشعرت حضرتك وكأنك بجانبي تتلين عليَّ خطاباتك... فكانتِ خير بلسم لهمومي.

حقاً عزيزتي لا يمكن لأسطر يكتبها بشر أن تمنع أزمة نفسية توشك أن تصرع شاباً طاف بهذا العالم كدحاً ولم تتحقق له أماله في هذه البسيطة بعد..بل لم تكن له في الحقيقة آمال يصبوا إليها قبل معرفتك، ولكنه كما علمني أبي بأن ما يصدر من القلب يوقر في القلب... تستطيعين أن تقيسي على ذلك يا صغيرتي أهمية خطاباتك بالنسبة ليَّ.

لقد عهدتيني موحِّداً وما زلت كذلك رغم أنني أصبحت أمارس طقوساً في العشق!! فتجدينني في منتصف الشهر القمري عند ما يجن الليلُ ويهجع الناسُ إلى مهاجعهم أجلس متقرفصاً على سطح منزلي.. أنظر إلى القمر عند ما يبزغ من بين سعفات النخيل الباسقة إلى أن يكون في كبد السماء، وأحشد خيالي مثل راهب بوذي يمارس (اليوجا) حتى تتشكل صورتك عليه، فأجلس على ذلك الحال حتى يغيب القمر خلف الجبل وقد حمل إليكِ أشواقي وصبابتي... ألم يُبلغك القمرُ ذلك؟

كيف تكونين حبيبتي ؟...هل ما زلتِ تصنعين القهوة لأبويك وهما يستحمان بضوء القمر في شرفة منزلك على نهر (غولدا)؟

كيف تكون قطتك نوسة؟.. هل ما زالت تؤثر لنفسها كل ما نَعُم ملمساً من الفراش؟..وكيف تكون شجرة الصفصاف في حديقة المنزل؟ أمازالت تنموا؟...ألم ينموا عقلها بما يتناسب مع جسمها؟.. أما زالت تتطاول بأذرعها لتمنع مصراعي نافذة غرفة نومك من أن يوصَدا؟...أصبحت أغير منها، وأغير من نسمات الشتاء الباردة وهي تسرق دفأها من غرفة نومك.

عزيزتي:

تصوري أنهم يدعونني هنا بـ(الرجل الحوت).. ألا تشاطرينني الرأي بأنها تسمية موفقة؟..تعجبني هذه التسمية كثيراً، ألا تتذكري أنني أطلقتها على نفسي في بداية تعارفنا؟.. عند ما أكون ماشياً في الطريق يدعونني الأطفال هنا بـ(الرجل الحوت) لا أجد ما أكافئهم به على ذلك إلا أن أضع في جيبي قطعاً من الحلوى وأمنحها لهم وأحملهم على كتفي. وقد وتوطدت صداقتي بأحدهم وهو (سالم) يقارب السادسة من عمره، سوف أحدثك عنه في خطاب آخر، كما سأحدثك بالمزيد عن الأصدقاء. الطبيب حامد الذي استطاع أن يكون طبيباً موفقاً وأن يكون فناناً تشكيلياً بارعاً فهو من أكثر الناس إخلاصاً وتفانياً لعمله وحباً لمرضاه، حتى انه أصبح بمثابة الأب لكل أهل المنطقة...إن مرضاه يستشعرون بالعافية والأمان بمجرد رؤيته. لقد كان في زمن (تيهاني) أكثر من يعود ويواسي أمي يشاركه في ذلك الشاب الودود المخلص بدر ابن عمي و شخص آخر اسمه سعدان وهو أيضاً متعدد المواهب ولا أجد له نظيراً في ضرا فته وقدرته على اختلاق النكتة من العدم..

لن أطيل عليك عزيزتي.. سأحدثك عن كل هؤلاء بإسهاب في رسائل لاحقة.. إن رفقتهم ممتعة ومفيدة.

يصعب عليَّ كثيراً ختم خطاب تكون وجهته إليك ولكنني سوف أختمه بقطرات من عطري (بروت)...استودعك الله حبيبتي.

المخلص المشتاق/ هاني سعيد با علي

غيل بن يمين

كان هاني ينادي على مريم قائلاً:

- مريم.. لو سمحت هناك عطر في قنينة خضراء طويلة في غرفة نومي.. أحضريها.

كان صوتها يأتيه من الداخل ممزوجاً بروح النكتة والدعابة لتغلُب هاني على الأزمة النفسية التي ألَّمت به جراء تلك الخطابات :

- هل العطر هذا بطربوش فِضِّي وعلى رقبته قلادة فضية ؟

أجابها ضاحكاً وقد بدا على محياه الانشراح والبُشر

- نعم..ستجدينه بجبته الخضراء مُسجا في كفنه الزجاجي.!

عادت مريم تحمل العطر في علبته الزجاجية المتكونة من شطرين أشبه بالتابوت وهي ضاحكة قائلة :

- هل قررت لحدة ؟

- ولكنه سيذهب إلى النعيم...سوف أرسل قطرات من روحه في الخطاب الذي كتبته إلى إيزابيلا!



رحلة إلى منطقة الخَنطْ

كثيراً ما يذكر الجُلاس الثلاثة في مجالسهم، الصيدَ للأرانب و الطيور والوبران والدجاج البري أما الظباء والوعل أو التيس البري فأن صيدها تحكمه أعراف صارمة وتقتصر مدة الصيد فقط على فصل الشتاء.

لذلك عقدت المجموعة العزم على القيام برحلة من هذا القبيل، إلا أن كثرة الضيوف المترددين على هاني من غير سابق مواعيد، ولانشغالات الطبيب حامد في مهام التطبيب، حال كل ذلك دون قيامهم بهذه الرحلة.

عند ما وصل الطبيب حامد إلى منزل هاني. كانت الشمس وقتها تحث خطاها إلى مغربها مستعجلة هجوعها، وقد بدت السماء -التي تتشح بعض السحب الخفيفة- برتقالية اللون أشبه بنار تلتهم الأفق من خلف النخيل في الجهة الغربية، وبدت تحلُّ الظلمة سريعاً تحت أشجار النخيل المحيطة بالمنزل.

أحضرت مريم نوع من التمر (السقطرَاي) اللذيذ، في حين كانت قد أعدت قهوتها التي فاح شذاها ليمتزج برائحة الأزهار من حولهم.

في هذه الأثناء توقفت على مقربة منهم بين النخيل في الجهة الشرقية سيارة شحن عتيقة نوع (ايزيزو) ذات مقطورة خشبية وهو النوع الشائع

من الناقلات التي تُعهد في المنطقة، ترجل منها رَكبٌ بَدَوْ قادمين إلى مجلسهم في حين تُركت السيارة فاغرة فاها الذي أصبح مكشوفاً، ليبرد محركها لتبدوا أشبه بكلب يلهث مُستجمعاً أنفاسه بعد رحلة صيد طويلة، هدير محرك السيارة الذي يعمل لهذا الغرض حَرمَ المجموعة سماع خرير ماء النهر الذي يرتطم بالصَّفاة وأصوات العصافير.

يحمل الوافدون طفلة لم يطمس احمرار جسمها جمالها، ملامح مرض الحصبة فيها من السهولة بمكان تشخيصه، بعد أن عبث بوجهها واحتقنت شفتاها وانتفخت عيناها واحمرت مثل بقية جسمها، عُرفت الطفلة من خلال المرافقين أنها من منطقة الخَنطْ،التي أصبحت منطقة موبوءة بوباء الحصبة، كان عليَ الطبيب العودة إلى المركز الصحي الذي كان قادماً منه لتوه، فهو يخشى أن تنتقل العدوى إلى المنطقة وتخلق له مشكلة صحية هو في غنىً عنها، لذلك عمد إلى معالجة الطفلة سريعاً.

بعد عودة الطبيب إلى هاني كان الحديث يدور عن الحصبة، وسرعة وخطورة تفشيها:

- أليس من الأجدر محاربة الحصبة في عقر دارها حتى لا تأتي إلينا...قال ذلك هاني؟

- حريٌ بنا أن نفعل ذلك فعلاً.. رغم أنه ليس بالأمر الهين.

- ما رأيك لو ذهبنا إلى منطقة الخَنطْ.. سوف أتبنى تمويل هذه الرِحلة.

- ولكنني أخشى أن تكون أنت أحد ضحاياها.. فالحصبة أكثر وطأة وخطورة على الكبار منها على الصغار.

- تقصد أن تُعديني؟.. أليست هي من أمراض الطفولة؟

- بلى.. ولكنها لا تستثني من الكبار إلاّ من سبق لها زيارتهم صغاراً أو تم تطعيمهم.. هل سبق لكَ ذلك؟.

- لا علم لي.. ولكن أمي بلا شك تعرف ذلك.

أدارت مريم لهم القهوة وهي صامتة لا تنبس ببنت شفة بيدَ أنها عندما سمعت ذلك تدخلت في الحديث، قائلةً:

- أتذكَّر أن الحصبة أصابتني وعمري حينها ست سنوات وقد أصابتك أيضاً، حينها كنتَ رضيعاً.

- أمتأكدة من ذلك؟. كان هاني يقول ذلك بعد أن ارتشف جرعة من قهوة مريم الشذية، كان يرتشفها بصوت مسموع، على الطريق التركية.

- كأنني أراه أمام عيني.. كان جسمه أحمراً أشبه بـ(الثَّمد)(١).

****

في صبيحة اليوم التالي كان الطبيب حامد وأحد مساعديه وهاني يتهيئون للسفر إلى منطقة الخَنطْ البدوية.

هناك طريقان يؤديان إلى هذه المنطقة، طريق غربي بعيد، وهو الأقل وعورة، ويسلك الجبال، وآخر شمالي وينطلق من أسفل قارة حبشية التاريخية وهو الأقرب، غير أنه كثير الوعورة كونه يسلك الوادي المليء بأحجار المسيلة المتكورة كبيض النعام بفعل تدحرجها لملايين السنين في الوادي. كان خيارهم قاسياً حتى على السيارة اللوري التي تقلهم، كانوا يسمعون أنين ألواح مقطورتها الخشبية طول الطريق.

عند ما علم المسئول الأمني في غيل بن يمين بهذه الرحلة نصح حامداً باصطحاب مرافقاً أمنياً في رحلتهم يكون دليلاً لتلك المسالك ويتولى مهمة حراستهم، وبعد أن وافق حامد على العرض تم تعيين

---

١) سمك التونة الأحمر.

شخص يدعى (النُّوه) وهو من قبيلة الحموم التي تسكن الجهة الشمالية وهو أحد الأفراد الأمنيين الذين يعملون في مركز (ليون) للشرطة وتعني كلمة ليون بالأسد وهذا الاسم أطلقته بريطانيا على هذا المبنى. وكان هذا المبنى في الماضي من أهم مراكز جيش البادية.

النُّوه يعرف طرق ومسالك هذه الجهات علاوة على انه قناص بارع وحسن الرفقة.

أخذوا معهم بندقية صيد رَش نوع (شوزن) تُلَقَم من وسطها الذي ينثني كركبة الإنسان، لها خرطوشة كبيرة بحجم إبهام مزارع أعلاف، بداخلها مائة شَظِيَة كل واحدة أكبر حجماً من حبة الدُخن الصغيرة، قام بدر خلال استراحة الإفطار بإطلاق هذه البندقية على سِربٍ من الحمام البري الأشهب اللون في بيدرٍ لسنابل الذرة بأطراف الغيل، فأردى عدداً منها، أشعرهم ذلك بوخز الضمير على بشاعة هذه الفعلة، وعندما كانوا يأكلون لحمها بعد طبخه كانت تعترض هذه الشظايا الرصاصية الصغيرة أسنانهم ومطاحنهم عند المضغ مما يشبعهم تنغيصاً.

****

كان بدر يحدث هاني وحامد عن مقدم الحموم الذين يسكنون المنطقة موضوع وجهتهم، وكان هو وحامد يبديان إعجابهما كثيرا برجاحة عقل المقدم، وشهامته، وكثرة رماده، وحسن تدبيره، وتغلبه على كثير من الفتن، واستعانة القبائل الأخرى به في حل الكثير من المنازعات بينهم. لذلك سأل هاني (النَّوه) :

- هل المقدم موجود في الخَنطْ؟

- لقد تزوج المقَّدم قريباً في منطقة (حميرات) وربما يكون هناك.

- وهل تبعد حميرات هذه كثيراً عنا؟
- إنها في وادي (نحب) على الطريق..على بُعد نصف ساعة تقريباً.
- إذاً سنمر عليه ونطلب منه اصطحابنا.
- سيسُره ذلك كثيراً.

*****

عندما كانوا يجتازون احد الوديان الصغيرة وجدوا على الطريق الجبلي (نبعاً) ينبعُ من الجبل يتجمع ماؤه في برك طبيعية تَرِدُ إليها السباع وبقية الحيوانات في هذه البراري لتشرب منها، كانوا يريدون تعبئة أسقيتهم، عندما دلفوا إلى هذا النبع الذي يحتل فرجة في الجبل. وجدوا هناك غزالة فأصابها النَّوه ببندقيته في رجلها الأمامية ليكسرها مما أعاقها عن الهرب فتداركها ليمسك بها ويأتي بها إلى المجموعة، تذكر هاني حينها مجزرة الحَمام البري في رحلة القدوم. كانت هذه أُنثى وتحمل بطناً كبيرة، اعتزم هاني تجبير رجلها ولكن النُّوه قال:

- إننا سنذبحها لا داعي لتجبيرها.
- ولكنها حامل.
- من أجل ذلك لم أصبها إلا في رجلها.
- هل تبيعها لي بأربعين ديناراً؟
- نعم أبيعها ولكن بخمسين ديناراً.

حاول حامد وهاني تجبير رجل الغزالة إلاّ أنها لم تقر لهما، فأعطيت حقنة (الفاليوم) في الوريد وتم بعد ذلك تجبيرها، وتركت في ظل الجبل على مكان مرتفع، أحضروا لها بعض حشائش النبع وشيئاً من مائه وواصلوا رحلتهم صوب غيل بن يمين.

عند ما كانت سيارتهم تنحدر بهم في وادي (نجِب) أحد الروافد لوادي غيل بن يمين كانوا يسمعون طقطقة على سقف مقصورة السيارة توقفوا عن السير وقال لهم النُّوه:

- في هذه المنطقة (صروم)[1] المقدم.. هل يوجد لديكم (دوربين)[2] لمعرفة موقعه على وجه التحديد.

- أجل لدينا.. قال ذلك بدر وهو يخرج من حقيبته جسماً أشبه بالعلبة المستطيلة مصنوع من النحاس ومطلي بالجلد الذي زاده تداول الأيادي سواداً، قام بتسليمه إلى البدوي غير أن النَّوه لم يعرف استخدامه لذلك عمد بدر على مط ذلك الناظور كما يمط (أنتنا) الترانسستر ليصبح طويلا وجاهزاً للاستطلاع.

ارتسمت على وجه النَّوه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- ناظورك هذا الذي يكبر عند الحاجة ويصغر عند ما لا تكون له حاجة غريب!..

- ألم ترَ مثله ؟

- بل رأيت ما يشبهه.. لعله أشبه بما بين رجلي الحمار..

كانت المجموعة تضحك من طرافة النَّوه.

- إن عملية تسديده على الهدف هي أشبة بتسديدة البندقية.

جال النَّوه بالناظور في الجبال المحيطة غير أنه لم يرَ شيئاً، لعله لم يستطع استخدامه.

---

١) الصُروم هو مكان تواجد البدو الرحل.

٢) الدوربين هو الاسم الذي يطلقونه البدو في هذه المنطقة على الناظور المقرب ويمثل الناظور ضرورة في حياتهم اليومية

قام بعد ذلك بإطلاق ثلاث طلقات من بندقيته. وما هي إلاّ ثوان حتى سُمعت أصوات ثلاث طلقات من جهة الشرق. شرع النُّوه في ترديد أغنية بدوية لعل كلمة (صروم) ذكرته بها أو لعله أراد تثبيتها في أذهان رفاقه:

- سَد القبائل دُعوني قَبيلي
عارف الشِّعب ومحلتي في الجبل
والقبيلة بالشهامة ما تقع بالوصف
كل من لقاله (صروم)

بعد عشر دقائق جاءت سيارة المقدم لمرافقتهم في رحلتهم. وقال لهم:

- ربما نمر في طريقنا ببعض صروم البدو.. لذلك سنكون خلفكم.. سنلحق بكم لن نتأخر كثيراً عنكم.

****

عند ما كانت المجموعة تجتاز الهضاب الجبلية في طريقها إلى منطقة الخَنطْ فوجئ من في مقصورة السيارة بسماع طلقة نارية تنطلق من شاحنتهم. طلب هاني من السائق إيقاف السيارة لتبين الأمر.

- ما الأمر؟..من أطلق النار؟

توقفت السيارة وخرج الطبيب من مقدمتها. كان النُّوه يقول وهو يغادر السيارة بسرعة الريح:

- أنا أطلقتها.. لقد أصبت وعلاً.

خرج هاني من السيارة غاضبا عند سماعه ذلك وهو يقول:

- لا نريد النُّوه مرافقاً لنا بأي حال من الأحوال..أين ذهب..ألا يعلم أن رحلتنا هذه من أجل الحياة وليس من أجل الموت.

بعد ربع ساعة عاد النُّوه إليهم وهو يحمل على عاتقة تيساً برياً ضخماً ينؤ بحمله عليه قرنان في غاية الكبر وقد اتسخت ملابس النوه وغطى جسمه دم الوعل.

كان هاني يقول له :

- أحسبت أننا في رحلة صيد ؟ لقد ارتكبت غلطة كبيرة.. ليس من أجل هذا كانت رحلتنا.. كان عليك أن لا تفعل ذلك إلا بموافقتنا.. أنت لم تكن وحدك في السيارة.. لذلك عليك أن تستشير رفاقك..كذلك هي شروط الرفقة.

- انظر إلى قرونه.. أنه وعل كبير السن أنظر إلى عجرات قرنه إن عددها عشرون عجرة.

- لا تهمنا عجرات قرنه.. ما يزعجنا أنك أخليت بشروط الرفقة للمرة الثانية ولا نستطيع أن نصبر على أفعالك بعد هذه

توقفت بجانبهم سيارة المقدم وترجل منها المقدم وقد علت وجهه ابتسامة عريضة وهو يقول:

- من البطل القنَّاص الذي اصطاد هذا الوعل؟.
- النُّوه أصابه... لقد قررنا بأن لا يرافقنا.
- انه بفعلته هذه يستحق التقدير.
- هل تقول يستحق التقدير؟
- أجل.. لقد حرر القطيع من هذا الوعل الهرم.
- كيف يكون ذلك؟

- الوعل الهرم يمنع إناث قطيعه من التـزاوج مـن غـيره مـن التيـوس الأخرى.. لذلك وجِدَ في منطقتنـا نظـام القنـيص لتحريـر القطيـع مـن سيطرة الوعل الأب الذي تكون مقدرتـه عـلى التـزاوج ضـعيفة، فيقـوم فريق القنـيص في الـشتاء مـن كـل سـنة بمهمـة تخليص القطعـان مـن كبيرها.. توقف قليلا ثم أردف: فقط أذا تأكد لفريق (القنـيص) أن هـذا الوعل يحمل قرنه أكثر من تسعة عـشرة عجـرة.لـذلك فهـم يتفـاخرون بالتزامهم بأنظمة القنيص هذه وتحقيـق مقاصـدها، فهـم يـضعون هـذه القرون على أركان منازلهم تفاخراً.. وبمقابل أن تصطاد تيساً بهذا العمـر ينتج القطيع في السنة القادمة عشرات المواليد.

قال النُّوه وقد علا وجهه البُشر وكأنه قد صدر حكم عليه بالبراءة:

- لم أُسدِّد إليه بندقيتي إلا بعد أن تأكـد لي رؤيـة عجراتـه.. كـان يقـود قطيعا كبيراً من الإناث.. ولو لم يكن الأمر كذلك لما أطلقت عليه النار.

هدأت ثورة هاني وقد ارتـسمت عـلى شـفتيه ابتـسامة خفيفـة وهـو يقول:

- إن كان الأمر كذلك فلا ضير من الـصعود معنـا لمواصـلة الرحلـة.. شريطة أن تضع بندقيتك لدينا.

- لا.. ولا كني أعاهدك بأن لا استخدمها إلا في أمر يرضيك.

- كيف استطعت أن ترمي هدفاً متحركاً وأنت على سيارة متحركـة؟.. يا لك من قناص بارع.. اصعد لعلنا نستفيد من براعتـك هـذه.. معـذرة على غضبي عليك.. كنت أجهل هذه المعلومات الرائعة، ومـازال منظـر الحمام والغزالة يؤرقاني

****

الخَنطْ منطقة تسكنها غالبية قبلية من قبائل الحُموم، لعلهم من أصدق الناس تعاملاً وأشرسهم قتالاً وأكثرهم فقراً وكرماً. خصصوا للمجموعة الوافدة موقعاً هو الأفضل والأنظف في القرية، وجعلوه محوراً للموسم الطبي، فهم على قلة ذات أيديهم يذبحون لضيوفهم كل يوم خروفاً.

كانت الحصبة متفشية بين الأطفال والنساء في القرية فهي كثيراً ما تفتك بالنساء وبالخصوص الحوامل.

الحِصبةُ من الأمراض الفيروسية التي لا يوجد لها مضاد فيروسي، كل ما كان على الفريق الطبي فعله هو معالجة المضاعفات الناجمة عن هذا المرض، والتخفيف من وطأته كما أن عليهم عَزل المصابين، للتخفيف من انتشار العدوى.

أراد هاني شراء بعض الهدايا للأطفال فدُلَّ على دكان يقع على تل صغير وهو المحل التجاري الوحيد في المنطقة، يرتفع الدكان عن الطريق بنحو عشرين قدماً وهو عبارة عن (طاق)[1] مبني من حجارة المسيلة المتكورة، عليه بابٌ من الخشب لا يغلق وإنما يوصَد حتى لا تدخله السوائم والكلاب الضالة.

يحوي الدكان جميع السلع الضرورية بما في ذلك البطاريات الجافة والتبغ ومادة الكيروسين التي يستخدمها القرويون كمصدر وحيد للإضاءة.

ثمة ميزان وأوزان بمعايير الأرطال بعضها من الحديد مكتوب عليها وزنها باللغة الانجليزية والهندية والآخر من أحجار المسيلة الصلبة التي

---

١) الطّاق: هو مبنى مكون من غرفة واحدة غالباً ما يكون من الحجارة ويكون ذلك في الأرياف، ويطلق عليه البعض (دار الحِجل).

كتب عليها وزنها، هناك بعض القطع النقدية الفضية لـ(ماريا تريزا) التي تـزن الواحدة منهن (أونـزاً) واحداً والتي لا تـستعمل للتـداول كعملـة بقدر ما تستخدم هنـا فقـط لـوزن التبـغ و البهـارات والأشـياء الدقيقـة الأخرى باعتبار أن الرطل يزن منها سِتَّة عشرة قطعـة، ناهيـك عـن أنهـا تستخدم كمعيار أو كمصدر من مصادر الفضة النقية، هناك سجل كبـير أسود اللون ربط به قلم جاف. كانت الأسعار حينها ثابتة لا تتغـير. فـإذا ما جاء الزبون لأخذ حاجته عليه أن يضع قيمتها في صفيحة متوسطة من القصدير وضعت خصيـصاً لهـذا الغـرض، وإن لم تتـوافر لـدى الزبـون القيمة، عليه أن يسجل البضاعة فتكون القيمة عُهدة عليـه سـدادها، وإن لم يستطع الكتابة فعليه أن يتذكر جيداً ما أخذه من بـضاعة ليقـوم بـسداد قيمتها في زيارة (سالم بن عمر) الحولية في مدينة الشحر التي يحرص عـلى حضورها الجميع وتبعد الخَنطْ عن مدينة الشحر بـما ينيـف عـن ثلاثمائـة ميلٍ في طرق وعرة. يقوم التاجر صاحب هذا الدكان الذي لا يزور دكانه لسنوات بتحصيل المبالغ المستحقة له في سلة كبيرة مصنوعة مـن سـعف النخيل، أما إذا طرأ نقص على بضائعه في أي وقـت فيقـوم الـساكنون في القرى المستفيدة بإبلاغه ليرسل ما نقص معهم عند عودتهم إلى الريف.

لا يعتمد مالك الدكان هذا على متجره بشكل كلي بـل لديـه مزرعـة لـ(التمباك) في منطقة (عرف) الساحلية التي يراها أهم وأحوج لحضوره ورعايته الدائمة. عند نهاية هذه الزيارة الحوليـة يكـون التـاجر قـد جهـز جميع السلع الضرورية للعام الجديـد ليرسـلها إلى هنـاك بوسـاطة البـدو القافلين إلى الخَنطْ بعد الزيارة والذين سبق لهـم وأن سـلموه غلـة دكانـه التي احضروها من هناك.

لبُعد منطقة الخَنطْ ووعورة مسالكها يندر وفود ضيوف إليها إلاّ في مناسبات الأعراس التي غالباً ما تكون جماعية لذلك عدَّ البدو وجود المجموعة تدشيناً لموسم التطبيب.. فتجد كبار السن ممن لم يبرحوا منطقتهم يتذكرون أمراضاً ربما أصابتهم في مرحلة شبابهم التي ولت أو لعلها باقية، فيجدونها فرصتهم الوحيدة ليشكوا منها في هذا الموسم.

انتشر خبر وجود المجموعة وبالخصوص الرجل الحوت في الأرياف المحيطة. توافدت أعداد كبيرة من الشباب والشابات لرؤيته ليُملوا النظر فيه، وليشهدوا منافع لهم في هذا الموسم.

يلزم بحسب عادات البدو أن تقام في هذه المناسبات حفلات (الشرح) الذي تتم فيه رقصات مختلفة مثل (الغية والهَبيش والشِحيب و الحَدري والساحلي)[١] و تتكون النواة الأولى للشرح من اثنين أو أكثر من الشباب الذين يقومون بالتصفيق على أنغام معينة مرددين بيتاً من الشعر وما يلبثوا أن يُحاطوا بعدد من الشباب والشابات الذين يصنعون من أنفسهم دائرة قطرها عشرون قدماً تقوم بترديد أحد الأصوات بشكل جماعي، فتخرج إحدى الشابات إلى وسط الدائرة (المدارة)[٢] لتتأبط ذراع أحدهم ليرقصان على أنغام هذه الأهازيج وهما يدوران بعكس عقارب الساعة في هذه الدائرة البشرية التي يسمى سياجها البشري بـ(الشَّنَف)، وما هي إلاّ لحظات حتى يخرج من هذا (الشَّنَف) إلى وسط الحلبة شاب وشابة آخران ليعقبا سلفيهما في (الشرح) ويلوح الشاب كسلفه بخنجره العاري المصقول.

---

١) أسماء رقصات شعبية محلية تسمى إجمالاً بـ(الشرح). وهي كلمة عامية.

٢) حلبة (الشرح) التي يكوِّنها الراقصون ومحبو (الشرح)، بأجسامهم.

ممن حضر في هذا الموسم عدد من الأطفال أو اليافعة إن قللت من أعمارهم كانوا يريدون أن تجرى لهم عملية الختان، طمعاً بأن يحظوا بتخدير موضعي قبل إجراء العملية وحتى يتخلصوا من ختان (المَكَرَّة)[1] وهذه تكون في عمليات الختان الجماعي التي يقوم بإجرائها أحد البدو التقليديين بالسكين من غير تخدير، ففي حفل عمومي كبير يحضره الكبار والصغار ذكورا وإناثا، بعد أن يلبس هؤلاء الفتية أحسن ما عندهم. يقوم ختّان القرية بعمليته الجماعية هذه، في حين يقوم اليافع الذي تجرى له عملية الختان بإلقاء قصيدة طويلة متعارف عليها يستغرق وقت إلقائها طول مدة العملية، والجميع ينظرن فقط إلى قسمات وجهه- دون موضع العملية المستور بخرقة من القماش- فإن تلعثم أو تعثر أو حتى ارتد إليه طرفه، يُحسب ذلك عليه. أما إذا تجاوز ذلك الاختبار، فيعد شاباً شجاعاً يذاع صيته في الأرياف ويكون ذلك بمثابة جواز سفر له إلى عالم الكبار، ولعل هذه العملية تقوم بمهمة التخدير، حيث ينَصَبُّ كل اهتمام ذلك اليافع على إتقان دوره في (المَكَرَّة) و في إلقاء القصيدة، وإبداء جسارته وصبره وجلده وبذلك فإنه لا يشعر بالألم، ذلك ما تبديه قسمات وجهه على الأقل للحشد، فتعده القبيلة من ذلك اليوم، أحد مقاتليها الذين يعول عليهم في الذود عن القبيلة ومصالحها، ويُطوَق عضده بعضاد من الفضة كشهادة بذلك ويحق له بعد ذلك حمل السلاح ويقال له مُتَسلب أي أنه يصرح له بحمل (السَّلَب)، وهو السلاح.

---

١) حجرة مرتفعة بمثابة الكرسي الذي يوضع عليها الولد المراد إجراء عملية الختان له على ملأٍ من الناس.

لا يمكن للفريق الطبي القيام بعمليات الختان هـذه لأسـباب كثـيرة لعل أهمها هو أنهم أتوا لمكافحة وعلاج أعراض وباء الحـصبة، وفي حـال إجراء عمليات من هذا القبيل سـيتعرض هـؤلاء الـصبية للحـصبة مـن خلال إضعاف مقـاومتهم بهـذه العمليـات القابلـة للتأجيـل، أو لعلهـم مصابون أصلاً بفيروسات الحـصبة وهـم في مرحلـة الحـضانة ولم تظهـر أعراضها عليهم بعد.

فما كان من الفريق إلاّ أن وعدهم بزيـارة أخـرى في نجـم (الـسِماك) عندما يكون الجو أكثر اعتدالاً.

****

الجمال في الريف خلاب بما في ذلك جمال النسوة اللواتي يحافظن عليـه بطلاء أجسادهن بمادة النيلة، لذلك فإنهن يـُبْدَينَ أبنوسـيات اللـون مـن صبغة النيلة هذه، غير أنه إذا ما أزيلت هـذه الـصبغة كأنـك قـد أزحـت ستاراً أبنوسياً عن (فينوس). فالنـساء هنـا يلبـسن ثيابـاً مخمليـة مطـرزة بالخرز وخيوط الفضة الموشاة والمذيلة بالقياطين الزاهية الألـوان وتكـون ملابسهن هذه قصيرة المقدم وطويلـة المـؤخرة يـسمون هـذا النـوع مـن الملبوسات بـ(الذيل و قَدِمة) وهذا النمط من الملـبس فرضـه (معـن بـن زائدة) انتقاماً من أهل حضرموت على مقتل أخيه، فتجد النـساء يجـررن أذيـالهن في الأرض و يتهـادين في مـشيتهن كطيـور القطـاء، ويحطـن خواصرهن بـ(الحنيشة) وهي حزام مـصنوع مـن خيـوط الفـضة طولـه قرابة ياردتين تلفُ به النساء خـواصرهن.فتبـدى تـضاريس أجـسامهن التي ينافسن بها غزلان البراري رشاقةً.

عندما يعتزمن النسوة الرقص يزدن على ذلك (الهيكلي) وهو مصاغ من الفضة ثقيل الوزن يصل وزنه إلى ثلاثين أوقية يصدر عند حركة الراقصة أصواتاً رنانة، ويقمن النساء بتعليقه على أكتافهن بخيط ليستقر على خاصرتهن اليمنى، ليخفينه بالنقاب، أما تسميته بذلك فربما تعود إلى أن الرعيل الأول ممن احترفوا صياغة الحلي هم من اليهود، ولعل هذه القطعة أشبه شكلاً بالهيكل حسب تخيل الصاغة له، تضع النسوة أيضاً الخلاخيل حول سيقانهن خلال عملية (الشرح) لتصدر رنَّات تتناغم مع إيقاع الرقصة.

يعمل هاني مع الطبيب حامد الذي أسند إليه مهاماً طبية وتمريضية، كان يقوم بها على أكمل وجه، حتى أنه لم يلقِ بالاً لنظرات الفتيات والنسوة اللاتي تُصوِّب نحوه.

بدأ الفريق يتهيأ للمغادرة إلى غيل بن يمين. وما كادوا يصلون السيارة التي ستقلهم حتى وجدوها محملة بالكثير من الهدايا من السَمن الذي يصنعونه من لَبن الغنم، وكذا فحم (القَرَض)[1] ونبات (الحَيدَوَان) الغالي الثمن الذي يضفي على أكلة العصيدة قوامها المطاطي، لو عرفه الشيخ الإيطالي (هت) صاحب الخلطة البيزاوية لكانت منطقتهم وجهته قبل (برقة وبنغازي)، ليضفي على (بِيزَتَه) قواماً أكثر مطاطية. ولدى أهل الخَنطْ أيضاً نبتة (الحتيكة) التي يُستخدم مسحوقها بمثابة الصَابون، له مفعول سحري للحفاظ على طراوة البشرة ومحاربة التجاعيد وكلف الشمس.

---

١) شجرة تكثر في منطقة (العَكَدَه) -التابعة لغيل بن يمين- يصنعون من جذوعها الفحم الجَيد الذي تُصنع منه مادة (البارود) كطاقة تفجيرية للمدافع والقنابل والبنادق (التركية) ذات الفتيل القديمة.

لم يمنح البدو الفريق الطبي درهماً واحداً لقاء ما عملوا، ليس لبخل أو شُح؛ بل لأنهم يرون في ذلك إذلالاً لهم، فالبدو يتأففون عن فعل ذلك لاعتبارهم أن التطبيب مهنة أسمى من أن يُنقد فيها مال.

عند ما كانت سيارتهم تتسلق الجبل الصاعد من منطقة الخَنطْ استوقفهم رجل كان يلوح بشاله الأحمر. توقفوا أمامه.

بدا أنه في عقده الخامس،كان أشعث العمامة متشقق الشفتين من العطش شاحب الوجه، لعله كان ينتظرهم من مدة طويلة في الشمس التي بدت أنها قد لفحت وجهه. كان يسألهم:

- أين الطبيب ؟

- مرحباً..ماذا تريد؟

- أريد استضافتكم.

ما أن وقعت عيناه على الطبيب حتى وجه حديثه إليه قائلا: وأريد معاينتك لابني الذي أصابته لوثة مُنذ عشرة أيام.. لقد طفق يُردد عبارات غريبة ومبهمة..إنني أخشى عليه من الجنون.

صعد الرجل على سيارتهم وبقي واقفاً على الدكة الحديدية البارزة المعلقة بجانب السيارة الخارجي على مقربة من السائق،كان يرشدهم إلى موقع منزله مشيراً بيده اليسرى إلى الطريق في حين تشبثت يمينه بباب السيارة حتى وصلوا إلى منزله، استضاف الرجل المجموعة في سقيفة من جذوع النخيل كانت ملاصقه لمنزله وقد فرشت ببطانيات (ماركة هيملايا) زاهية الألوان شطرنجية التقطيع، تشبه ألوانها ألوان تنورات أعضاء الفرقة النحاسية الاسكتلندية، يبدوا أنها قد فُرشت لأول مرة.

بعد أن قام المضيف بتوزيع الشاي على ضيوفه ذهب إلى داخل المنزل لإحضار ابنه الذي بدا عليه أنه في التاسعة عشرة من عمره، كان يتزر ببردة

(حبانية) ولا يرتدي قميصه بل كوره بيديه وجعله في حضنه حتى بدتا كتفاه النحيفتان السمراوان، له شعر كستنائي فاحم طويل يفرقه من وسطه ويسدله على صدغيه،وقد جرح في ساعده جرحًا سطحياً بمساحة لا بأس بها لتبدو منه أدمته الداخلية وردية اللون أشبه بالحريق.لم يُحَي الشاب ضيوفه واكتفى بأن جال بنظره فيهم. جلس القرفصة في ركن المجلس وطفق يُقطع ورقة كانت معه إلى قطعٍ صغيرة ليعود ثانية ليقطع هذه الأجزاء إلى قطع أصغر بطريقة قلقة.كان يسكب لنفسه من إبريق الشاي شاياً في فنجانه ليشرب فنجاناً بعد آخر وكأنه يخوض مسابقة لشرب الشاي.

عند ما لمح حبراسٌ هاني كان يُركِّز عليه النظر كثيراً يرشقه بنظراته الشزراء، وبعد مدة قضاها صامتًا لم ينبس خلالها ببنت شفة، طفق خلالها يوزع نظراته بين هاني والسماء وكأنه يستمطرها لعنات على هامة هاني، بعد حين قفز من مجلسه وكأن ثُعباناً قد لدغه،تملكته حالة من الذهان، هرع مسرعاً إلى داخل المنزل وهو في حالة من الهيجَان، تبعه على الفور والده،كان يقول لأبيه وهو في داخل المنزل:

إذاً لم يمت الأعرج..لديه سبعة أرواح مثل القط!!

أنهم ضيوفنا..عليك أن تحترمهم..ما الذي أصابك يا حبراس..لم يأتوا هنا إلا لمعالجتك..أنهم طيبون..كيف لك أن تشرب الشاي الذي قدمناه لهم؟..لقد أحرجتني أمامهم.

لم يسمع هاني ما قاله الشاب في الداخل إلا أنه قد قرأ في عينيه الشر والعدوانية،وقرأ سخونة نظراته عليه وقدحَانِها بالشرر الذي يتطاير منها، حتى أنه همس للطبيب :

ألا ترى أن هناك تطابقاً بين تقرير البحث الجنائي وبين هذا الشاب كمتَّهم بجريمة قتل حسين بو عمامة؟

أظنك مُحق في ما تعتقد.. أشاركك اعتقادك.. لذلك يلزم الحذر..إنه في حالة من الذهان الحادة، فهو يشكل خطراً على نفسه وعلى غيره.. ناهيك عن أنه يحمل ضغينة في صدره.سكت برهة ثم أردف.. كم مضى على مقتل حسين؟

عشرة أيام..إنه عمر الحالة التي أصابت حبراس!!

استبد القلق بالطبيب وبهاني الذي نهض واقفاً ليتخذ لنفسه موقعاً بجانب الباب الخارجي للمنزل وقد استعد بهراوة مقطوعة من شجرة السِدر أخذها من كومة الحطب وجعلها بجواره.. في حين قال النَّوه:

سوف أقتله إن خرج من الباب إلينا.

– احذر ذلك.. إن خرج شاهراً بندقيته أضربه في يده فقط.. حاول أن تكون تسديدتك في مكان غير خطير أتخِذ لكَ موقعاً خلف كومة الحطب هذه.

بدا وكأن عراكاً قد نشب في الداخل بين الرجل وابنه، طال ذلك لقرابة بضع دقائق، سُمع بعد ذلك صوت طلقة نارية مزقت السكون المخيِم على المكان. خرج بعدها الأب مهرولاً حاملاً بندقية طويلة (مظبية) بعدد من الأساور الفضية التي تسور ساقها.كان الهلع والذهول

باديين على محياه عند ما كان خارجاً إلى المجموعة وهو لاهثاً و يصيح قائلاً:

- أدرِكوني.. أدركوني.. لقد أصيب ابني حبراس !!

لم تكن إلا لحظات حتى صدرت من دهليز المنزل طلقة نارية أخرى أصابت هاني في كتفه الأيسر. كان الدهليز مظلماً كل ما به من الضوء هو من فضلات ضوء النهار الداخلة من الباب، غير أن النُّوه أطلق من بندقيته طلقة على حبراس الذي بدا له في الدهليز أصابت الطلقةُ عين مقص الزناد، لذلك فقد قطعت ثلثي سبابة حبراس التي تحتضن الزناد.

وثب النُّوه إلى داخل الدهليز، أوقع حبراساً على الأرض، ثم تبعه الطبيب. كانت إصابة هاني سطحية رغم أن النزيف قد أحال لون كُم قميصه إلى الأحمر.

مازال الأب الذي تبع الطبيب إلى الدهليز يحمل بندقيته في يده. وما تزال رائحة البارود تنتشر في الدهليز لتختلط برائحة الدم. بدا حبراس على الأرض غارقاً في دمه. كانت إصابته خطيرة إلى حدٍ ما، بيدَ أنها لم تكن قاتلة خاصة بوجود الإسعافات الأولية والفريق الطبي المتواجد، لقد أصيب أعلى صدره لتخترقه الرصاصة وتكسر عظمة الترقوة، يُبين مدخل الرصاصة فتحة صغيرة في أعلى الصدر من الأمام قد أحاط بها بقعة من الكربون من فوهة البارودة ولكن مخرَجها الخلفي كان كبيراً، حتى لقد ظهر منها بعض الفتات العظمية الصغيرة من عظمة الترقوة.

كان العرق يتصبَّب من جبين الأب وقد وقعت عمامته لتبدو صلعته اللاّمعة، كان يقول بشي من الحسرة وكأنه يريد تبرير ذلك ليخفف عن نفسه الحسرة والندامة :

- لقد انتزعت منه البندقية.. كان يريد أن يقتل أحدكم.. إنه مجنون بالفعل.

قام حامد بعملية الإسعاف الأولية للشاب حبراس بشكل جيد كما قام بالتقاط السبابة المبتورة و تطهيرها جيداً وأعادها إلى موقعها و أخاطها ثم قام بتجبيرها بعد ذلك وقال:

- يجب أن نصطحب حبراساً معنا لمواصلة العلاج في غيل بن يمين.. يلزم الأمر إدخاله المركز الصحي لمعالجته من الإصابة ومن الأزمة النفسية التي يعاني منها.. إنه يشكل خطراً عليكم هنا.

- ولكنه يشكل خطراً عليكم أنتم بالدرجة الأولى.. فيكفيني أن تصل مصيبتي إلى هذا الحد.. إنني أخاف أن يرتكب حماقة في أحدكم!

- لا عليك منا..سنكون حذرين.

- لا مانع من ذهابنا معكم ولكن شريطة أن نقيده في مقطورة السيارة.

- إذاً فلنضعه في المقطورة.. تستطيع أن تفترشها لهُ.. سوف يساعدك النَّوه في تقييده.. لكن لا تكونان قاسيين عليه..تذكرا قبل كل شيء إنه مريض.

كان هاني يسأل النَّوه:

ما نوع البندقية التي مع والد حبراس؟

إنها (بريتن)..

فقال هاني للطبيب.

أليس من الأفضل أن نصطحب أداة الجريمة؟..إنها بندقية نوع (بريتن) هي نفس ماركة البندقية أداة الجريمة في قتل حسين !

بلى.. إن وجودها مهم للغاية.

ذهب الطبيب إلى والد حبراس وطلب منه البندقية فأعطاها له قـائلا هل تريد رصاص معها؟

كلا.. لا أريد رصاصاً..ولا أريد أن يعرف ذلك حبراس.

أخذ الطبيب البندقية ووضعها خلف الكنـب في مقدمـة الـسيارة في حين أخبر السائق أن يسدل الستارة على الزجاج الخلفي للمقصورة.

بقي الطبيب يرعى حبراس في المقطـورة. في حـين تمكـن حامـد مـن السيطرة على النـزيف من خلال الضغط الموضعي على مكـان الرصاصـة ومن خلال حقن حبراس بعض المخثرات الدمويـة،غير أن كـل ذلـك لم يمنع حبراس من بعض التشنجات حتى أنه كرر:

معذرة يا صديقي سوف أعيد المحاولـة سـأقتص لـك مـن الأعـرج الذي نهب أموالك في أفريقيا.. لقد اعتقدت بأنني أتممت المهمة..ولكـن تبينَ لي اليوم إنني قد أخطأت الهدف.

****

وصلت المجموعة غيل بـن يمـين قبيـل غـروب الـشمس، وُضـع المصاب حبراس في المركز الـصحي في حـين تـم إشـعار مركـز الـشرطة بذلك،جاء ضابط البحـث ليعـاين المـصاب ثـم قـام هـذا بأخـذ أقـوال الطبيب وهاني ووالد حبراس.

قام الطبيب بفتح الغيارات للإصـابتين اللتـين أصـيب بهـما وأطلـع رجل البحث عليه وقام بوصف ثلاثة قناني من المحاليل الوريدية.

عمد رجل الأمن على تعيين حارس لحبراس، في حين ربط أحد يديه في حديدة السرير بوساطة (الكلبشة) حتى لا يحاول الهرب وحتى لا يُنَفذ تهديداته التي ما برح يطلقها تباعاً.

قامت قيادة الشرطة في غيل بن يمين ببعث برقية وصفت فيها الحادث لقيادة الآمن في مدينة الشحر التي تتبعها أمنياً وإدارياً والتي قامت بدورها بإرسال مبعوث بحثي للنظر في هذه الحالة.

في وقت متأخر من الليل دخل رجلُ متلصصاً إلى المركز الصحي، كان يمشي على أطراف أصابعه،كان جندي الحراسة وقتها نائماً على كرسيه وبدت قربة (الجلوكوز) الشفافة المعلقة في الحامل تلفظ أخر قطراتها عبر وريد حبراس، في حين كان الممرض المناوب متواجداً في قسم النساء لمراقبة حالة ولادة متعسرة.

حاول الرجل المتلصص تهريب حبراس من المركز الصحي إلا أنه وجد يده مربوطة بالسرير بوساطة (الكلبشة).ذهب إلى غرفة التعقيم والتقط محقناً كبيراً بحجم خمسين مليلتراً وأخرج مكبسه وقام بوضع طرف إحليله عليه ليتبول بداخله وأعاد المكبس ثم عاد إلى حبراس وحقن البول في قربة الجلوكوز التي كانت تلفظ قطراتها الأخيرة، قام بحقن ذلك بقوة حتى أن ضغط البول أحدث رغوةً بداخل القربة وأحدث صوتاً أيقظ حبراساً. قام الرجل بعد ذلك برمي المِحقن خلف السرير، ثم قام بمسح أنامله التي لامست ذلك في ملاءة السرير.

- ماذا تصنع ؟..كان ذلك حبراس الذي أفاق من نومه.

كان الرجل يتحدث بصوت خافت. كان يتحدث ببطء وكأنه يقوم بعملية تنويم مغناطيسي لحبراس.

- أمنحك إكسيراً كالذي نتعاطاه معاً في منزلي.. لا شك أنك تتوق إليه بعد أن فطمت عنه في الأيام الماضية.. كم هي الحياة قاسية من دونه.. أليس كذلك؟.. إنها لحظات لن تشعر بعدها بأي ألم.

- أعدك أنني سأتمم مهمتي.

- إنني متأكد من ذلك.. ما عليك إلا أن تكون هادئاً.. لا تكترث إلا بعافيتك.

وصل المبعوث البحثي من إدارة أمن الشحر في الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل ذُهب به إلى غرفة الطبيب الخاصة التي تحتل الركن الغربي الجنوبي في المركز الصحي نفسه، قرع باب الغرفة.. ما كانت إلا دقائق حتى قام الطبيب من نومه ولبس ملابسه وذهب بصحبة رجل البحث ومعاونه إلى سرير حبراس،كانت رائحة الغرفة قد انتشرت فيها رائحة غريبة أشبه برائحة الكُحول المتعطنة القوية، وضع الطبيب يده على جبين حبراس، جسَ نبضه،فتح عينيه بإبهامه ليرى تفاعلها بالضوء،نظر في قربة الجلوكوز التي أوشكت على نهايتها وجد أنه لم يتبقَ فيها إلا بضع مليلترات في عنقها المقلوب.

هل مات ؟..قال ذلك رجل البحث الوافد.

أجل!!...غير أن جسمه مازال دافئاً.

أخذ الطبيب ملف المريض المعلق في السرير وبدا يلاحظه ثم قال:

لقد كان بحالة حسنة.. جميع العلامات الحيوية التي أخذت له قبل ساعة كانت ممتازة.

قام الطبيب إلى قربة الجلوكوز المعلقة في العمود الحديدي الحامل لها ولاحظ رغوة في جوانبها من الداخل، أبعدَ أنبوب توصيل المحلول ثم أسال بعضاً من قطراته على يده، قام بشم رائحتها ثم تذوقها بطرف لسانه. لفت اهتمامه رائحة المحلول ثم قال:

كيف للجلوكوز أن يكون مالحاً؟..كيف له أن يكون عكراً؟..

كان المبعوث البحثي يلتقط شيئاً من الأرض وهو يقول:

إنه محقن مرمي به على الأرض..هناك إهمال في مركزكم الصحي.. لماذا ترمون بمعداتكم الطبية على الأرض..إنه عدم اكتراث!

أخذ الطبيب المحقن، قربه من وجهه، شم فيه رائحة البول بما حملته من رائحة الآستون النفاذة ثم قال:

هناك أمر غريب و خطير..أعتقِد أن المحلول الوريدي هذا قد حقن بمادة بولية ملوثة.. باعتقادي أن ثمة جناية قد أُرتُكبت، استهدفت قتل حبراس.. تستطيعان القيام بواجبكما بالتحري.. لعليَ استطيع مساعدتكما.. إن المادة البولية هذه ليست لإنسان عادي بقدر ما هي لشخص مصاب بمرض السكري وربما النقرس أيضاً..ولكننا سوف نتأكد من ذلك مخبرياً.

كان رجل البحث يقول لزميله سوف نأخذ بصمات المحقن وقربة الجلوكوز.. ثم وجه حديثه للطبيب :

هل نستطيع معرفة المصابين بمرض السكري والنقرس معاً من المترددين لديكم في المركز الصحي؟.

أجل سوف نرفع لكم أسماءهم وأعمارهم من سجل العيادة اليومي..إن عددهم محدود.

أحفظ بقايا السائل في المحقن والقربة وأنبوب التوصيل إلى الوريد ليتم فحصها... قال ذلك رجل البحث الموفد لزميله.. ثم أردف :

حافظ على البصمات من المسح.. ضعها كلها في كيس.

سوف نستدعي فني المختبر للتعجيل بالفحص قبل تعفن هذه البقايا. كان ذلك حامد الذي ما زال في حيرته. غير انه أخذ ملقطا من المعدات الجراحية ومنحه لرجل البحث ليلتقط تلك البقايا.



سعدَان القُوطَى

على مقربة من مقر سكن حامد تكون غرفة المولِد الكهربائي التابع لمنطقة غيل بن يمين. إضافة إلى عمل سعدان القوطى كسائق متميز وبارع -في أعمال الصيانة (الميكانيكية)- فقد كُلف بتشغيل وصيانة المولد الكهربائي المنطقة، ذلك المُولِد الذي بلغ من القدم عِتيًا، حتى إنه لا يُشَغَّل إلا في المناسبات و في ليالي شهر رمضان، يقوم سعدان بتشغيله قبيل غروب الشمس، وقبل هذا الوقت يقوم بمساعدة حامد في إعداد الإفطار ليتناولانه معاً.

يقوم سعدان أيضاً بمهمة مسؤول إنتاجي في مزرعة (الرَّمظة) التابعة للدولة وهي مزرعة كبيرة عليها عدد من المضخات (الارتوازية) الضخمة، لذلك فإن سعدان يُحضر من المزرعة كل يوم إلى حامد (حبحبة) إلا أنه عند فتحها يتبين بأنها غير ناضجة.

في عصر أحد أيام شهر رمضان اصطحب حامدٌ هاني على دراجته إلى هذه المزرعة، وجدا هناك أعداداً كثيرة من (الحَبحَب) أو البطيخ الأحمر الناضج كان مفتوحاً مرميٌّ به في حواشي المزرعة.

- كيف تُحضر لنا كل ليلة يا سعدان الحَبحَب (القارع)[1] وترمي

---

١) كلمة تعني الثمار التي لم تنضج بعد، لم أعثر على أصلها في المنجد، لعلها عامية.

بالناضج على القارعة؟ كان يقول ذلك وهو يشير إلى الحبحب المرمي به في الأرض.

- وما أدراني بالناجحة من القارعة؟..هذا ليس عملنا !!..إنه من عمل (الكهار).

ضحك هاني من رد سعدان فقال:

- من هو الكهار..هل هو هنديا ؟

- لا بل هو حيوان الدُلدُل[1] الذي يأتي ليلاً ليفتح الحبحب الناضج ويأكل منه حتى يشبع وهو يعرف الحبحبة الناضجة. بدا هاني وحامد ضاحكين في حين قال هاني:

- كان عليهم أن يُعَيِنوا هذا الكُهار مسئولاً إنتاجياً بدلاً عنك.

- سيكون ذلك.. قالها سعدان ببرود مصطنع ومبالغ فيه

- متى؟

- بالتأكيد قبل أن تأتي القارعة! قالها بنفس البرودة المصطنعة.

غرق الثلاثة في الضحك في حين ضرب هاني على كتف سعدان برفق قائلا:

- لا يستطيع أحد مجادلتك.

****

---

١) الدُلدُل أو الكُهار كما يسميه القرويون وهو حيوانٌ أشبه حجماً وشكلاً بالكبش الصغير يأكل النباتات،غير متوحش غير أن له وسيلة دفاع غريبة يستخدمها فقط للدفاع عن نفسه، وهذه عبارة عن أشواك مثل الحراب تصل أطوالها إلى خمسة وعشرين سنتيمترا وبسماكة رُبع سنتيمترٍ تكون متدلية في جانبيه يدفعها بقوة معاً لتغرز بعمق في أجسام ضحاياه دفاعاً عن نفسه.

بحسب طلب هاني قرر حامد مرافقته إلى عدن لعرض السيدة والدته على طبيب العيون لإجراء عملية إعادة بصرها، وإحضار المواد الأولية لتركيب الأدوية.

أراد هاني أن تكون رحلته إلى عدن عن طريق الجو من مطار الريان الذي يبعد كثيراً عن منطقتهم.

استقلت مجموعة السفر هذه (سيارة لندروفر) حجزها بدر لهذا الغرض، صعد حامد في مقدمة السيارة في حين صعد هاني وبدر وأم هاني ومريم في الكنب الأوسط للسيارة، أما كنب القيادة فقد اعتلاه السائق سعدان القوطى، تم توزيع الأغراض التي سيحتاجون إليها في عملية الطبخ والنوم ولوازم القهوة بين مؤخرة السيارة وبين السلة العلوية.

كان ذلك بعد صلاة الفجر حينما كانت البلدة ساكنة، ورغم ذلك فقد خرج العديد لوداعهم.

بدت السيارة تنهب الأرض نهباً، تصعد التلال وتهبطها وتتوقف بين حين وآخر للصلاة والاستراحة وشرب القهوة وتناول الطعام.

عندما كانت المجموعة في (مَقَد الهَجلة) وهو سهل واسع، كثيراً ما سبق لحامد أن ضاع فيه لانبساطه وتشعب وتعدد معالم طرقه التي كثيراً ما تتعاقب على مسحها سموم الصيف الحارة ورياح الشمال الباردة. كانوا يتسابقون مع طيور (الحباري) أو الدجاج البري التي كانت تستعرض قدراتها على العَدو مكابرةً، وهو ما مكن المجموعة من اقتناص إحداهن، فكانت إفطاراً لذيذاً لهم.

استوقفهم في الطريق شخصٌ بدا من بعيد كشبح يشتت وهجُ الأرض صورتَه المتكسرة. كان يُلَوح بشاله الصوفي الأحمر اللون. أدار

سعدان مقود السيارة ليتجه صوبه، اقتربت السيارة منه، تعرف الطبيب حامد عليه، انه من مشايخ آل باعبَّاد من أهل منطقة (حرو) كان يربط رأسه بعصابة من حبل صنعه من ألياف النخيل، بدا الحبل شائكاً غير مشذب، أشبه بإكليل الشوك الذي يوضع على رأس السيد المسيح في الرسومات الكلاسيكية، لعله كان يستعمله لعقل بعيره الذي يبحث عنه في هذه القفار، ولعله يظَلِل به وجهه و أنفه الذي بدا متمرداً بطوله عن ذلك الظل، كانت يمناه تتأبط عصاً. سألهم شيئاً من الماء، أعطوه قنينة الماء التي يدخرونها لرحلتهم، وهو كل ما بقي لهم منه، أطبق البدوي قبضتيه على القنينة وأطبق شفتيه على فوهتها وذهب يشرب وهو واقف بمحاذاة السيارة حتى أخذ ينحني برأسه إلى الخلف، ليفرغ ما بقي بالإناء في جوفه، في حين برزت العصا التي يتأبطها عند انحناءته لتشير إلى الأعلى، كانوا جميعاً ينظرون إليه وهم يشيّعون ماءهم إلى مثواه الأخير، حتى صاح السائق سعدان قائلاً بلغة السواقين: (إستوب التانكي فُل)[1]، انفجر الجميع بالضحك بمن فيهم هو حتى أنه تقيأ الماء، الذي كان أكثر من أن تتحمله معدة جمله الضائع.

طلبوا منه الصعود للسيارة لإيصاله حيث يريد، إلاّ أنه رفض ذلك قائلاً: لا يمكن مرافقة هذا الساحر (أبو مذياع) مشيراً بيده إلى السائق، يسمي القرويون سعدان ب(أبو مذياع) لعدم مفارقته للمذياع حتى عند ما يكون ماشياً. وما زال في حله وترحاله يحمل مذياعاً صغيراً مسربلاً بحقيبة جلدية.

---

١) (full tank) عبارة إنجليزية دأب على استخدامها سائقوا العربات، وتعني الخزان ملئ.

- ألا تأتي معنا ؟..سوف نفطر في كريف (المجلة)

- شربت ماءكم وحصل لي ما حصل.. فكيف لو أكلت طعامكم؟..أعانكم الله على هذا الساحر، وكان يشير بأصبعه إلى سعدان.. شرعت المجموعة في الضحك.

كان السكون يخيم على المكان حول الكريف لا تسمع إلا أصوات بلابل (العوجر) تغرد على شجرة الصرة العتيقة الأشبه بدوحة تنشر فروعها اليانعة لتغطي مساحة واسعة من الكريف، ثمة (ورقاء هتوف) تصدح بصوتها على فرع من تلك الصرة (كركوك.. كككو...) لعلها ترد به على ورقاء أخرى يأتي تغريدها من البعيد،لعلها تخبر صاحبتها بالضيوف الذين نزلوا بالكريف.

يعرف هاني أن ابنة خالته تجيد نظم الشعر فقد تعلم تذوق الأدب على يدها؛ لكنه لا يعرف بأنها تتمتع بصوت ملائكي، لذلك سألها:

- هل تجيدين الغناء؟ سكتت مريم وجعلت تعبث أصابعها بأطراف نقابها وتطأطئ رأسها في حين تدخلت أمه قائلةً:

- أنها تجيد الغناء والإنشاد.. كان إنشادها سلوتنا الوحيدة في الأيام الصعبة التي ولَّت. طلب منها هاني أن تغني لكنها لم تفعل، كانت وجلة آثرت الصمت، ولكنها عندما كانت تعد لهم القهوة في جلسة بدت شاعرية على أحد الكُرفان الكبيرة المليئة بالماء - والذي بدا كبحيرة زرقاء - انتحت لها جانباً على ربوة بجانب الكَرِيف متسترة بشجر أراك وطفقت تردِّد أغنية مشهورة للشاعر حسين المحضار، تقول كلماتها :

بـا شِل حُبـــك معـي بلقـيه		و مرافقـي في الــسفر

وبـا تلــذّذ بـذِكرك في بـلادي		في مقــيلي والــسَمَر

وانته عسى عـــــاد با تـذكُر		وإن قـــد تناســيت

يامـا نـاس جَـم مِثلـك تناسـوا الـوداد

في خـير إنتـه وأنـا بـا نلتقـي في سـعاد

شـُفنا كَمَا الطّـير لِي هـو د وب		و ويعيش فوق الـشجر

وبيــن أغصـــــانها رائــح		وإن هــزه الـشوق فـر

سَـل عــن نـشيدي وفنـي كـلِ وادي

وا تخبَر العُشب منـي والبواسـق والـسُمر

في خـير إنتـه وأنـا بـا نلتقـي في سـعاد

وسعاد هي مدينة الشحر المطلة على البحر العـربي، كانـت المجموعـة تنصت بشغف إلى هذه الألحان الشَّجية كان أداءً رائعاً وصوتاً جميلاً لـيس هناك حاجة إلى مؤثرات أو موسيقى مصاحبة بل أن الفيء الظليل والجـو العليل ورائحة القهوة الزكية أضفت مؤثرات رائعة على هذه الكلمات التي كانت موفقة زماناً ومكانا. ما إن انتهت مريم من أغنيتها حتى قال هاني:

كانت المجموعـة تتهيـأ لمواصـلة الرحلـة غـير أنهـم سـمعوا نـداء استغاثة من بعيد، سمعوا هديراً لجمل هائج ينقل هذه الأصوات الأثـير الصامت إلا من هذه الأصوات. طلب هاني مـن بـدر وسـعدان التوجـه سريعاً إلى مصدر الصوت لعمل اللّازم.

ما هي إلا نصف ساعة حتى عادت إليهم السيارة وعليها الشيخ باعبَّاد الذي بدا أغبر اللون تلونه الأتربة التي التصقت بجسمه وبملابسه وقد أصيب ببعض الجروح والسحقات السطحية في مرفقيه وقدميه.. بدا غير متوازن السير مستندا على عكازه.

- ماذا حل بك؟

- لقد جلدت جملي وهو بصحبة ناقة أحدهم فهاج عليَّ..لعله كان في غزل مع الناقة.. كاد يسحقني بدَبَرته غير أني تخلصت منه ورميت له بشالي وتواريت خلف الشجرة فبرك عليه وأحاله خلقاً.كم هو الجمل حقود.

عمد الطبيب حامد إلى تنظيف وتفقُّد الهيكل العظمي للشيخ وتضميد جراحه.

- تستحق ذلك.. لقد أهنته أمام عشيقته.

- أسكت.. يا ساحر.. لقد قررت بأن لا أراك ثانية وأجد نفسي الآن ماثل أمامك!!

- ولكنك عدت بلون أخر هو أشبه بلون الأساس الذي يضعه (السمكري) على السيارات قبل دهنها.

كتمت المجموعة ضحكة ليبتلعوها احتراماً للشيخ باعباد. في حين تدخل هاني في الحديث ليغير مجراه قائلاً:

- أمازال الجملُ هائجاً؟.

- عند ما رآني أبرُز من خلف الشجرة وقت قدوم سياراتكم ذهب مسرعاً إلى حافة الوادي.. سكت باعبَّاد قليلا ثم أردف كمن استذكر شيئاً.. لعله أراد أن يلقي بنفسه في الوادي.. الجمل حقود..سوف أدركه

لأذبحه قبل أن يموت.. إن وجدته كذلك.. ألا تصطحبوني لتناول طعام غداءنا من لحمه.. انه ما زال صغيراً.. ردَّ عليه هاني:

- سوف نصحبك إلى حافة الوادي وسنواصل رحلتنا.

تدخل سعدان من جديد في الحديث قائلاً:

- تستطيع أن تأكله لوحدك.. عله يشفي غليلك

****

في ضحوة اليوم التالي (الأحد) وصلت المجموعة إلى مطار الريان الساحلي الواقع شرق مدينة المُكلا، ليسافر هاني ووالدته ومريم والطبيب حامد إلى مدينة عدن في حين يواصلا الرحلة إلى عدن أيضاً عن طريق البر كل من السائق سعدان وبدر غير أنه تعذر ذلك عند ما وجدوا أن مطار الريان -وهو المطار الوحيد- كان خاضعاً لبعض الإصلاحات الفنية مما أجل الرحلات الجوية لمدة أسبوع، قرر هاني مواصلة الرحلة عن طريق البر مع أسرته وحامد على ذات السيارة وليكون الجميع في رحلة واحدة.

كان للمجموعة وقوف في قرية (بويش) الساحلية شرق مدينة المكلا، التي يسكن بها صيادون وبها إحدى المقاهي التي يرتادها صيادو ومزارعو التبغ. ترجلوا عندها لاحتساء الشاي، جلسوا على كراسٍ خشبية صغيرة في حجم حبة (البردين)، كان بعضهم يجلس القرفصاء وبعضهم يجلس محتبياً بشالات مصنوعة من الصوف الكشميري زاهية

الألوان وبعضهم يتلفع بإسمالات[1] مصبوغة بالنيل الأسود المائل إلى الزرقة، وهذا الرداء له أغراض متعددة في حياة البدو اليومية، فهم يستخدمونه إزاراً إضافياً لستر ما ينكشف من ملابسهم التي تنكمش أحياناً، ويصرون فيه المواد الغذائية التي يشترونها ليومهم مثل السكر والبن والبهارات والتمباك وغيره ويحتمون به في القُرِ من الزمهرير وفي الحَرِ من القائلة، ويستخدمونه كدثار للمبيت الاضطراري خارج المنزل، ويربطون به أعناق أغنامهم حين يقتادونها لبيعها أو يسوقونها لسلخها ويستخدمونه كعلم للإشارة والدلالة إليهم عندما يتيهون في الصحاري والقفار حتى تصل النجدة إليهم،لذلك فهم يفضلون الألوان الصارخة ويستخدمونه أيضاً كـ(فلتر) أو مصفٍ عندما يضطرون للشرب من موارد مائية غير نظيفة.

الكثير من بَدو الحَيق[2] يتعاطون (التمباك) الذي يزرعونه في غِيَظِهم[3] ومناطقهم ويتّجرون به، لذلك فهم يتعاطونه بطريقة عجيبة، لعلها طريقة مهنية، فهم يتحسسون جودته في مذاقه ونكهته وملمسه ودخانه، فيضعون حفنة منه في أيديهم ويسيلون عليها الماء من فتحة بطن (النارجيلة) ليتبلل ثم يقومون بفركه بين راحتيهم حتى يصير أشبه بالعجينة، ليضعونها على قمع مثقوب من الفخار، أشبه ما يكون بفنجان القهوة المقلوب، ويضعونَ عليه بعد ذلك الجمرات التي كثيراً ما

---

١) من البُرَد الحضرمية المشهورة.

٢) الحَيق هو شق طويل من البحر يدخل في اليابسة، وأهل الحَيق عند البدو هم الذين يسكنون في مناطق الساحل.

٣) غِيَظ جمع غيظة وهي الواحة الجبلية

يلتقطونها بأيديهم مباشرة من غير ملقط، ثم تشفط (النارجيلة) هذه بقضيب مستطيل من خشب (العِشرَة) المثقوب من طرفه إلى طرفه الآخر، فيكون المدخِّنُ في نشوة عندما يجد سحابة الدخان تحيط به، وربما انتابت المدخن أثناء الشفط نوبة حادة من السعال أشبه ما تكون بنوبة السعال الديكي إلاّ أنه لا يكترث بها بل ربما يجد فيها متعة أيضاً. أو لعلها تبين له نوعية هذا (التمباك). ولعل نوبة السعال هذه عندما تشتد على كبار السن من المدخنين لا يقتصر الأمر على أن يكون مصدرها الفم والقفص الصدري بل تشاركه ذلك فتحة أخرى!

سأل أحد البدو هاني:

- من أي منطقة تكونون؟

- من غيل بن يمين.

فسألوا باهتمام أكبر:

- ما هي أخبار الرجل الحوت ؟

قال هاني :

- وهل تعرفون الرجل الحوت؟

- لا نعرفه ولكننا نسمع عنه الكثير ونتابع أخباره، ونعتزم زيارة غيل بن يمين لرؤيته ولنُسلم عليه.

- أخباره حسنة.. وهو بصحة جيدة ويتمنى أن يلتقيكم في وقت لاحق ويُقرِئكم السلام.!! وهو أمامكم..كانوا ينظرون إلى رجله ليتأكدوا من ذلك. عادت المجموعة أدراجها إلى السيارة لمواصلة الرحلة. ودَعوا البدو وهم مندهشون، كانوا يريدون أن يطيلوا الحديث معهم، غير أن هاني أكد لهم وعده بزيارة في وقت لاحق عند عودته.

في الطريق عندما كانوا يبعدون عن مدينة (المُكلا) وبعد أن تجاوزوها لاحت لهم من الخلف منازلها البيضاء كأسنان لبنية جميلة مرصوصة ومتناسقة وبدا لهم جَبَلها.. كشِفاتها العلوية وبدت لهم المدينة وكأنها تقبل وتعانق البحر العربي الذي كان حنوناً وملاطفاً لها بمياهه الدافئة التي تتخلل منازلها بشكل دائم، ولعلها أشبه ما تكون بمدينة البندقية.

بعد ذلك سلكوا طريقاً جبلياً لا يرتفع كثيراً عن سطح البحر حتى كان ذلك ينفرج عن فرجة سعتها خمس ياردات، وفجأة برزت لهم من هذه البوابة الطبيعية قرية (بروم) ذات الشطأن البيضاء الصافية الخلابة التي يشكل ماؤها الفيروزي اللون ما يشبه الخلجان الصغيرة الأشبه بمدن علاء الدين في (الميثلوجيا القديمة) لم يستطيعوا مقاومة إغراء هذه السواحل الساحرة، أبقوا السيارة على جانب الطريق تستظل في حضن الجبل بينما هرعوا يتسابقون إلى الشاطئ ليرووا عطش أجسادهم التي تتوق إلى الاستحمام في هذه المياه.

كان السائق (سعدان القوطى) يسلك بهم طريق الساحل وخاصة عندما يكون البحر منحسراً عن ساحله فبدت الأرض من تحتهم ندية ومستوية ولامعة كأنها قطعة من الرخام المصقول، إلاّ أنه عندما تعترضهم صخور البحر البركانية المدببة الأطراف (القشار) التي تشكل خطراً على دواليب سيارتهم فهم يصعدون ليتلمسوا طريقهم في الجبال والمرتفعات، كانت لدىَ السائق سعدان خبرة بهذه الطرق رغم انطماس معالمها في كثير من الأحيان بسبب رياح الخريف.. حتى أن بدراً قال للسائق مازحاً:

- أظن والدك عندما أسماك (سعدان) كان يتوقع لك مستقبلاً عظيماً في تسلق هذه الجبال. كان الجميع يضحكون في حين أوقف سعدان السيارة يتصنع التمرمر. غير أنه واصل مشيه عندما قال له هاني ضاحكاً:

- حقك عليَّ.

لاح لهم مبنى مُجصَص بالنورة البيضاء مكون من طابقين على نمط الحصون القديمة وبجانبه مدفعان متوسطا الحجم مصنوعان من مادة الصفر بيدَ أنهم قبل أن يصلوا إليه، أشار سعدان بيده لجهة اليسار صوب جبل لا يتجاوز ارتفاعه خمسة وثلاثين ياردة قائلاً:

- هل ترغبون في الاستحمام في بركة عذبة، فقال هاني:

- أين هذا البِركَة؟

- أنها (حومة شوران) في أعلى هذا الجبل بركة كبيرة بها ماء عذب لا ينضب مَعينه يحتضنها الجبل ويكاد يخفيها عن الناس.

- دعونا نشاهدها..

صعد حامد مع بدر وسعدان الذي يتقدمهم في حين بقي هاني مع والدته ومريم التي كانت تجمع القواقع لتصنع منها حزاماً تزين به خاصرتها. المنظر هنا جميلٌ والماءُ صافٍ في هذه البحيرة العذبة التي يبلغ قطراها قرابة مأتي ياردة تحفها النباتات الخضراء من كل محيطها رغم وجودها في وسط البحر، أخذ سعدان يملأ أسقيته وكان يرغب في الاغتسال إلاّ أن حامداً أثناه عن ذلك. لا تبدو هناك آثار آدمية حول الماء، قال سعدان: أهل المنطقة (بئرعلي) أنفسهم لا يعرفونها، أما الحيوانات وبخاصة الإبل فإنها لا تستطيع الوصول إليه.

عند ما كان سعدان وحيدا مع بدر في أعلى الحومة قال له:

- أنا أروي لكم النكات وأنت جالس مثل الخشبة تلوذ بصمتك..هذه

الطريق إن لم نضحك عليها ستضحك علينا.

- أنا عندي نكات.. لكنها ستغضبك يا سعدان

قل نكاتك، دعنا نسمعها..ولا عندك نكته واحدة.. أنت بحالك نكتة..بس تبكي لا تُضحِك!!.

- طيب.. اسمع هذه..قالها بدر في لهجة تحدٍ.

- كان يمشي في الغابة واحد من جماعتك السعادين.. بس غير مكتمل الذكورة،كان يبحث عن شيء ما.. وبينما كان كذلك وجد أسداً فقرب منه السعدان، عندها فتح الأسدُ فمه وزأر فقال السعدان:

- (أو.. أو.. أنت ما شيء في رأسك إلاَّ الأكل).. تظاهر السائق سعدان بالغضب ورمى بدراً بإحد القناني البلاستيكية الفارغة التي كانت بيده وهو يقول :

- آه منَك ياأبو لسان سامة !!..قال ذلك وهو يحاول أن يكتم ضحكة أبت إلا أن ينفجر بها شدقاه.

- ألم تقل بأنك لن تغضب من النكات؟..

بعد أن صعدوا جميعا على السيارة قال بدر:

- ألم يقل لنا الشيخ باعبَّاد في منطقة (الهجلة) أنَّ سعدانَ ساحر..؟

- يا بدر المدفع قريب مني، كان سعدان يقول ذلك والمجموعة بمحاذاة مركز شرطة منطقة (بئرعلي).

- اعتذر له يا بدر وإلاّ سيصدق سعدان قوله. قال ذلك هاني وهو ينظر من نافذة السيارة إلى المدفعين.

- لو لم يعمل الطبيب حامد على خياطة فمك لتحولت فعلاً إلى سعدان كامل ولكن المشكلة في الطبيب الذي حَالَ دون استعادتك لوضعك المصنعي الطبيعي.

- نحن لا زلنا في بداية الطريق يا (طبشر عفنـدي)[1]. وطفـق بـدر يُـردد أغنية عامية كانت شائعة للفنان أبوبكر بلفقيه وقـد اسـتبدل فيهـا كلمـة قلب بكلب:

ويـن عـادك صـبر (يـا كلـب)ع السـيرة

عـــادك ألا قبـــضت الطريـــق

لعل سعدان وجد مزحته هذه قد جرحت بدراً، لـذلك خفـف مـن وقعها بأن أردف :وجدت مرة شخص مولَّد يغنيها كذلك.

كان الجميع يضحك من براعة سعدان في لعبه بالألفاظ.

استوقفت المجموعة بعض الشواطئ والخلجـان الـصغيرة والرمـال الذهبية الخلابة، كانوا كثيراً ما يتوقفون ويستظلون بظل الـسيارة وتخـرج مريم عدتها لتدير لهم القهوة ليحتسوها فيحظوا بمتعة المـشروب ومتعـة المكان ودفء الرفقة معاً.

عندما تجاوزوا منطقة بلحاف الساحلية كانـت هنـاك أسراب كبـيرة من الطيور المهاجرة التي تتجمع على الساحل، قادمة من أفجـاج عميقـة، لتقوم بعملية التـزاوج في هذا الموسم، لعلها دأبت على ذلك منـذ ملايـين السنين، فهي من الكثرة بحيث تحُوِّل لـون الـساحل الأبـيض إلى أسـود. لذلك سمي هذا الموقع (بحصن الغـراب). لعـل طيـور النـورس التـي كانت تنتشر في جو الساحل بحركة مفعمة بالنشاط، كانت تباشر مهمـة استقبال تلك الأسراب متعددة الجنسيات، ولعـل مـا يـصدر عنهـا مـن

---

١) يقصد سعدان من هذه التسمية المركبة من ثلاث لغات هي الانجليزية والتركيـة والعربيـة كما انه قد حرَّف معانيها. وهذا الأسلوب في توظيفات المفـردات لتـشمل الكلمـة عـدد مـن المعاني والمرامي دأب على استخدامه سعدان

أصوات حينها ما هي إلاّ عبارات الترحيب بهذه الوفود التي تفهمها رغم تعدد بلدانها.

عندما وضعوا أقدامهم في البحر ليشفوا ظمأ أجسادهم إليه، شاهدوا (الدُلفينات) التي تحاول ملاعبتهم وإغراءهم بالنزول إلى العمق كانت تقفز من البحر في حركات استعراضية كالتي يفعلها الأطفال عندما يحاولون إثبات ذاتهم وشد اهتمام الكبار إليهم، كانت تصدر أصواتاً أشبه بضحكات الأطفال وتمشي على ذيلها وتقفز في الجو وكأنها في حفل بهلواني.

عادوا لمواصلة رحلتهم وهم ينظرون إلى البحر بأمواجه الهائجة التي تبعث فيهم نشاطاً وانتعاشاً يبدد وعثاء سفرهم التي تصنعه باستمرار هذه الطريق التي تطويها سيارتهم، في الطريق كانت تمتد أمامهم الأحقاف الرملية المترامية المتفاوتة الأشكال والأحجام والألوان التي تعبث بها الرياح كما يعبث الأطفال بلُعَبهم لتتشكل منها أشكَالاً مختلفة وجميلة، ولعل هذه الكثبان تتلون بحسب المنطقة التي تقع عليها، فإن كان الموقعُ سهلاً جبلياً أو وادياً أبيضَ، تكون هذه الكثبان بيضاء، وإذا ما كانت منحدرات تلك الجبال بركانية سوداء تصير هذه الكثبان داكنة لتصبح خطوطها أشبه بخطوط الحمار الوحشي، أو لعلها أكثر شبهاً بخطوط بنان بصمات الإنسان.

كان الصمت يُخيِّم على السيارة وقد بدا أن بعض الركاب قد نعسوا، عندها قال بدر بنبرة كوميدية ناعمة:

– (أو.. أو.. كُله عندك أكل)؟ انفجر سعدان بالضحك ليوقظ من كان

نائما في السيارة.طلب هاني تفسيرا لهذه الضحكة إلاَّ أن سعدان قال له : (حقوق الطبع محفوظة لل(الطبشر عفندي)!! اسأله ذلك).

فأسرَّه بدرٌ عندها انفجر هاني ضاحكاً.

بدت السيارة تتسابق مع الشمس نحو مغربها، وبعد أن كانت أشعة الشمس المحرقة تضرب مؤخرتها، أصبحت بعد الثانية عشرة ظهراً تضرب مقدمتها فزادت من حرارة محركها، مما رفع مؤشر الحرارة، عندها نظروا في الجوار يلتمسون ما يستظلون به، حيث تكون أشجار (السُمر والمسكيت)، أما الأحقاف والقفار من حولهم فتبدو كالمرجل تغلي وتتصاعد أبخرتها، بينما تنتشر بقع السراب هنا وهناك خاصة عندما تكون الارتفاعات (الكَنتورِية) لهذه التضاريس أكثر استواءً فتبدو المرئيات أكبر حجماً، غير أن بخار الأرض يشتت رؤيتها ويكسر صورتها كما تتكسر الصورة الرقمية في شاشة التلفاز.

أشجار (السُمر) التي يفترش أعلاها ويصغر جذعها تنتشر هنا وهناك وتُشكل ما يشبه المظلات الشمسية التي يزرعها المصطافون على بعض (البلاجات) ليستظلوا بفيِّها، مما شجعهم على التوقف للبحث عن بعض هذه الأشجار التي تكون متعانقة مع بعضها لتصنع ظلاً وارفاً أكثر ملائمةً في هذه القفار الملتهبة.

أول من دلف إلى تجويف هذه الشجرة هو بدر، كان وقتها محملاً بأدوات الطباخة التي أحضرها من السيارة، وفي الوقت الذي دخل فيه، فرَّت من داخل هذا التجويف إلى خارجه غزالة انطلقت منه كالسَهم واتخذت سبيلها بين الأكوام الرملية، بعد أن تركت مولودتها التي لم يجف جلدها بعد الولادة. عدَّ بدر المولودة كرامةً من الله لتكون طعاماً لهم إذ

ليس لديهم ما يأتدمون به طعامهم، فأخذ الغزالة الصغيرة وأخرجها ليريها المجموعة التي لم تدخل التجويف بعد، في حين كانت الظبية الأم تراقب المشهد. اقترحت مريم البحث عن موقع آخر، وترك هذا الموقع حتى تعود الأم إلى ابنتها، وهو ما أشارت إليه أم هاني أيضاً، وقف سعدان القوطى معارضاً، قائلاً: إن هذه مكرمة من الله يجب ألاّ نردها، أما حامد فكان مع رأي مريم وخالتها، وبوصول هاني المتأخر حُسم مصير هذه الظبية التي كادت أن تكون إداماً لطعامهم بعد أن جعلهم هاني ينظرون إلى الظبية الأم وهي تنظر إليهم بعيون دامعة من خلال أكوام الرمل و وهي تشرئب منها بعنقها الطويل لعلها استطاعت بنظراتها هذه استدرار عواطفهم، لتظفر بابنتها.

ذهبوا يلتمسون لهم موقعاً آخر، وبعد بحث استمر ربع ساعة وجدوا موقعاً على ربوة من الرمل الساخن الذي تغرق فيه الأقدام ويضيع فيها النعل، الموقع عبارة عن ثلاث أشجار من السُمر المتعانقة كوّنت تجويفاً أشبه ما يكون بالكهف وهو أكبر سعةً وأورَفَ ظلاً وأكثر اخضراراً وينوعة لأغصانه المتشابكة التي بدت منحنية حتى أن رياح السموم اللافحة عندما تتخللها تتحول إلى باردة وكأن هذا التجويف الذي صنعته الأشجار بتلاصقها قد أضيف إليه مكيف هوائي.

رغم أن الموقع كان خالياً من السابلة، إلاّ أنهم عندما كانوا يعدون طعامهم مرَّ بهم أحد الصيادين قادماً من جهة البحر يحمل سمكة (الغودة) يقارب وزنها سبعة أرطال، اشتروها منه، ثم عزموا عليه بأن يتناول طعامه معهم فسرعان ما استجاب لدعوتهم. كانت فرصة لأن يتجاذبوا معه أطراف الحديث للتعرّف على هذه المنطقة وطبيعتها، عرفوا منه اسمها، أنها

منطقة (الخضراء) الساحلية، تناولوا طعامهم الذي كان ألذَّ طعام بحري للمجموعة، حتى أنهم أكلوا أكثر مما يجب فتراخت أجسامهم من الهواء البارد الذي ينبعث من بين الأغصان حتى أخذهم النوم لساعة من الزمن، قاموا بعدها ليجمعوا صلاتي الظهر والعصر. اعتزموا المبيت في الموقع نفسه غير أن الصياد نصحهم بالعدول عن ذلك لكثرة الهوام والحشرات التي تختبئ نهاراً وتظهر ليلاً بعد أن تبرد هذه الكثبان.

صعدوا السيارة لمواصلة طريقهم باتجاه الغرب عندما مالت الشمس نحو مغربها استعداداً لهجوعها كانت أشعتها أكثر إزعاجاً لهم حتى أنهم بالكاد يرون الطريق مما يضطر سعدان الذي تصيبه أشعة الشمس بالسفعة إلى إخراج رأسه من النافذة على يمينه ليستطلع الطريق إلاّ أن ذلك لا يشكل خطراً كون الطريق في الغالب خالية إلاّ من سيارتهم، كانوا حينها يجولون بأنظارهم ذات اليمين وذات الشمال للبحث عن موقع أكثر ملاءمةً لمبيتهم، حتى أدركهم الغروب عند مسجد صغير في طرف واحة صغيرة، تحيط بالمسجد أشجار نخيل (النارجيل) الباسقة، أوقفوا السيارة بجانب المسجد ليدركوا صلاة المغرب، بعد انقضاء الصلاة دعاهم إمام المسجد إلى منزله المكون من طابقين، رغم قِصره وصغره، كانت درجات سُلم المنزل صغيرة البلاطة لا تتناسب مع حجم أقدام الكبار وكأن الدرج صُمم فقط للأطفال حتى إنهم عند ما يهبطونه يضطرون إلى محاكاة إناث طائر البطريق – في مشيتها عندما تذهب لوضع بيضها – تفادياً لوقوعهم.

لقد أكرم إمام المسجد وفادتهم بأن قدم لهم عشاءاً لذيذاً من سمك (العَيد) وهو سمك السلمون المشوي في التنور مع الخبز البلدي وباتوا ليلتهم في منزله غير أن البعوض لم يُغمض لهم جفناً.

بعد فجر اليوم التالي (الاثنين) عندما كانوا يتهيئون للصعود على سياراتهم هرعت عدد من السعادين تصيح بصوت مرعب وتتسلق أشجار نخيل جوز الهند من حولهم، خافت مريم من أصواتها وحركتها النشطة.

قال لها بدر: لا تخافي.. لدينا من يترجم حديثهم.. انظري سعدان.. أنه سفيرهم لدينا.

لم يكن إمام المسجد وحده الذي أكرم وفادتهم فحسب، بل حتى سعادين الواحة طفقت ترميهم بثمرات جوز الهند حتى تجمع عدد وفير من هذه الثمار ليدخلها سعدان في الخانة الخلفية لسيارتهم..

- كم هم كرماء أصحابك يا سعدان؟ قالها بدر وهو يشيح بنظره عن سعدان.

- أجل نعم الصديق إمام المسجد هذا.. قال ذلك هاني لعله يريد إبطال مزحة بدر. ولكن سعدان الذي دأب على حب المزاح قال:

- أصحابي هم السعادين الذين أكرمونا من أشجار جوز الهند.. وأنا أفتخر بهم أما إمام المسجد فهو صديق بدر.. أليس كذلك يا بدر؟

- أتعتقد ذلك؟

- بل متأكد منه..سوف أحرمك من هدية أصدقائي لتعرف أهمية السعادين في حيات (النسناسين) من أمثالك.

كان الجميع يضحكون من خفة روح سعدان الذي يقول دائماً: أن خفة الروح من مزايا السائق الجيد الذي يجب ألاّ تقتصر مهمته ومهارته على نقل الركاب والبضائع، بل عليه أيضاً إسعاد مرافقيه طوال الرحلة. حتى انه يقول:

- السائق الذي يكتفي فقط بنقل الركاب والأغراض في الأسفار هو مثل الحمار الذي يحمل أسفاراً.

- قال هاني إن ذلك يصلح لأن يكون موضوعاً لمؤلف.
- انه كتابي الجديد الذي أعكف على تأليفه.

****

بعد أن ذهبت الشمس في انحيازها إلى جهة الغرب ليوم الاثنين كانت أشعتها محرقة وكان التعب قد بلغ بهم مَبْلغاً، وبالخصوص أنهم لم يناموا ليلتهم الماضية. بدت سيارتهم تصارع تيارات السموم اللافحة، وبينما هم كذلك لاح لهم خليج صغير تحف أحد جوانبه أشجار العِيص اليانعة والرطبة، أما الجانب الآخر فيحفه لسانٌ صخريٌ يمتد إلى البحر، أرادوا أن يريحوا أجسادهم وسيارتهم التي ارتفعت حرارة محركها. وعندما كانوا على مدخل الخليج غرقت سيارتهم في الأرض السبخة التي توحي لمن يراها بأنها يابسة، وبينما هم يعالجون أمر رفع دواليبها التي تزداد غرقاً في هذا المستنقع، كانت العجلات عند دورانها في الطَفَلة الرطبة ترشقهم بالتربة اللزجة.

لقد بلغ بهم العطش مَبْلَغاً في حين فرغت أسقيتهم من الماء حتى أصبحوا في وضع لا يحسدون عليه، استبد بهم العطش والقلق على مصيرهم. كان هاني يقول:

- إذا ما تأخَر بنا الحال ونحن كذلك سيأتي المدُ في المساء ليغمر سيارتنا.

جعلت السيدة رحمة تبتهل إلى الله بأن ينقذهم من محنتهم هذه، في حين واصلت مريم عملها بإزاحة الوحل اللَزج القوام من تحت السيارة ولكن دون فائدة حتى أوشكت دواليبها على الاختفاء فيه، لذلك نصحهم هاني بأن يعمدوا إلى الصعود جميعاً على فرع قوي لشجرة (المسكيت) التي كانت بجانبهم، كانوا بثقلهم عليه يثنوه و ينيخونه ثم يربطوا به السلسلة الحديدية

الخاصة بسحب السيارة، في حين يذهبون بعد ذلك إلى السيارة ليـدفعوا بهـا نحو الشجرة فتتضاعف قوة الدفع للسيارة الغارقة في الوحل، بدت السيارة تقترب شيئاً فشيئاً نحو الأرض اليبسة وهم يعيدون ربط السلسلة مـرة تلـو الأخرى ويكررون ثني وإناخة فرع الشجرة التي يربطون به السلسلة لتتقدم السيارة قرابة قدمين باتجاه الشجرة، غير أن قـواهم قـد خـارت مـن الجهـد والعطش قبل أن يتمكنوا من إيصال سيارتهم إلى بر الأمان. في حين وقعـت مريم في طَفلَة الخليج الرطبة. تشبّثت يد هاني بأحد فروع الـشجرة ومـدَ لهـا بالأخرى بمقبض عكازه وجذبها إليه، بدت مريم كتمثال من الفخـار النَّـي مما أبرز تضاريس جسدها الذي مازال يحتفظ بسحره.

ذهب بدر إلى شجرة طويلة، تـسلقها ليـستطلع المكـان وإحداثياتـه ليتمكنوا من توفير ماء يروي عطشهم، كان يتجه إلى الشرق تـارة وتـارة إلى الغرب عاد أكثر من مَرة وأبصارهم شاخصة إليه ولكنه يكـون خـالي الوفاض. أما سعدان فقد ذهب إلى قمة اللسان الصخري واسـتلقى عـلى جنبه وألصق أذنه بأرضيته واستمر على ذلك الحال طـويلاً، نهـض فجـأةً وعمد إلى التلفت شمالاً ويميناً وهو يصيح: هناك سيارة ما على بعد قرابة ساعة.

مالت الشمسُ نحو مغربها، بـدأ القلـق يـساورهم مـن أن يـأتي المـدُ ليغمر سيارتهم.

ذهبت مريم من فورها باتجاه اللسان الـصخري -المحـاذي للخلـيج الصغير- الذي يغرس ساقيه في البحـر، كانـت تـستحم بـين الـصخور تنظف جسدها وملابسها مما علق بها من تربة الخليج، اتجهت بعـد ذلـك نحو الصخور بأسفل اللسان الصخري كانت تنزع منها المحـارات التـي التصقت بها.

ذهب هاني إلى البحر ليأخذ له وضوءه ثم مر بالسيارة وأخذ مصحفاً صغير الحجم من حقيبته الجلدية وجلس إلى جوار أمه وشرع في القراءة بصوت جهوري جميل.

وصلت مريم وفي يديها عدد من محارات (البقّار) البحرية، بدت تحاول فتحهن بالسكين قال لها هاني:

- أحرقيهن بالنار وسوف ينضجن وينفتحن بالحرارة.. كم هي لذيذة هذه المحارات.

- هناك الكثير منها ملتصق بالصخور. كانت تقول ذلك وهي تنهض.

أحضرت بعض الحطب من الجوار وجعلت تشوي محاراتها.

واصل هاني قراءته في سورة الكهف حتى إذا ما وصل إلى قوله تعلى (وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ) أعاد قراءة الآية ثلاث مرات ثم أغلق المصحف وجعل ينظر إلى أمه ومريم التي بدأت تلتقط محاراتها الساخنة وتنفخ في النار. قال هاني بصوت مرتفع : فُرجت.. فُرجت.. يا أماه... فرجت يا مريم.

نهض وجعل ينادي بأعلى صوته..سعدان.. سعدان بدا يلوح له بيده ثم وجه حديثه لمريم:

– نادي على بدر بسرعة. ثم أردف: لدينا من الماء ما يكفينا في السيارة!!

قالت مريم باندهاش:

– لا يوجد ماء على الإطلاق في السيارة!!.. هل تقصد أن نشرب ماء خزان تبريد محرك السيارة.. إنه صدئ لا يصلح للشرب؟

قالت رحمة أم هاني:

– إنها فكرة ممتازة نشربه ونستبدله بماء البحر!

وما هي إلا لحظات حتى حضر سعدان فقالت له مريم تصوَّر.. إن هاني يريدنا أنشرب ماء مبرد السيارة

- إنه صدئ أحمر اللَّون لا يصلح للشرب بل هو سام..إنه يصلح فقط أن نستخدمه حبراً نكتب به وصيتنا. كان يقول ذلك وقد قرب من هاني.

بدا هاني ضاحكاً وهو يقول:

- لا..لا أقصد هذا.

- أنظر إلى أسقيتنا لا يوجد على الإطلاق ماءٌ في السيارة..

- ألا توجد لدينا كرات جوز الهند التي قذفتنا بها السعادين..هل نسيتموها؟.. إن بداخلها ما يكفينا من الماء..

- أجل لدينا الكثير منها..سكت سعدان قليلا ثم أردف: ولكنها هدية أصدقائي.. لا شأن لكم بها..سأشرب ماءها لوحدي. كان الجميع يضحك من هذه الفكرة التي أنقذتهم من العطش.

كانت أم هاني تقول وهي ترفع يديها إلى السماء:

كم أنت كريم يا ربي.. لقد استجبت دعواتنا؟.. أشكرك يا كريم الإحسان يا لطيفاً بعبادك. أما مريم التي كثيراً ما تحاول أمام الرفقة المشاركة في الحديث قالت: أصبح ينطبق علينا قول الشاعر:

كالعِيرِ في البيداء يقتُلها الظمأ   والماءُ فوقَ ظهورِها محمولُ

عاد بدرٌ من الشجرة التي يراقب من عليها المنطقة المجاورة عندما سمع أصوات المجموعة وهم يمرحون، وجد سعدان منقضاً بسكينه على كُرَات ثمر جوز الهند وهو ممسكاً بها بين قدميه ليفتحها واحدة تلو الأخرى وكأنه يفتح علب ماء غازية.

- إنها أفضل مهمة يمكنك القيام بانجازها.

- طبعاً أليست هذه الهدية من إخواني السعَادين؟.. الأخ لأخيه وقت الضيق.. قل لي ماذا صنع أصدقاؤك الذين استضافونا في دار الأيتام

ليسامرنا البعوض يا..هاه.. (طبشر عفندي)! ألم أقل لكَ أنني سأحرمك منها؟

- إذاً فقد أغرقت السيارة عنوة لتبرز دور أصحابك السعادين.

كان الجميع يضحكون وهم يشربون ماء ثمرات جوز الهند ويأكلون من مُحها الأبيض اللَّذيذ.

عاد إليهم نشاطهم وحيويتهم التي افتقدوها من العطش ومن وعثاء السفر جراء الجهد الذي بذلوه لانتشال سيارتهم.

كان هاني يقول:

- علينا أن نرفع السيارة بأقصى سرعة وأكبر همة.. أمامنا فقط نصف ساعة وسيأتي المدُ ليغمر سيارتنا إن لم نستطع رفعها.

- أجل إذا ما وصل الماء إلى محرك السيارة سيعطبها وسنضطر إلى المبيت لنتمتع بقضاء سهرة صاخبة مع البعوض ومزاميره مثل الليلة الماضية.

تعاون الجميع بهمة ونشاط لرفع سيارتهم وانتشالها من الغرق، واصلوا عملية جَرها بوساطة فرع الشجرة وما إن وصلت إلى الأرض اليبسة حتى ذهبوا للاغتسال في البحر كانت الشمس قد ابتلعها الأفق الغربي بيدَ أن هناك بعض السُحب الحمراء التي تنتشر في السماء ترسل لهم بقايا أنفاس النهار المحتضر أما البحر فقد ازدادت زرقته لتصير أكثر قتامةً فعمدوا إلى تغسيل ملابسهم ثم قاموا بعد ذلك بنشرها و بربطها في سلة السيارة العلوية الواسعة لتقوم الرياح بتجفيفها عند المَشي.

واصلوا سيرهم على السيارة ليلاً إلى أن وصلوا إلى منطقة (العرقوب) الجبلية المرتفعة وفيها وجدوا لهم مكاناً منبسطاً مناسباً للمبيت، قاموا بتصفيته بإزاحة الأحجار منه فباتوا ليلتهم فيه.

في فجر اليوم التـالي (الثلاثـاء) صـنعت لهـم مـريم قهوتهـا الجميلـة ومنحتهم بعض قطع من احقاف ثمر النارجيل.

واصلوا رحلتهم صوب مدينة (عدن) كانـت الريـاح طـوال الطريـق ترشقهم بحبيبات الرمل الساخنة و(المذهبة اللـون)[1]. وصـلوا عـدن قبيـل الظهر. قصدوا المستشفى العام الواقع على ساحل أبين، اتجهوا صوب قـسم العيادات الخارجية في الجهة الغربية من المستشفى حيث تم عرض السيدة أم هاني على اختصاصي العيون. في حين عمل سعدان بنصيحة هاني حيث اتجه إلى عيادة الطبيب الباطني الذي أمر له بتحليل الدم. كان سعدان يشكوا من بعض الدوار لعل ذلك نتيجة إرهاق بسبب قيادته للسيارة لمدة طويلة.

يتميز سعدان القوطى بأن له أصابع قوية فهـو يـستفيد منهـا في فـتح وإغـلاق صـامولات ومـسامير الـسيارات، بـل انـه يفـتح قنينـات (الكوكاكولا) بسبابته ووسطاه، تماماً مثـل مفتـاح علـب المياه الغازيـة، لذلك عندما غرزت الممرضة الهندية في المختبر أصـبعه أكثـر مـن مـرة لم يخرج منه دم، احتارت عاملة المختبر وذهبت بها حيلتها لتمص أصـبعه.. قال لها سعدان حينها: أريد أيضاً تحليلاً للبول !!. تركه بـدر الـذي كـان ينتظـره وذهـب مـسرعاً وشـدقيه ممتلئـين بـضحكة، وذهـب إلى المقعـد القـصبي الطويـل في الممـر ذا الـبلاط الـداكن ليبتلـع جـزءاً مـن هـذه الضحكة، وما برح بدرٌ بعد ذلك يردد سؤاله لسعدان :

- هل حللَّت لكَ الممرضة البول ؟..وكيف كانت النتيجة؟

- رائعة..على عكس تحليل الدم..!

---

1) لذلك كان الإنجليـز يـسمون بعـض هـذه الـسواحل بــ(Gold moor) أو الـساحل الذهبي.

نـزلت المجموعة فندق (الكرسـنت) بمنطقـة التـوَاهي كـان فنـدقاً جميلاً وأنيقاً، ويكفي القول بأنه الفندق الذي اختارته الملكـة (إليزابيـت) ليكون سكناً لها خلال إقامتها في عـدن عنـد زيارتهـا. كانـت المجموعـة تتجول في أحياء مدينة (كريتر) التجارية المزدحمة وكـان السـائق سـعدان يجد صعوبة في قيادته للسيارة عندما كان يشق طريقه في الزحام في السوق الطويل، بدا العرق يتصبب من جبينه لينساب على ياقة قميصه الأشـهب فيرسم بقعاً داكنة.

– الا تختاروا لنا مكاناً آخر نتجول فيه؟

– ارحموا سعدان قبل أن يتحول إلى بقعة من الرشـح.. قيـادة السـيارة في هذا الزحام أمر محرج له.

– آلا تلاحظون أن هناك فرقاً بين من تعلم قيادة السيارة في الريـف ومـن تعلم ذلك في المدينة؟ كان ذلك هاني الذي أجابه بدرٌ قائلاً:

– نحن قرأنا قصة (الكنتري ماوس والستي ماوس) في سلسلة (لونغ مان) عند ما كنا صغاراً ولكننا لم نعرف أن هناك سائقاً للريف وسائقاً للمدينة.

– بلى.. هناك فرق.. فتجد السائق في المدينة لا يتلفت برأسـه؛ بـل يوجـه كل اهتمامه إلى الطريق بينما سائق الأرياف يتلفت برأسه بل وينقله.

– هذه الصفة موجودة في سعدان فهو يخرج رأسـه مـن السـيارة ويعيـده إليها خلال القيادة، بل إنه يرسله كلسان الحرباء لتمشيط الطريق فـيما لـو كان هناك ازدحام أو هناكَ عسكري مرور. فعـسكري المـرور هـو عـدو السعدان الأول.

أما الصفة الثانيـة فهـي أن سـائق الريـف لا يلقـي بـالاً للإشـارات المرورية.

كان سعدان يتظاهر بالانفعال والغضب وهو يقول:
- وهذه الصفة أيضاً في سعدان!! أليس كذلك ؟كان الجميع يضحك.
- سائق الريف عندما يدخل المدينة تجده كثيراً ما يستخدم البُوق على عكس سائق المدينة. كما أن سائق الريف كثيراً ما يسيء استخدام الشوارع ذات الاتجاه الواحد، وكثيراً ما يكتشف أنه قد تورط بدخول أحدها.
- وما يدريك (بالسواقة)..قال ذلك سعدان ثم أردف : هناك أهم ميزة في سائق الريف لم تذكرها يا.. (طِبشر عفندي.. (السياقة) ليست طبشورة تحركها في السبورة)..(السياقة) فن وذوق وأخلاق..سائق المدينة لا يعرف يصون سيارته ولا يعرف حتى يعالج (بنشَّر) دواليبها. أما سائق الريف يستطيع أن يفكك سيارته ويعيد تركيبها ناهيك عن صيانتها.
- بل إنك تستطيع صناعة سيارة جديدة يا (سالم طعام).
- من هو سالم طعام هذا؟ قالها هاني ضاحكاً.
- إنه أفضل سائق عرفته حضرموت أمضى حياته المهنية في قيادة سيارته ولم تخدش البتَّة وهو يستطيع أن يعيد إصلاحها في الصحراء.. ولكن سعدان أفضل منه طبعاً.. بدليل هذه الندبة على وجهه..إنها رمز نضاله في القيادة.
تظاهر سعدان هذه المرة بأنه متشنج ثم قال:
- بارك الله في الطبيب حامد الذي استخدم رقعة نار..ولم يستخدم رقعة (شليشن).. لم تبق أي ندبة على وجهي..جسم (الوكالة) وبدون معجون سكت سعدان هُنيهة ثم أردف بحدة مصطنعة: أقول لكَ يابدر كلام نهائي: سعدان السائق الماثل أمامكم هذا هو مجمع الصفات الشريرة..

هل يعجبك يا بدر ذلك ؟..لولا السعادين لمُتم من العطش والجوع في (الخور) ولأطبق البحر عليكم موجه كما أطبقه على فرعون..أليس كذلك يا هامان؟ كان سعدان موجها حديثه لبدر.

تدخل هاني قائلاً:

– بل لولاك يا سعدان لكانت رحلتنا تعيسة.. أنت من أسعَدها وأضفيتَ إليها طعماً رائعاً ثم أضاف هاني: لعل اسم السعادين يأتي من الإسعاد للآخرين.. على الأقَل ذلك ما استنتجناه في رحلتنا هذه.

– أسعدك الله يا هاني.

كان بدر يقول:

– وأنا !

– أتعسك الله يا بدر.

كان الجميع يضحك من بديهة رد سعدان.

– لا تفكر يا بدر على الإطلاق بأنك ستلجم سعدان.

– أنا أعلن استسلامي لسعدان. كان بدر يقول ذلك وقد عمد إلى رفع يديه إلى الأعلى.. لو قدر لي أن أضع سعدان في المكان المناسب لجعلته مفاوضاً للجامعة العربية في هيئة الأمم المتحدة، لحقق للقضايا العربية وضعاً أفضل مما هي عليه.

– وأنا لو قدر لي يابدر أن أضعك في المكان المناسب لعينتك سائقاً لدي لتذهب بي يومياً إلى عملي في هذا العمل.. رغم إنني سأحسدك على ذلك لأنك ستتمتع بكافة صلاحياتك!

تجولوا في مدينة عدن القديمة وفي أحيائها وعمائرها الحديثة وصهاريجها التاريخية، حتى أنهم استقلوا قارباً منطلقين من قرية (الخيسة) الساحلية.

كانت مشاعر البهجة والانتعاش تسيطر على المجموعة، كانت السيدتان رحمة ومريم تشعران بنفس الشعور غير أنه قد ساور ذلك بعض القلق، بسبب ان هذه هي أول رحلة بحرية تقومان بها، فعند ما وطأت أقدامهن القارب، أصابهن (دوار البحر) وهو أمر طبيعي أن يصاب به المرء عند ما يركب اليَّم لأول مرة، غير أن إصرار مريم على خوض هذه التجربة جعلها تستعيد انتعاشها واستمتاعها بهذه الرحلة حيث شاركت في الحديث مع المجموعة. كانوا يتحدثون عن احد الجزر الصغيرة أمامهم التي هي عبارة عن رأس جبل بركاني أسود أحالته الطيور بإفرازاتها إلى اللَّون الأبيض حتى أن بدراً قال لسعدان :

- نستحمل فلسفتك وثقل دمك في البر باعتبارك سائق السيارة الذي أرغمنا القدر على صحبته أما الآن سوف نتركك في هذه الجزيرة مع هذه الإفرازات الضارة.

تدخل هاني في الحديث قائلا:

- إفرازات الطيور هذه تكون سماداً متميزاً باهظ الثمن.

- إذاً فلن نتركك يا سعدان في هذه الجزيرة حتى لا يكاثرك السَماد ونقترف كارثة بيئية.. حسب عالمنا تعاسة أن يكون فيه سعدان واحد مثلك.

- لو زرعنا فيها بدراً مزيفاً هل ستنتج لنا الجزيرة بدراً حقيقياً جميلاً؟.. ما رائيكم لو جربنا ذلك. كان سعدان يقول ذلك وقد أوحى بأنه مندفع إلى بدر وكأنه يريد أن يقذف به في البحر بطريقة مرحة.. حتى ان أم هاني خافت من هذه الحركة في حين دفع بدر بسعدان نحو قيدوم القارب. كانت مجاميع من الدلافين الطائرة تنبجس من سطح البحر بسرعة خاطفة وتنتشر حول القارب الأعشاب البحرية الصفراء الباهتة اللون.

ابتعدت المجموعة عن مدينة عدن في البحر العربي باتجاه الجنوب لتبدو لهم سلسلة جبال شمسان المحيطة بها أشبه بأسنان سمك القرش تحمي هذه المدينة. ازداد توغل القارب بهم في البحر حتى بدت المدينة كنقطة صفراء صغيرة في مداد البحر الطاغي الزرقة، عندها عادوا أدراجهم. كانت القرية عند عودتهم قد لبست ثوب الليل غير أنها مازالت بعض السحب الركامية في الأفق الغربي تنقل لهم بعض ما تختزنه من ضوء النهار المهزوم. لقد حركت الرحلة البحرية شهيتهم للطعام.. لذلك قال هاني:

- ماذا تريدون العشاء الليلة؟

- فأجاب سعدان: نريد (زربيان).. فمدينة عدن تشتهر بهذه الوجبة.

- كلامك هذا يذكرني بصديق بريطاني من مواليد عدن ساعدني في معاملة استخراج جواز من (بورت إليزابيت).. عند ما استضفته في عزبتي كان الغداء الذي أعددناه ذلك اليوم (زربيان) فبمجرد دخوله شقتنا صاح قائلاً: عدن..!! وكان يبالغ في فتح منخريه لاستنشاق رائحة الطبخة، وقد أعجبته الوجبة كثيراً.

- ولكن الزربيان هذا يصلح لأن يكون وجبة غداء..وهو ثقيل على المعدة لا يهتضم..مثل سعدان تماماً.

- نحن قومٌ (رزازة) !..كان ذلك سعدان الذي أضاف..تصور عندما كنت في الشحر اذهب إلى (مطعم بو قمر)[1] قبل الفجر وأعبئ لنفسي صحناً من الأرز بـ(الصيادية) وأملئ بطني إلى الحد الذي تستطيع أن

---

١) مطعم أبو قمر مطعم في مدينة الشِحر يكون دوامه بالليل ولا يوجد به عاملون ولا محاسب فيأخذ الزبائن– الذين يكون غالبيتهم من الصيادين– حاجتهم من الطعام الذي يريدونه ويضعون قيمته في المكان المخصص لذلك.

تقتل القملة عليها، ثم اتجه بعدها إلى البحر.

ظهرت نواجد هاني عند ما كان يضحك من طرافة سعدان وبراعة وصفه وقال:

- ما دمنا قد خرجنا من البحر يجب أن تكون وجبتنا بحرية..ولكن الأمر في النهاية يعود إلى أمي...ما رأيك يا أمي؟

- نريد عنبور مع الخبز. قاطعها سعدان قائلاً

- العنبور في الغيل فقط لأنه سمك نهري.. ولكن يوجد هنا الجحش وهو ابن عم العنبور.

- ولكن الجحش ينهق ويخَوِّف وأني لا أحب النهيق.

- يا عمة رحمة الجحش هو اسم نوع من السمك.. ليس الجحش ال..

فقاطعته العمة رحمة وقد ارتسمت على شفتها بسمة ساخرة:

- سبق لنا الشرف بمعرفتكم !.

****

في يوم الأربعاء زارت المجموعة مدينة لَحج الخضراء. عند ما دخلوا بستان الحسيني كانت أم هاني تقول:

- كم هي جميلة رائحة الفل؟

كان حامد يرد عليها قائلاً:

- أجل عمة رحمة.. إن رائحة الفل في بستان الحسيني تمثل الهوية الرائحية له ولمدينة لَحج إجمالاً.. أما الهوية المنظرية فتمثلها هذه الورود المنتشرة وأشجار المانجو والتوت الذي يسمونه بـ(العاط). تأثرت مريم بالمنظر الجميل من حولها حتى أنها طفقت تردد أغنية شائعة لأمير لحج (القمندان) تقول كلماتها :

يَالّي وصفت الحُسيني   وصفت وردِه وفُلِه
خليك قُدّام عَيني   أنتَ الحُسيني بكُلِه

في مساء اليوم التالي جمع هاني رفقته للتشاور في موضوع الإحالة الطبية لأمه إلى الخارج لعمل الترتيبات للسفر بحسب توصية الأطباء في المستشفى.

كان هاني يستشير الطبيب حامد بصفته صديقاً ومستشاراً طبياً، لذلك أشار له بفكرة مضمونها أن يسافر مع أمه ومريم إلى لندن ويعود هو وبدر وسعدان أدراجهم على السيارة نفسها التي أقلتهم إلى (غيل بن يمين)، ولكن مريم التي كانت أول مرة تخرج من قريتها اعترضت على ذلك قائلةً:

- ومن يقوم بتربية الغنم فيما لو طال بنا السفر؟

فأجابها بدر:

- سوف أقوم بذلك..

****

كانت الحركة في مطار عدن نشطة ما إن تهبط طائرة إلاّ وتطير أخرى، وعندما استفسروا في مكتب الحجز عن مواعيد الطيران أفادوهم بأن هناك طائرة ستسافر إلى (لندن) يوم الأحد القادم أي بعد ثلاثة أيام فما كان منهم إلاّ التوجه إلى مصلحة الجوازات لحجز جوازي سفر للوالدة رحمة ومريم ثم حجزوا التذاكر إلى لندن.

في اليوم التالي (الجمعة) كانوا مدعوين إلى مأدبة طعام الغداء عند

أحد أبناء منطقتهم ويدعى (أبوبكر) يعمل مسئولاً كبيراً في وزارة الدفاع، له أيادٍ بيضاء على منطقتهم وأهلها.

استُقبل هاني بحفاوة بالغة في منزل الضابط كان ترحيباً حاراً بالمجموعة. يتمتع أبوبكر بشخصية جذابة وقوية، بدايةً كان الحديث يدور حول منطقة غيل بن يمين وكيف تكون الحياة بها سأل الضابطُ هاني:

- كيف وجدت المنطقة بعد طول غيابك عنها؟

- جميلة ولكن الأجمل منها هم أهلها.

انساب الحديث إلى الوضع الصحي في منطقة الغيل. أثنى الضابط على الجهود التي يبذلها الطبيب لتحسين الوضع الصحي، مما شجع حامداً لأن يقدم الخطابات التي جمعها من المسئولين المحليين وقائمة الطلبات. قال الضابط:

- كنت في يومٍ ما أنتسب إلى القطاع الصحي في الجيش لذلك تجدني أهتم به. قال ذلك وهو يتناول نظارة رفيعة من أمامه جعلها على عينية وشرع في قراءة القوائم. كان يهز رأسه وهو ينظر إلى هذه الطلبات حتى إذا ما أنهى قراءتها تسوَّرت عيناه النظارة لتصوب نحو الطبيب قائلاً: سوف نعمل على توفير كل ذلك. سكت قليلاً ليراجع القائمة ثانية ثم أردف كمن تذكر شيئاً: سنضيف إلى هذه القائمة سيارة اسعاف ذات دفع رباعي للمركز الصحي.. سيصلكم كل ذلك قريباً.. وسنرسل أيضاً فني صيدلة ليقوم بمهمة التأهيل لديكم. سكت قليلاً ثم وجه نظره إلى هاني قائلا:

- هل سيطول غيابك في لندن؟

- لن يطول كثيراً إن شاء الله..

- طمئنا بوصولك وأخبرنا عن صحة والدتك.. تستطيع أن تتصل بي على الهاتف عند أي معضلة تعترضك هناك.. وسننتظرك على العودة.

أعجب هاني بهذا الضابط وبشخصيته العسكرية القوية، وأعجبه فيه أنه عند ما يتكلم لا تكاد تُلحظ حركة شفتيه، كان الضابط يقول لهاني:

- أمنحني جوازات سفركم لنقوم بترتيب أمور السفر.. لن يأتي ميعاد الرحلة حتى تكون الترتيبات لذلك قد أنجزت.. ستجد في المطار من يسهل مهمتكم.

*****

عند ما عاد هاني إلى الفندق بعث لإيزابيلا برقية يخبرها بأنه قد تقرر سفرة مع أسرته إلى لندن لغرض علاج والدته.

في مطار عدن كان وداعاً حاراً، لم يتمكن حامد من حبس دموعه التي فاضت بها عيناه، كان ينظر إلى بدر من طرف خفي ليجده أكثر حزناً، حتى بلغ به الأمر أن ولى الطائرة ظهره لعدم ادخاره صبراً لرؤية صديق صباه يغادر ثانية إلى غربة قد تكون كسابقتها.

طلب هاني من المجموعة قبل سفره أن يستكملوا في عدن أسبوعهم بعد أن دفع مبلغاً مجزياً لمصاريف الرحلة.

كانت الأيام تمر بهم طويلة بعد مفارقتهم لهاني.

لا يدري حامد ما الذي أصابه بعد توديعه لهاني كأنه ودع جزءاً منه.. أصبح يشعر بشيء من الفراغ و بشيء من الوحشة وكأنه قد بُتِر منه شيئاً.

وجد سعدان حامداً على هذه لحالة فقال له:

- لو سمحت لي أن أذهب إلى من يحلل لي بولي. عندها انفجر حامد

بالضحك وكذا بدر حتى أن موظف الفندق الذي كان في الممر،قرع الباب وفُتح له، بدا مستطلعاً سماع نكتة من سعدان..

لم ينم سعدان تلك الليلة، لكثرة ما شربه من الشَّاي، ذهب إلى صالة الاستقبال في الدور الأرضي ليجلس مع العاملين هناك، أمضى بقية الليل في حديث ونكات معهم، بعد ذلك قام بتلوين ياقة قميصه وصنع عليها بقعاً حمراء.

قلق بدر عندما لم يجد سعدان على سريره، عند ما عاد سعدان إلى سريره بعد الفجر، وضع قميصه بجانبه على السرير، واتخذ له وضعاً أشبه ما يكون بشكل الطائرة ووضع ساقيه على بعضهما ومدَّ يديه على هيئة يدي المسيح في الصور التي تصوره مصلوباً، وجدهُ بدرٌ على هذه الحالة فابتدره قائلاً:

- أين غبت يا سعدان ؟..كان عليك أن تخبرنا.. إن للرفقة شروط..

وقعت عينا بدر على القميص ثم أردف: ما هذه البقع على ياقة قميصك، أخذها وقربها من عينيه ثم أضاف باندهاش:

- أحمر شفائف يا تعيس..!؟

- حلبت الناقة وعشيت البعير.. هل هناك اعتراض؟..أنا لا أستطيع أن أغيب عن أسرتي كثيراً.. دعونا اليوم نحزم حقائبنا.. لقد أنجزنا مهمتنا.. ما الذي يبقينا هنا؟.

****

في صبيحة يوم (الاثنين) استلمت المجموعة من موظف استقبال الفندق برقية من لندن مرسلة من هاني مكررة إلى الضابط أبوبكر

مفادها: أنه قد وصل وحجز في المستشفى وأنهم بكامل الصحة.

****

في صبيحة اليوم التالي (الثلاثاء) تلقت المجموعة حامد وبدر وسعدان من عامل الاستقبال في الفندق برقية أخرى باللُغة الإنجليزية، نصها: "الإخوة حامد وبدر وسعدان: "وصلتُ إلى لندن قبل ساعتين ونحن هنا مع هاني والعمة رحمة والأخت مريم الجميع بعافية".

المرسلة / إيزابيلا ثبتيرو... لندن

انعقدت ألسنتهم بالدهشة..

- إذاً وصلت إيزابيلا إلى لندن والتحقت بهاني وأمه وابنة خالته..
- كل ما قاله هاني عن هذه الفتاة (الأسبانية) كان صحيحاً..
- أتُرى هاني كان يُرتب من غير علمنا؟..
- أياً كان الأمر نحن أكثر سعادة بأن تنظم إيزابيلا إلى أسرة هاني.
- ستكون لهم خير مُعين.
- لقد عرض هاني عليَّ مرافقتهم إلى لندن ولكنني اعتذرت بسبب مهامي في البلدة.

كانت السعادة تغمرهم جميعاً، ذلك ما لاحظه العاملون في فندق (الكريسنت) الذين كانوا منجذبين إلى جناحهم لسماع نكات سعدان فشاركوهم فرحهم وأخبروهم بأنهم على استعداد لإرسال برقية إلى هاني على العنوان البرقي في المستشفى.

وجدوا أنفسهم في غاية السعادة، لذلك أرسلوا البرقية الآتية:

إلى السيد هاني.. السيدة رحمة..السيدة إيزابيلا.. السيدة مريم.

وصلتنا (تلغرافاتكم) الأول والثاني ولا نستطيع أن نصف لكم فرحتنا الغامرة بعافيتكم وبوصول الآنسة إيزابيلا إلى طرفكم. برقياتكم تسعدنا كثيراً، لا تحرمونا منها حتى إن غادرنا إلى البلدة..طمئنونا بنجاح العملية. وأشركونا في سعادتكم بخطاباتكم.

المرسل / حامد/ بدر / سعدان

مدينة عدن/ ميناء التواهي



عودة إلى غيل بن يمين

كان النهار قد انتصر على جحافل الليل وبـداء يرسـل طلائـع أشـعته بإعلان قدوم يوم الأربعاء، كانت المجموعة حامد وبـدر و سـعدان حينهـا يعدون أنفسهم للرحيل بعد أن مكثوا أسبوعاً في عدن، كان أسبوعاً ممتعاً.

عندما كانوا عـلى وشـك مغـادرة الفنـدق وصـلهم تلغـراف نـصه: (نطمئنكم بنجاح العملية، ونتمنى لكم دوام السعادة، وقـد انـضمَّ إلينـا الأخ اللَطيف ناجي الإبي، الذي ينقلنا من مكان إلى آخر في لندن).

تحركت سيارتهم يقودها السائق سعدان القوطى الذي أطلقوا عليـه لقب (الإبي) عندما كانوا يمزحون معه، ولعلهم لجئوا إلى المزاح ليسليهم عن غياب رفقة رحلـة الـذهاب. ليزيـل وعثـاء سـفرهم الـذي تـصنعه رحلتهم تباعاً

****

مرت الأيام في غيل بن يمين بعـد رحيـل هـاني عنهـا رتيبـة وثقيلـة الوطأة، وكأن حلول هاني حُلم مرَّ بهم بل حلم مر حتى بالمنطقة، وحتـى يثبتوا حقيقة ذلك كانوا كثيراً ما يتداولون الحديث عن تلـك الـذكريات ويأملون كل يوم أو أسبوع أو بعض شهر وصول خبرٍ من هاني يطمئنهم عن حالهم، وجد حامد نفسه لم يفتقـد هـاني وحـده بـل افتقـد أم هـاني

ومريم، ومما زاد الطين بلة تكرار زيارات (هادم اللذات) له، حتى ضاقت به البلدة بما رحبت.

تعوَّد حامد للهرب من هذه الرتابة بالفزع إلى نفسه ليصنع شيئاً يجدد ثقته بذاته ويجدد طاقته ويشغل وقته، فعمد إلى فرشاته وألوانه الزيتية وغمس همه وفراغه في الألوان هرباً من لون الحياة الوحيد الذي سَأمهُ، رسم بعض اللوحات، كان يهتم باللوحات العالمية وبالخصوص لوحات المستشرقين، ويعجبه تقليدها، وعندما كان هاني في غيل بن يمين كثيراً ما ينعم النظر في أحد هذه اللوحات التي رسمها حامد على لوح كبير من خشب (الطربلاي)، وهي لفتاة مغاربية تحمل مجوهرات عُرسها[1]، للرسام (Jean Francois) سأل حامدٌ هاني عن سِر اهتمامه بهذه اللوحة بالذات فأجابه هاني:

- أنها تشبه (إيزابيلا ثبتيرو) كثيراً.. إنني استغرب كيف استطعت أن ترسمها..هل رأيت إيزابيلا؟

- لعل خيال إيزابيلا يسيطر على مخيلتك لتراها في كل شيء.. هذه مغاربية وإيزابيلا اسبانية!

- لعلها السمات الجمالية لحوض البحر الأبيض المتوسط..فلا فرق بين الضفتين لهذا الحوض البحري.. أنظر في (البورتريت) الذي رسمته لإيزابيلا.. لترى إن كانت صاحبة هذه اللوحة تشبهها أم أن طيفها يُسيطر على بصَري كما قلت.

كان هاني يعرض على حامد (البورتريت) الذي رسمه لإيزابيلا و بعد لحظة تأمل قال حامدٌ وهو يحرك رأسه ويمتط شفتيه ويقوس

---

[1]) لوحة الغلاف

حاجبيه قال:

- يا للعجب إن الشبه كبير!

عندما استبد بحامد الشوق لهاني وأخباره، فزع إلى رسم الكثير من هذه اللوحات وعندما يزيد عدد هذه اللوحات يذهب بها إلى مدينته، حتى إذا ما نظر أحد أقاربه المغترب في السعودية إلى إحدى تلك اللوحات التي بدأ العمل بها قبل سنوات طويلة عندما كان مديراً لمستشفي (الجَحي) في وادي (دوعَن) وهي لوحة كبيرة الحجم لأحد القصور الجميلة الذي يعود لأسرة آل بُقشان، أخذها قريبه هذا ليبيعها على الشيخ (أحمد بُقشان) ليضعها الأخير في ديوانه بمدينة جَدة وعادت هذه اللوحة على حامد بمبلغ كبير. ولكن ما هو أهم من ذلك أنها أعادت هذه ثقته بنفسه، جعلته أكثر انشغالاً بالرسم للقضاء على ما كان يعانيه من الفراغ والوحدة والحياة ذات اللون الواحد التي تركها هاني له في هذه البلدة فلم تعد مكانتها في قلبه كما كانت عليه قبل أن يغادرها هاني.

مازال حامد يعاني من وطأة الفراغ الذي تركه هاني يغرق فيه.. كان يسأل نفسه. هل افتقدت هاني حقاً..؟ أم أنني افتقد كل ما يمت إلى هاني بصلة..طفق يكرر هذا السؤال إلا أنه لم يجد جواباً مقنعاً، فطفق يردد قول الشاعر:

ما في الخيامِ أخو وجدٍ نطارحه　　حديثَ نجدٍ ولا خلٌّ نجاريهِ

عمد حامد إلى رسم (بورتريتاً) لهاني ولكنه ما إن بدت ملامح الصورة في البورتريت تتشكل حتى كان يساءل نفسه من جديد..هل رسمت صورة هاني أم أنني رسمت صورتي؟

****

عندما كان حامد في العيادة دخل عليه شاب وسيم يرتدي ملابس

أنيقة غير أنه أشعث الشعر بعينين محمرة يوحي منظره بأنه جاء من سفر طويل، بدأ معرفاً بنفسه:

- أنا محمد فضل.. فني صيدلة.. مُرسل من الخدمات الطبية بوزارة الدفاع.. أُرسلت مع المواد الطبية والمعدات اللازمة لتحضير الأدوية.. واحمل معي مكنات رش لمكافحة البعوض.

- أهلاً وسهلاً بك في غيل بن يمين.. كيف كانت الطريق معكم؟..لعلها أتعبتكم.

- إنها طويلة كثيراً.

- متى تحركتم من عدن ؟

- يوم السبت الماضي.. قبل يومين كنت أتناوب قيادة السيارة مع ابن العقيد.

- هل تقصد أن ابن العقيد أبوبكر.. جاء معك؟

- أجل..لقد أراد العقيد أن يطمئن على توصيل ذلك عن طريق ابنه.

كان الطبيب ينادي على عامل الخدمات لإحضار الشاي للضيف.

- ستُحل لنا هذه المركبات الطبية مشكلة كبيرة.. إن مشكلتنا تكمن في أنه لا يوجد أحد يبيع الأدوية في منطقتنا..تستطيع بدايةً السكن معي لنتدبر لكَ سكناً لاحقاً إن أردِت.. أتمنى يا عزيزي لك طيب الإقامة بيننا وسنكون سعداء بوجودك..أين هي المواد ؟

- في الخارج على سيارتكم الجديدة!!.



لِقـاء

كان عباس والد حورية يرسل إلى الطبيب حامد ابنه أو قُـل (برميلـه المتحرك)، لغرض عيادة ابنته حوريـة التـي قلَّـل حامـد مـن زياراتـه لهـا وانشغل عنها بفرشاته وألوانه الزيتية في حـين أنهـك مـرض (الهـستيريا) حورية كنتيجة انفعالية لقسوة والدها وقسوة البـين عليهـا، لقـد سـاءت حالتها لدرجة أن ذلك الأب قاسي القلـب كـان جزعـاً عليهـا!! بيـدَ أن حامد لم يستَجب لتلك الدعوات المتكررة من والدها.

كان الوقت عـصراً وقـد بـدت الـشمس تميـل نحـو مغربهـا التـي تـزحف إليه كان حامد منهمكاً مع فرشاته وألوانه حتى أنه فـتح النوافـذ على مصاريعها للسماح بدخول المزيد مـن الـضوء التـي أخـذت الغيـوم الملبدة في السماء جزءا منه،كان وقتها يضع اللَمسات الأخيرة على إحـدى لوحاته، إذ قُرع البابُ بإيقاع أشبه ما يكون بإيقـاع هـادم اللـذات، فـتح حامد الباب فإذا به وجهـاً لوجـه أمـام (عبـاس) والـد حوريـة بـشحمه ولحمه، كان أشـعث أغـبر كعادتـه لا يكـترث بهندامـه يتمنطـق بجنبيـة (قديمية) مصنوعة من عظمة الزرافة ذات نصلة قوية يستطيع أن يشتري بقيمتها ملابس تكفيه بقية عمره، ويتـزر بـبردة (حبانيـة) مقلمـة بـشكل أفقي أكل الزمن ألوانها، كـان يـستعطف حامـد لزيـارة ابنتـه، لإخـراج الدودة من أنفها.

أخذت الألوان من جسم حامد وملابسه حينها حيزاً كبيراً حتى إنه لم يصافح عباس لوجود الألوان على يديه.

- ابنتي ستموت.. أريدك أن تخرج الدودة من أنفها وسوف أدفع لكَ ما تريد.. (اطلب الله بدل رسم هذه الصور التي لا تأكل عيشاً).

صعد الدمُ إلى وجه حامد لسماعه هذه المساومة أمتعض وامتقع وجهه وبدا وكأنه يسأل نفسه هل يكون عباس قلقاً على ابنته، أم أنه قلق على المبالغ التي سيخسرها من بقايا قسطي مهرها في حال وفاتها.

- معذرة يا عم عباس.. لا استطيع أن أصنع لابنتك شيئاً.

- بل تستطيع إخراج الدودة اللعينة من أنفها.

- وما فائدة إخراج الدودة اليوم.. يا عم عباس.. الحل الوحيد لإنقاذ ابنتك هو بيدك أنت لا بيدي.

- لا أفهم ما تقول؟

- إذا تسامحت عن نصف المهر وأخَّرت النصف الآخر لتتم تُمَرحلته بطريقة معقولة سوف أبرق لرعد برقية ليعود وتتعافى ابنتك.. بعدها فقط سأخرج الدودة من أنف ابنتك لتعيش بقية حياتها في سعادة.. وتنجب لك أحفاد يملئون بيتك سعادة.. تلاطفهم ويلاطفونك تضاحكهم ويضاحكونك، وتعيش حياة جديدة كلها سعادة.

- من لي في هذه الدنيا غير ابنتي؟.. إنني اعتمد عليها أكثر من أخيها الأهبل؟

- الكلام لا يكفي لحل المشكلة.. فأنت تتراجع عن التزاماتك يا عم عباس؟

- هل تريدني أن اكتب التزاماً على نفسي؟.. سوف أعمله.. بل سوف

أكتب لك توكيلاً مطلقاً.. غير متراجع عنه في حل هذه الإشكالية.. وبالطريقة التي تراها مناسبة.. أنا أثق فيك ثقة مطلقة ولكنني قلق على ابنتي.. كانت العبرَات توشك أن تخنقه، وهو يقول: اغسل هذه الألوان لتكتب لنا تسوية بها تراه أنت.. اجعلني مظلوماً ولكن لا تجعلني ظالماً لابنتي!! مازالت العبرات تنازعه، حتى أن عينيه ذرفت دمعتين قام بمسحهما بطرف عمامته.

كان حامد مستغرباً مما يرى ويسمع. لذلك مد لضيفه بكوب من الماء، قرر حامد أن ينتهز الفرصة فعمد إلى غسل يديه بمادة (الكيروسين) لإزالة الألوان التي كانت تنتشر في ملابسه وجسمه ثم قام بغسلها ثانية بالماء والصابون وذهب إلى المطبخ ليعد شراباً لضيفه وأخذ قرطاساً وقلماً وجلس مع الضيف لتحرير وثيقة تسوية، لتخفيض وإعادة جدولة استحقاقات المهر المؤخر على رعد بما يتناسب مع إمكانيات رعد المادية والصحية، له ولزوجته العليلة، ولمّا أمضى عباس تلك (الحجة) التي أشهد بعضاً من جماعته عليها أبرق حامد برقية مستعجلة لرعد في الكويت أخبره بذلك واستعجله العودة.

في صبيحة اليوم التالي كان حامد يزور مزارع البرسيم للبحث عن (دودة السِّرو) وهي دودة صغيرة بيضاء تأكل البرسيم، اشتهرت بشراهتها.

كان يفتش عنها بين أغصان البرسيم الندية و(عكضاته)[1] المثقلة بحبات الندى، حتى عثر على دودتين منه، كانتا مناسبتين حجماً ولوناً.

ذهب حامد مهرولاً إلى بيت حورية يطلب الاستعداد لعملية إخراج الدودة، طلب منهم تجهيز (كانوناً) وإشعاله و(محماساً) وفلفلاً أحمر

---

(١) كلمة عامية يستخدمها المزارعون ومفردها عكضة وهي الحصَادات الأخيرة للبرسيم.

حارقاً ليصنع منه بخوراً لحورية ليذهب بها في موجة من العِطَاس حتى تَلِدُ من أنفها تلك الدودة، التي كان مستعداً بها في حجره، وما هي إلاّ ساعات حتى انتشر خبر خروج الدودة من أنف حورية في البلدة.

كان حامد موقناً أنه لن يأتيه أحدٌ ليزعجه في غرفته التي حوّلَ جزءاً منها إلى مرسم، ترك فيها ألوانه الزيتية وبقية أدوات الرسم ولوازمه، لذلك سمح للألوان أن تنال من جسمه في ما يشبه التمرد أو التحرر، لعله كان مبتهجاً لضمان عدم زيارة هادم اللذات ولنجاحه الموصول أيضاً لصديقه هاني في حل مُشكلة العاشقين رعد وحورية. لعله كان يرسم لوحة التمرد عن طريق اللاوعي بعقله الباطن على جسمه وملابسه، ولكثرة الألوان على جسمه أصبح كلوحة زيتية متحركة.

في هذه الأثناء طرق غرفته شخص غريب عن البلدة طويل القامة نحيل الجسم أسمر اللون يضع على رأسه عمامة فاقعة الصفرة، طويلة، لها رأس كتاج الديك ينتصب إلى الأعلى، وذيل كذيل الأفعى ينسَدلُ على ظهره ليصل إلى عجزه، أشبه ما تكون هذه بعمامة سائس ومراقص الأفاعي الهندي، أو لعلها أكثر شبها بالأفعى الهندية ذاتها عندما تلتف حول نفسها وترفع رأسها من وسطها مراقصة لسائسها، ابتدره ساعي البريد قائلاً:

- أنت الطبيب حامد ؟

- نعم.. أي خدمة؟

لعل الألوان المنتشرة على جسم الطبيب جعلت ساعي البريد يكرر سؤاله بحذر:

- أنت طبيب البلدة.. أنت حامد ؟..شعر حامد بالحرج من مظهره. لذلك قال:

- أجل أنا طبيب البلدة.

- لكم ثلاثة مظاريف.. وقِّعْ بالاستلام هنا لو سمحت. وكان يشير بسبابته إلى استمارة متعددة الاستبيانات كان يقدمها لهاني.

تبين من خلال طابع البريد الذي يحمل صورة وجه الملكة (إليزابيت) ملكة بريطانيا، من فئة العشرين سنتاً والمكرر على المظاريف أنها من الصديق هاني. بدا حامدُ فرحاً للغاية، حتى إنه تناول ورقة من فئة العشرة دنانير وهي كل ما كانت لديه، وأعطاها لساعي البريد، الذي هرول مسروراً، ثم عاد حامد إلى غرفته مسرعاً وبيده المظاريف كان أشبه بنسر جائع خطف أرنباً وتوَارى به خلف أحراش الغابة ليفترسها. لعل أسوأ ما كان يتوقعه أن يأتيه هادم اللذات ليشغله عن رؤية هذه المظاريف.

كان المظروف الأكبر يحتوي على عدد كبير من الصور التي التقطها هاني في البلدة التي قام بتحميضها وطبعها في لندن، بدا أن معظم من في البلدة لهم صور مفردة أو ضمن مجموعة. أما المظروف الثاني فيحتوي إشعار بإرسال شحنة من المواد والمعدات الطبية مهداة من مؤسسة (جون البيرتو) الوقفية إلى المركز الصحي (بغيل بن يمين). بيدَ أن أكثر ما بهر حامد هي مجموعة من الصور ذات الألوان الطبيعية لهاني وقد تحرر من عكازه وبدا حليق الذقن متأنق ببدلته رابطاً حول عنقه وردة من القماش المخملي الأسود، مُمسكة بمعصمه شابة فائقة الجمال ذات عينين خضراوين تحفهما رموشٌ طويلة كأهداب الفراشة، كانت ترتدي ثوب الزفاف وبدت وكأنها حورية، كان حامد مندهشاً وبدا يزم شفتيه ويحرك رأسه وهو يقول بصوت مسموع:

- حقاً أن إيزابيلا ثبتيرو تشبه كثيراً تلك الفتاة المغاربية مع مصاغ عرسها في تلك اللوحة الزيتية التي قمت برسمها[1]. لعله كما قال هاني بأن حوض البحر الأبيض المتوسط كان القاسم المشترك للسمات الجمالية في هاتين الآنستين الرائعتين، أم أن إيزابيلا هي ثمرة لهجين الدماء المورسكية العربية... لاشك بأنه الجمال المتوسطي الأكثر آلقاً -لاشتماله على فتنة الشرق وألق الغرب معاً- وهو ما تجسد في كيلوباترا وزنوبيا.. إنه الجمال الحقيقي الذي لا تتفاوت مقاييسه بين بلدان المنطقة وتمثل هاتان الآنستان عينته.

هناك صورة أخرى لابنة خالة هاني (مريم) وقد بدت متألقة الجمال بثوب الزفاف رغم أنها في خريف عمرها. بدت ممسكة بذراعها -ذا القفاز الأبيض- بمعصم شخص آخر أنيق ذا ملامح شرق أوسطية وقد علت وجهه ابتسامة عريضة، وصورة ثالثة تتوسطها العمة رحمة (أم هاني) وعلى يمينها هاني، وعلى يمينه إيزابيلا وعلى يسار العمة رحمة (مريم) وعلى يسار مريم الشخص ذو الملامح العربية الذي لم يعرفه حامد. وإلى جانبه شاب ذو قلنسوة يهودية وزنَارَتين تنسدِلان من صدغيه إلى الأسفل، وإلى جانب الشاب ذو القنسوة شابٌ آخر أسمر أنيق ووسيم يلبس بذلة رمادية اللّون وعلى رأسه عمامة سيخية وله لحية مهذبة داكنة وإلى جانبه سيدة فائقة الجمال ممتلئة الجسم، لها شعر يصل إلى فخذيها، تلبس (ساري) أخضر فاتح موشى بالترتر، بدت وكأنها عرنوسة ذرة شامية ناضجة. يظهر في خلفية الصورة على الجدار شعار فندق شيراتون.

---

١) صورة الغلاف

عاد حامد ليتفحَّص الصور مرة ومرات وبخاصة الصور الملونة. كانت ترتسم على محياه انفعالات مختلفة بدا مطرقاً في التفكير ممليـاً النظر في تلك الصور لعل شريط الذكريات قد عاد به إلى الخلف، كان أكثر ما يحدق في صورة مريم حتى انسابت قطرة من دمعه على صورتها قام بمسحها برقة متناهية وهو مازال محدق بها.

فطِن حامد مؤخراً إلى أنه مكتوب بظهر هذه الصور الكبيرة الحجم تعريف بأصحابها، كانت توقعاته في محلها، أما ذلك الشخص ذو الملامح العربية فإنه (شهاب اللبناني) وقد بدا عريساً وسيماً لمريم المتألقة، كما بدت العمة رحمة بعينين لامعتين تتحدَيان آلة التصوير. وكأنها تعوض ما فاتها من سنوات الظلام، أما الشاب ذو الزنارتين والقلنسوة فهو (سعد البوني) صديق هاني الذي تحدث عنه كثيراً، لعله حضر فرح صديقيه. باراً بوعده لهما!

كانت الصورةُ من الكبر و الوضوح بحيث أظهرت قلادة إيزابيلا الذهبية الهلالية الشكل.أما ذلك الشاب ذو العمامة السيخية فهو زوج (مير) بنت (سانجيف والا) الهندية المتألقة التي بدت في الصورة تضع يدها على عاتق زوجها.بدا الجميع متمتعين بالشباب والوسامة والجمال والأناقة و الآلق وكأنهم نخبة من النجوم في حفل (للأوسكار).

كان هاني في احد هذه الخطابات يدعوا حامداً وبدراً لزيارة بريطانيا لاستضافتهما لحضور حفل زواجه من إيزابيلا وزواج شهاب من مريم، وقد أرفق بذلك (فيزتي الاستقدام) إلاّ أن إدارة بريد مدينة الشِحر -كما بدا من أختام الوارد على هذه المظاريف - قد أخرت الخطابات لترسلها معاً.

انتهت



الفهرست

About the novel

Hani Ba-Ali has left his own town (Ghail Bin Yameen) and emigrated to the African coast.

The events of this novel is showing Hani BA-Ali's life, which has been mostly spent on the oceans , where he escaped and found a shelter for his self from his world on the land where is faced all kinds of desolateness , since his earliest youth .

There was an immortality love story, this novel speaks and The (Carthage) ship, Which is a theatre of this love story .

Heroes or main characters of story ;

Hani Ba-Ali , and Spanish girl named Ezabella met her in voyage ship .

Hani works a crew in the ship and he could saved Ezabella's life from the shark , So he lost his leg when the shark attacked him while he saved the girl but, he could win girl's heart .

Then she could take him to back land and still him stay on a land .

A land who has left it , Since along time , It made him for getting his family .

There is a historical breeding tides which this novel bears between the main hero (Hani Ba-Ali) and the Easter Carthaginian Commander who penetrated with his elephants the Romanian defenses in the west recording the greatest battles in the history.

The novel speaks about an immigrant from Hadramouth (East of Yemen). The land which only insisted to be an expulsion of population which it exports for centuries the best of her human resources on the account of its own development till it became like a brick manufacturer issuing in favor of what the best it produces to be used for development, but in the outer world.

This novel comes in the framework of the dialogue of civilizations. and that the most important heroes are from the Abraham trinity religions, as mentioned by the novel that the conflicts that devastating our world today is in fact a conflict between good and evil as the evil extremely involves religions and civilizations in the furnace targeting its high values, depending on the history. One of the heroes in this novel illustrates his group (the Jews) as they are the first victims of these conflicts and not vice versa.



hhsaggaf@yahoo.com

لمحة عن الرواية...

❖ غادر هاني باعلي بلدته(غيل بن يمين)مهاجراً إلى السواحل الإفريقية . تستعرض الرواية حياته التي قضى معظمها بين أمواج المحيطات التي كانت ملاذاً ومهرباً له من اليابسة التي كابد فيها صنوف الغربة مُذ كان صغيراً.

❖ كانت سفينة (Carthage) مسرحاً لقصة حب خالدة بين (هاني باعلي) وبين الفتاة الأسبانية (إيزابيلا ثبتيرو)التي كانت في رحلتها على متن هذه السفينة.

هاني الذي يعمل ملاحاً أنقَذ حياة إيزابيلا من سمك القرش ، و خسر جراَء ذلك رجلَهُ التي التهمها القِرش. بيدَ أنه كسِب قلب هذه الفتاة . حتى أنها تمكنت من إعادته وتوطينه على حياة اليابسة التي فارقها من سنوات طويلة، نسي خلالها حتى أهله.

❖ ثمة تزاوج تاريخي تحمله الرواية بين بطلها (هاني باعلي) وبين القائد القرطاجي الشرقي (Hannibal) الذي اخترق دفاعات روما الغرب بفيَلته مُسجلاً أحد أعظم معارك التاريخ.

❖ تحكي الرواية قصة مهاجر من (حضرموت)،هذه الأرض التي أبت إلاّ أن تكون منطقة طردٍ سُكاني، لتُصدِر عبر قرونٍ من الزمن أفضلَ ما تُنتجه من مواردَ بشريةٍ ، على حِسَاب تنميتها ، حتى غدَت(أشبه بمصنع طُوب يُصَدِر صالح ما ينتجه) ليتم به البناء ولكن في الخارج!!

❖ تأتي الرواية في إطار حوار الحضارات . كما أن أهم أبطالها، ينتمون إلى الأديان الإبراهيمية الثلاثة .كما تُبين الروايةُ أن النِزَاعات التي تعصِفُ بعَالمنا المعاصر هي في الحقيقة صراعٌ بين الخَير وبين الشَر، يحاولُ الشرُ إقحام الأديان والحضارات في أتُونها، مستهدفاً قِيَمها السَّامية. واستعانة بالتاريخ يُصوّر لنا أحد أبطال هذه الرواية جماعته (اليهود) بأنهم الضحية الأولى لهذه الصراعات وليس العكس.











مركز عبادي للدراسات والنشر
ص.ب : 662 - صنعاء
ت : 485691 / 485692 فاكس : 485692
سيار : 777219617
الجمهورية اليمنية